بعثة إلى نجد

١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ

(١٩١٧-١٩١٨م)

تأليف

سانت جون فيلبي

قدَّم لهذا العمل تاريخياً وترجمه وعلَّق عليه

الدكتور

عبد اللّه الصالح العثيمين

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، سانت جون

بعثة إلى نجد: ١٩١٧-١٩١٨م/ ترجمة وتعليق عبدالله الصالح العثمين - الرياض.

٢٧٠ ص؛ ١٧X٢٤ سم

ردمك: ٩٧٥X -٣١- ٩٩٦٠

١- الصعودية - تاريخ الملك عبدالعزيز - ٢- نجد - تاريخ أ - العثيمين عبدالله الصالح (مترجم) ب- العنوان

ديوي ١٠٥، ٩٥٣ ١٧/٣٤٠٣

ردمك: ٩٧٥X -٣١- ٩٩٦٠

رقم الإيداع: ١٧/٣٤٠٣

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

صورة الغلاف:

فيلبي وجماعته خلال البعثة التي تَحدَّث عنها مأخوذة من كتاب اليزابث مونرو.

امتياز التوزيع

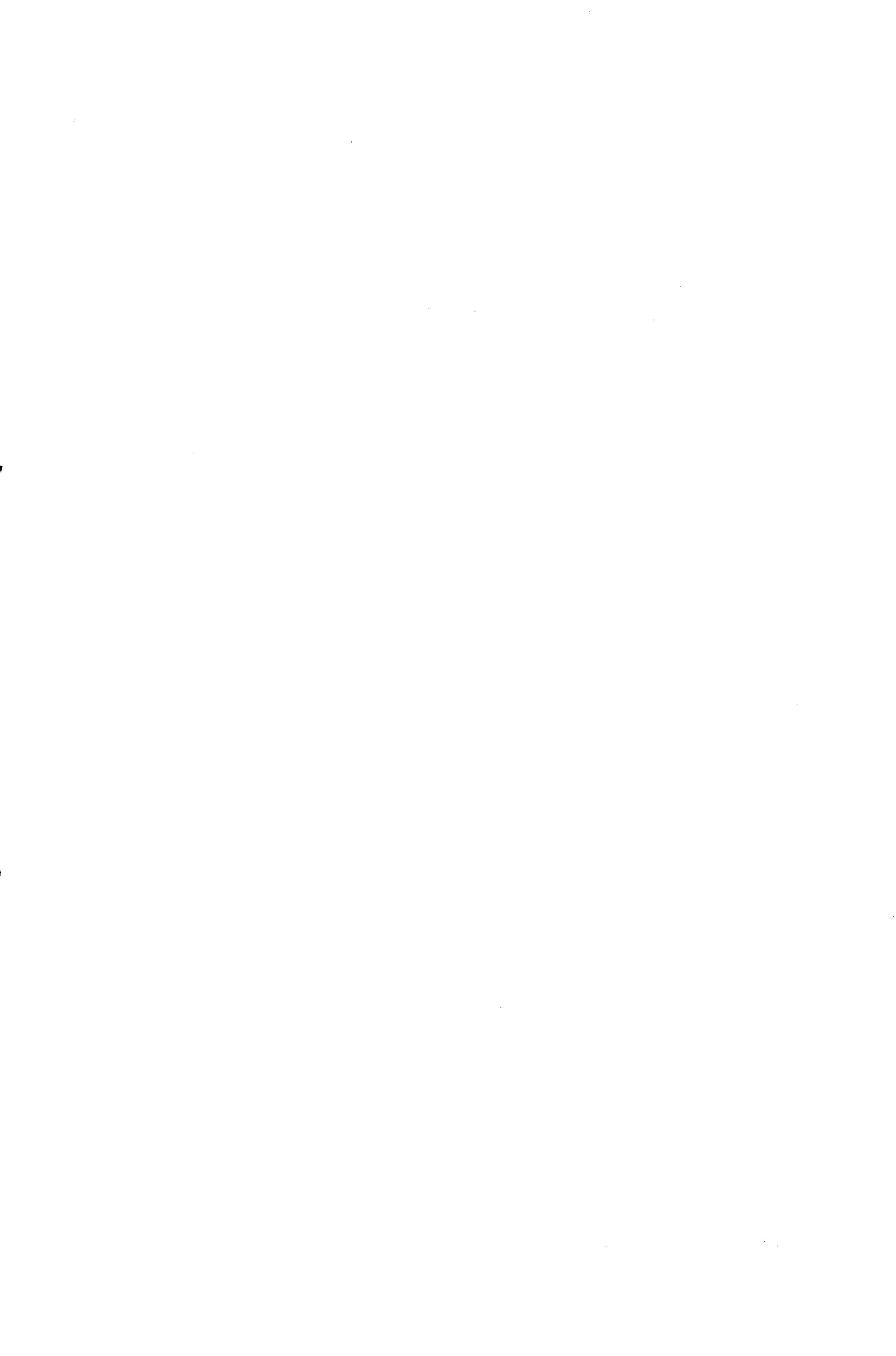
مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدّمة المترجم

الحمد للّه ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد الأولين والآخرين نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه الغُرِّ الميامين.

أما بعد

فإن لجزيرة العرب؛ قديماً وحديثاً، مكانتها الرفيعة لدى أهلها، ولها أهمِّيتها الحيوية لدى العالم كلِّه. فهي مهد العرب، وموطن حضارتهم الأولى. وفيها بيت اللَّه المحرَّم، الذي كانت له منزلته السامية في نفوسهم قبل ظهور الإسلام: إليه يحجُّون، وله يعظِّمون ويقدِّسون. وهي ذات موقع جغرافي متميِّز جعل منها، في القرون الغابرة، حلقة وصل تجاري مهمَّة بين قارات العالم القديم. وكانت جهود سكانها في ذلك الميدان واضحة المعالم، قويَّة الأثر.

ولما شع نور الإسلام ببعثه خير خلقه، محمد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ازدادت مكانة الجزيرة العربية رفعة وأهمية، وازدادت منزلة بيت اللَّه المحرَّم عظمة وجلالا. ذلك أن الجزيرة أصبحت مهبط خاتم الرسالات، ومنطلق أعظم دولة؛ شرعاً ونظاماً وعدلاً، وأن اللّه جعل الحج إلى بيته أحد أركان الدين القيِّم لمن استطاع إليه سبيلاً، وقبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها في جميع صلواتهم.

وظلَّ لموقع الجزيرة العربية المتميِّز أهمِّيته وحيويته بين قارات العالم. وكان هذا واحداً من أسباب عدة جعلت بعض الدول

الأوربية ذات الأطماع الاستعمارية تتنافس على مدِّ نفوذ لها على أجزاء منها؛ خاصة في سواحلها، لتؤمن طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها في شرق آسيا وجنوبها. وقد بدأ ذلك التنافس في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. وكان لبريطانيا، آخر الأمر، قصب السبق فيه؛ إذ أصبح لها نفوذ كبير في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية. ثم ازدادت أهمِّية الجزيرة العربية، بطبيعة الحال، إثر تدفُّق النفط من أعماق أراضيها، واكتشاف أنها ذات احتياطي هائل منه.

وللمملكة العربية السعودية، بالنسبة لجزيرة العرب، مكان الصدارة. فأهميتها لا تقتصر على كونها تشتمل على أكثر من ثلاثة أرباعها من حيث المساحة؛ بل تتجاوز هذا إلى كونها تشتمل على مكة المكرمة والمدينة المنوَّرة، مهدي الحرمين الشريفين، وكونها ذات قيادة لها جذورها الممتدة إلى أكثر من قرنين ونصف القرن ولها تاريخها السياسي الواضح؛ نهجاً وتطبيقاً. وبالإضافة إلى ما سبق فقد منحها اللَّه من الثروة النفطية بالذات ما ساعدها على تحقيق تقدُّم في جميع جوانب حياة شعبها، والإسهام بنصيب وافر في دعم العرب والمسلمين في كل مكان.

ومنذ أن قامت أول دولة سعودية؛ متبنِّية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، والكتابات عن قادة آل سعود تترى، والأحاديث عن السكان الذين توحَّدوا على أيديهم تتواصل.

ولاشك أن هذه الأحاديث وتلك الكتابات تختلف؛ منهجاً وأسلوباً، باختلاف الكتاب والمتحدِّثين؛ قدرة واتجاهاً. على أن كل كتابة يمكن أن تعين المؤرخ في عمله، وكل حديث يمكن أن يساعده في تحليله. ومقارنته بين الكتابات والأحاديث المختلفة أحرى بأن تيسِّر له طريق الوصول إلى هدفه المنشود.

ولفيلبي - والحديث عنه سيأتي فيما بعد - مواهب متعدِّدة، وجهود كثيرة متشعِّبة. لكن ما يأتي في الدرجة الأولى من الاهتمام، هنا، هو كتاباته عن المملكة العربية السعودية؛ تاريخاً وأرضاً ومجتمعاً. وللمرء أن يقول بدون تحفُّظ: إنه فاق غيره في هذا الميدان؛ غزارة إنتاجية، وتنوُّعاً موضوعياً. ولعلَّ تقريره الذي كتبه عن البعثة التي رأسها إلى نجد، عامي ١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ/ ١٩١٧-١٩١٨م، أول كتابة يدوِّنها عن الملك عبد العزيز والبلاد السعودية. ولكونها كذلك أهمِّيتها؛ إيجاباً وسلباً. فبعض المعلومات التي وردت فيها مفيدة. وبعض الآراء التي اشتملت عليها تحتاج إلى تقويم.

وكنت قد ترجمت ذلك التقرير - بتوجيه من صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز - قبل عامين تقريباً. ولاشتماله على ما قد يفيد المؤرخ والقارئ أصبح لنشر تلك الترجمة ما يبرِّره. على أني رأيت من المستحسن أن أقدِّم لنص ذلك التقرير المترجم بلمحة تاريخية عن المملكة قبل كتابة فيلبي تقريره المشار إليه، ثم بحديث

موجز عن ذلك الكاتب. ورأيت من المستحسن، أيضاً - وربما من الضروري - أن أعلّق على ما يحتاج إلى تعليق من ذلك التقرير؛ تعريفاً بالأسماء، وتحديداً للأمكنة، وإيضاحاً للمسائل، أو تصحيحاً لها.

ويسعدني، هنا، أن أقدِّم الشكر الجزيل لأخي اللواء عبد الرحمن ابن عبد اللّه المرشد، قائد كلية الملك عبد العزيز الحربية، الذي توصَّلت بمساعدته إلى معرفة الرموز العسكرية الواردة في التقرير، كما يسعدني أن أعبِّر عن تقديري لزميلي في العمل الأستاذ السِّر مساعد الخليفة لما قام به من طباعة هذا العمل على جهاز الطباعة.

وإني لآمل أن يجد القارئ الكريم في العمل الذي بين يديه ما يشفع لمن قام به من تقصير.

ولا يفوتني - والكتاب يطبع ثانية - أن أحمد الله على ما لقيه من قبول لدى كثير من القراء، وأن أشكر، بصفة خاصة، شيخي حمد الجاسر على عرضه المفصَّل له.

واللَّه وليُّ التوفيق

عبد الله الصالح العثيمين

٣/٦/١٤١٩هـ

لمحة تاريخية

للحكم السعودي، الذي تتوَّج بقيام المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز - رحمه اللَّه - جذوره التاريخية الممتدة إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي[1]. وكانت بدايته تلك المبايعة التي تمَّت في الدرعية بين الأمير محمد بن سعود، والشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م. وتتكوَّن المملكة الحالية من مناطق متعدِّدة كان لكل واحدة منها ظروفها السياسية الخاصة قبل قيام الحكم السعودي.

كان الأشراف الحسنيون قد وصلوا إلى الإمارة في الحجاز مع بداية القرن الرابع الهجري. وظلَّت الإمارة في أيديهم قروناً، وإن انتقلت من فرع إلى آخر مع مرور السنين. وكانوا يدينون بالولاء للدول الإسلامية القوية؛ خاصة تلك التي كان مركزها بغداد أو القاهرة. وفي عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٦م أصبحت الحجاز تابعة رسمياً للدولة العثمانية، وظلَّ الأشراف يتولَّون إمارتها وشؤونها الداخلية. وقد مدَّ هؤلاء نوعاً من النفوذ لهم على أجزاء من عسير؛ خاصة تهامة، ولكن الزعماء المحلِّيين في السراة بالذات كانوا يتصرَّفون بصفة

---

(١) كان جد آل سعود، مانع المريدي، هو الذي أنشأ بلدة الدرعية سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م، وظلَّ أفراد من نسله يتوارثون إمارتها إلى أن وليها محمد بن سعود سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م. وأصبح نسله حكام البلاد.

مستقلة إلى درجة كبيرة. وكان يتزعَّم جازان - خلال القرن الثاني عشر الهجري - أناس من الأشراف الذين انفصلوا عن بني عمومتهم في مكة، كما كان لنجران رؤساؤها المحلِّيون؛ وفي طليعتهم المكارمة، الذين لزعامتهم صبغة دينية[١]. وكانت منطقة الأحساء والقطيف تحت حكم آل حُمَيْد، زعماء قبيلة بني خالد، الذين انتزعوا السلطة فيها من العثمانيين حوالى سنة ١٠٨٠هـ/ ١٦٧٠م[٢].

أما منطقة نجد، التي تمثِّل قلب جزيرة العرب ومنطلق الحكم السعودي، فقد عاشت قروناً عديدة مفكَّكة سياسياً؛ إذ كانت لكل بلدة فيها إمارة مستقلة عن غيرها متنازعة، في بعض الأحيان، مع البلدة القريبة منها، ولكل قبيلة من قبائلها الرحَّل زعامة تتبادل الغزوات مع القبائل الأخرى. وكان ذلك التفكُّك السياسي مما شجَّع أشراف الحجاز على القيام بغزوات لبعض بلدانها وقبائلها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري والنصف الأول من القرن الذي تلاه، كما شجَّع زعماء بني خالد على بدء غزواتهم لها بعد استتباب الأمور لهم في الأحساء والقطيف. ولم تكن الغزوات الشريفية أو الخالدية ذات أثر إيجابي على أوضاعها السياسية أو الأمنية؛ إذ بقيت

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى ما دوَّنه كاتب هذه السطور في كتابه: **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط٦، ج١، ص ص ١٩-٢٦.

(٢) من الواضح أنهم استولوا على إقليم الأحساء حوالى سنة ١٠٧٦هـ، لكن استكمالهم الاستيلاء على كل منطقة الأحساء والقطيف كان كما ذكر في المتن. انظر عن ذلك عبدالكريم المنيف، **بنو خالد وعلاقتهم بنجد ١٠٨٠-١٢٠٨هـ**، الرياض، ١٤١٠هـ، ص ص ١٦٣-١٧٦.

النزاعات بين بلدانها وقبائلها المختلفة على أشُدِّها[1]. وكان من الإمارات المشهورة فيها إمارة آل معمَّر في العُيَيْنة وإمارة آل سعود في الدِّرعية. ولعلَّ من غريب الصدف أن نشأة كل منهما كانت في سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م[2]. وكانت الأولى أقوى إمارة نجدية في عهد عبداللّه بن محمد بن معمَّر المتوفى سنة ١١٣٨هـ/ ١٧٢٥م[3]. أما الثانية فأصبحت، في عهد الدولة السعودية الأولى، أعظم دولة شهدتها جزيرة العرب منذ صدر الإسلام؛ تبنِّياً لعقيدة التوحيد الصافية، وتطبيقاً لشريعة اللّه السمحة، وتحقيقاً للأمن، واتساعاً جغرافياً.

كان ذلك هو ما وصلت إليه الأوضاع السياسية في مناطق البلاد المختلفة خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري. وما كانت أوضاعها الدينية حينذاك بأحسن من أوضاعها السياسية. لقد انتشرت بين المسلمين، عبر القرون، بدع وخرافات كثيرة؛ منها ما أدَّى إلى الوقوع في الشرك؛ قولاً أو عملا. وكان من أسباب ذلك غلبة الجهل في المجتمعات الإسلامية. ولم تكن جزيرة العرب مختلفة، بصفة عامة، عن غيرها من الأقطار في تلك الأمور، وإن تفاوتت نسبة السوء من مكان إلى آخر فيها[4]. لكن اللّه، سبحانه، هيَّأ الأسباب وبدَّل الأحوال.

(١) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ٣٧ - ٣٩.

(٢) عثمان بن بشر، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، طبعة وزارة المعارف الثانية، الرياض، ١٣٩١هـ، ج٢، ص ص١٨٩-١٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٦.

(٤) عن تلك الأوضاع يمكن الرجوع إلى العثيمين، **تاريخ المملكة**...، ج١، ص ص ٢٤-٢٨، ٣٤-٣٥، ٥١-٥٧.

مع بداية العقد الخامس من القرن الثاني عشر الهجري كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥-١٢٠٦هـ/ ١٧٠٣-١٧٩٢م)[1] قد عاد إلى نجد من أسفاره خارجها؛ مسلَّحاً بسلاح العلم الوافر، وعزيمة المصلح الرائد. فكان أن بدأ في حُرَيملاء يدعو إلى إخلاص العبادة للّه وحده، ومحاربة البدع والخرافات بأنواعها، وتطبيق الشريعة في كل جانب من جوانب الحياة. وأيَّده من أيّده في الأصول العامة للدعوة، وعارضه من عارضه فيها أو في بعض تفصيلاتها. ثم انتقل إلى العُيَيْنة، مسقط رأسه، بعد أن قبل أميرها عثمان بن مُعمَّر دعوته. وبوقوف هذا الأمير معه، ومعونته له، أصبح الجو مهيَّأً لتطبيق ما كان يدعو إليه. فقام هو وأنصاره بإزالة كل مظهر لا يتَّفق مع أصول الدين وعقيدة التو حيد. وكان ذلك التطبيق للدعوة مما كثَّف جهود معارضيه من العلماء المحلِّيين، لكن جهودهم لإيقاف مدِّ دعوته فشلت. فاستنجدوا بالعلماء غير النجديين للردِّ عليه. غير أن كتابات هؤلاء المنجدين ضده فشلت، أيضاً، في تحقيق أهدافها. لذلك لجأ المعارضون له من النجديين وغيرهم إلى الزعماء السياسيين يحثُّونهم على وضع حدٍّ لتلك الدعوة؛ مدَّعين أنها خطر على عقائد الناس، وأنها تهدف إلى إثارة العامة على الخاصة. واستجاب لهم سليمان

---

(١) كانت وفاته آخر يوم من شوال سنة ١٢٠٦هـ. حسين بن غنَّام، **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، طبعة أبابطين، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج٢، ص ١٥٤. ويوافق هذا ١٨/ ٦/ ١٧٩٢م.

ابن محمد، زعيم بني خالد حاكم الأحساء والقطيف، فهدَّد ابن مُعَمَّر إن لم يتخلَّ عن مساندة الشيخ محمد. وخاف ذلك الأمير من تهديده، فأخبر الشيخ بأنه لا يقدر على حمايته، وأن عليه أن يرحل من بلدته.

وعندما أدرك الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لابد من الرحيل عن البلدة التي شهدت أوَّل تطبيق لدعوته رأى أن الدرعية أنسب مكان يمكن أن ينتقل إليه. ذلك أنها قريبة جغرافياً من العُيَيْنة، وقوَّتها آخذة في الازدياد؛ يوضِّح ذلك صدُّها لحملة بني خالد عليها سنة ١١٣٣هـ، وتفكيرها في مهاجمة العُيَيْنة بعد ست سنوات من ذلك التاريخ، ومساعدتها لأمير الرياض، دهام بن دوَّاس، ضد معارضيه سنة ١١٥١هـ[1]، واستقرار الأمور فيها لمحمد بن سعود الذي تولَّى إمارتها منذ عام ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦، كما سبق أن ذكر، وعلاقة أمرائها بزعامة بني خالد لم تكن حسنة، فتعاطفهم مع من حاربته تلك الزعامة أمر مرجَّح. لكن ما هو أهم من ذلك كلِّه أن دعوة الشيخ محمد كانت قد لقيت قبولاً لدى عدد من الشخصيات البارزة في الدرعية. وفي طليعة هؤلاء إخوة أميرها، محمد بن سعود، وابنه عبد العزيز، وآل سُوَيْلم.

وهكذا توجَّه الشيخ إلى الدرعية مصحوباً بعدد من الرجال الذين

(١) ابن بشر، ج٢، ص ص ٢٣٣ و٢٤١.

بعثهم ابن مُعَمَّر معه لحراسته؛ وذلك عام ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م. ولما وصل إليها رحَّب به أميرها، وتعهَّد له بالحماية والمناصرة، وتبايعا على ذلك. وكانت تلك المبايعة بمثابة مولد دولة جديدة قائمة على أساس التوحيد في بعديه الديني العقدي، والسياسي الوطني[١]؛ هي الدولة السعودية الأولى.

ولقد شهد العامان الأولان من عمر الدولة السعودية الناشئة انضمام عدد من البلدان النجدية إليها بطريقة سلمية. وفي مقدَّمة تلك البلدان العُيَيْنة وحُرَيملاء ومنفوحة. وكان هذا مما غيَّر ميزان القوة في المنطقة لصالحها، وهيَّأها لدخول مرحلة جديدة ذات طابع عسكري مع خصومها؛ وهي أكثر ثقة وأملاً. على أن مجابهتها مع أولئك الخصوم كانت طويلة وشاقة. ذلك أن التفكُّك السياسي، الذي سبقت الإشارة إلى هيمنته على تاريخ نجد عدة قرون، قد رسَّخ مشاعر الاستقلال، أو كراهية الاندماج والوحدة، في نفوس كثير من الأمراء والزعماء. ومن هنا لم يكن غريباً أن استغرق توحيد قادة تلك الدولة لأقاليم نجد أكثر من أربعين عاماً.

ولقد كان من حسن حظ الدولة السعودية الأولى أن الخلاف قد نشب بين زعماء بني خالد، الذين كان يُتَوَقَّع أن يقفوا ضدها في

(١) لقد كتبت عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رسائل علمية وبحوث كثيرة. ومما ألَّفه عنه كاتب هذه السطور كتاب **الشيخ محمد بن عبد الوهاب: حياته وفكره**، ط٢، دار العلوم بالرياض، ١٤١٢هـ. وهو كتاب اعتمد، بدرجة كبيرة، على رسالة كاتبه التي نال بها الدكتوراه من جامعة أدنبرا في بريطانيا عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

السنوات الأولى من نشاطها. ولعلَّ من أدلَّة نشوب ذلك الخلاف بين أولئك الزعماء أن سليمان بن محمد، الذي كان وراء إخراج الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العُيَيْنة، قد مات طريداً في الخَرْج سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م[١]. ولم يتمكَّن الزعيم الخالدي، عُرَيعر بن دُجَيْن، من السيطرة على مقاليد الأمور في قبيلته إلا سنة ١١٧١هـ. فقاد، في السنة التالية، حملة عسكرية إلى نجد، لكنها فشلت في تحقيق أي انتصار. ومع أن الزعماء الخالديين استمروا في عدائهم للدولة السعودية؛ مناصرين لخصومها النجديين أحياناً، ومخترقين لأراضيها عسكرياً أحياناً أخرى، فإن الفشل كان حليفهم بصفة عامة. ومع نهاية القرن الثاني عشر الهجري تغيَّر ميزان القوة بينهم وبين قادة الدولة السعودية لصالح هؤلاء القادة. ولعلَّ من أهم أسباب ذلك التغيُّر تجدُّد الخلافات داخل الزعامة الخالدية، ونجاح القادة السعوديين في توحيد نجد. ولم ينته عام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م إلا وقد تمَّ توحيد منطقة الأحساء والقطيف، أيضاً، تحت الحكم السعودي[٢].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٤٣.

(٢) من الكتابات عن علاقات زعماء بني خالد بالدولة السعودية الأولى ما دوَّنه كاتب هذه السطور في كتابه: **محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط٢، الرياض، ١٤١٣هـ، ص ص ٣٧-٥٤. وأوفى من ذلك ما كتبه المنيف في كتابه المشار إليه سابقاً.

ولم يكن أشراف الحجاز في معزل عما جرى في نجد منذ أن قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب بدعوته فيها، وقامت الدولة السعودية بمناصرة تلك الدعوة. فقد وصلت إليهم الأخبار؛ خاصة من المعارضين النجديين. وأفتى علماؤهم بكفر الشيخ محمد، ومنعوا أتباع الدولة التي تبنَّت دعوته من أداء الحج أكثر من خمسين عاماً[1].
على أن مما يلفت النظر أنهم - رغم إخبارهم السلطنة العثمانية عند بداية تلك الدعوة بأنهم سيقاتلونه إن لم يترك مذهبه - لم يقوموا بأي عمل عسكري ضد الدولة السعودية قبل ثمانية وأربعين عاماً من قيامها. ولعلَّهم كانوا يأملون أن تنجح المعارضة النجدية، بمساعدة زعماء بني خالد، في القضاء على تلك الدولة. لكنهم عندما رأوا انهيار تلك المعارضة، وتوحيد آل سعود لنجد، وتقدُّمهم في عمليات توحيدهم لمنطقة الأحساء والقطيف ذاتها، أدركوا أنه لابد من تدخُّلهم العسكري. وكان ذلك عام ١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م. على أن آمالهم ضاعت سدى. فقد فشلوا في هجماتهم على نجد، ثم فشلوا في دفاعهم عن الحجاز. وكان مما زاد موقفهم العسكري حرجاً انضمام منطقة عسير إلى الدولة السعودية بحيث أصبحت الحجاز محاطة، من أكثر جهاتها، بمناطق تابعة لهذه الدولة. وفي عام

(١) بدأ المنع تقريباً من سنة ١١٦١هـ، واستمر إلى سنة ١٢١٣هـ؛ باستثناء سنتي ١١٨٥هـ و١١٩٧هـ.

١٢٢٠هـ/ ١٨٠٦م. اضطر شريف مكة، غالب بن مساعد، إلى الدخول في ظلِّ الحكم السعودي[١].

وبالإضافة إلى ما سبق دخل تحت حكم الدولة السعودية الأولى كلٌ من جازان ونجران، وأجزاء من اليمن وعمان وبلدان الخليج الأخرى. وامتد نفوذها إلى خارج الجزيرة العربية؛ إذ دفعت إليها الزكاة بعض القبائل في العراق والشام[٢].

ومن الواضح أن القادة العثمانيين لم يهتموا كثيراً بالدولة السعودية عندما كانت توحِّد منطقة نجد، التي لم يكن لهم نفوذ مباشر عليها. بل إنهم لم يستجيبوا لشريف مكة حين طلب منهم المساعدة عام ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م[٣]. لكن موقفهم سرعان ما تغيَّر لأسباب من أهمِّها اكتمال توحيد آل سعود لنجد، واستتباب الأمر لهم في منطقة الأحساء والقطيف المتاخمة لولاية العراق، وانتصارهم على قوات الشريف غالب في معركة الجَمَّانية بعالية نجد عام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م[٤]؛ وهي المعركة الفاصلة التي حوَّلت موقفه من الهجوم إلى الدفاع. ولهذا سارعوا إلى إرسال حملة من العراق بقيادة

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ١٢٣ - ١٣٧.

(٢) ابن بشر، ج١، ص ص ١٧٠-١٧٣.

(٣) أحمد بن زيني دحلان، **خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام**، استانبول، ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٢٦٣.

(٤) ابن بشر، ج١، ص ص ١٣٥-١٣٦.

ثُوَيْني بن عبد اللّه، زعيم قبيلة المنتفق، عام ١٢١١هـ. لكن تلك الحملة فشلت فشلاً ذريعاً بعد أن قتل قائدها مملوك اسمه طُعيْس قبل أن تشتبك مع القوات السعودية التي وُجِّهت لصدِّها؛ وذلك في مستهل العام التالي. ثم أرسلوا حملة ثانية من العراق، أيضاً، بقيادة مساعد والي بغداد، علي الكيخيا، سنة ١٢١٣هـ. وقد وصلت هذه الحملة إلى الأحساء لكن صمود الحاميات السعودية هناك، وتوجُّه الأمير سعود بن عبد العزيز بقوات كبيرة من نجد لقتالها، كانا من أهم الأسباب التي جعلت قائدها يقرِّر الانسحاب والصلح مع سعود[١].

وإذا كان من أكبر دوافع القادة العثمانيين لإرسال الحملتين المذكورتين سابقاً خوفهم من دخول منطقة الحجاز المهمَّة لهم؛ معنوياً وسياسياً، تحت الحكم السعودي فإن دخول تلك المنطقة فعلاً تحت ذلك الحكم قد زاد من تصميمهم على محاربة الدولة السعودية الأولى لانتزاع الحجاز منها وتحطيمها. وكان ما كان من تكليفهم لوالي مصر، محمد علي باشا، ليقوم بتلك المهمَّة. وقد نجح ذلك الوالي فيما كلِّف به؛ إذ انتزع ابنه طوسون الحجاز من آل سعود، ثم قضى ابنه إبراهيم على دولتهم سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م[٢].

على أن القضاء على الدولة السعودية الأولى؛ سياسياً وعسكرياً،

---

(١) عن هاتين الحملتين انظر العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ١٥٣-١٦٠.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر المرجع نفسه، ج١، ص ص ١٩١ -٢٠٧؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم، **الدولة السعودية الأولى**، ط٢، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ص ٢٩٧-٣٤٣.

لم يطفئ جذوة المبادئ، التي قامت على أساسها تلك الدولة، في نفوس أبنائها. ولهذا سرعان ما قامت محاولات لإعادة توحيد البلاد[١]. وكلِّلت تلك المحاولات بنجاح الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود في إجبار بقية قوات محمد علي - حاكم مصر - على مغادرة نجد عام ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م[٢]. وبهذا بدأت الدولة السعودية الثانية، التي أصبحت الرياض عاصمة لها.

واجتمع تقدير النجديين، بصفة عامة، للمبادئ التي قام عليها الحكم السعودي، وإدراكهم لفوائد الوحدة التي شهدوها تحت ظلِّه، مع ما كان يتمتَّع به الإمام تركي بن عبد الله من صفات قيادية، فلم يمرَّ عامان على إخراجه قوات محمد علي من نجد إلا وقد انضوت تحت لوائه جميع البلدان النجدية طائعة مختارة[٣]. وما إن اكتمل توحيدها حتى اتجه نظره إلى منطقة الأحساء والقطيف ليوحِّدها معها. ونجح في ذلك عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م. وقد دخلت تحت حكمه، أيضاً، أكثر المناطق التي سبق أن دخلت تحت حكم الدولة السعودية الأولى في جهات عمان. على أن ذلك الإمام العظيم اغتيل آخر يوم من سنة

---

(١) كانت أول محاولة بقيادة محمد بن معمَّر، ابن أخت الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود. وكانت المحاولة الثانية بقيادة مشاري بن سعود بن عبد العزيز. ابن بشر، ج١. ص ص ٢٩٤-٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ص ٢٣-٢٤.

(٣) لم يشذَّ عن ذلك الدخول الاختياري إلا بلدة أو بلدتان في إقليم الخرج، المصدر نفسه، ج٢، ص ص ٢٥-٢٧.

١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م بمؤامرة دبَّرها ابن أخته مشاري بن عبد الرحمن. واستولى هذا الأخير على مقاليد الأمور في الرياض. لكن فيصل بن تركي، الذي كان على رأس قوات سعودية في شرقي البلاد للقضاء على فتنة قامت هناك، عاد مسرعاً إلى الرياض، وقضى على مشاري، وأصبح الحاكم الجديد للدولة بعد أربعين يوماً فقط من مقتل أبيه[1].

وما إن استتب الأمر للإمام فيصل بن تركي في البلاد التابعة له حتى أرسل محمد علي، الذي ازدادت طموحاته في تكوين دولة مترامية الأطراف على حساب الدولة العثمانية نفسها، حملة إلى نجد بقيادة خالد بن سعود، أخي آخر حكام الدولة السعودية الأولى. وقد أدَّت تلك الحملة، ثم ما أرسل من تعزيزات لها بقيادة خورشيد باشا، إلى إنهاء الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل بن تركي، وترحيله إلى مصر، سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م[2].

وكان نجاح محمد علي باشا في جبهات متعدِّدة؛ خاصة في جهات الخليج العربي، من الأمور التي جعلت بريطانيا تتزعَّم دولاً أوربية لكبح جماحه. وعُقِدَ مؤتمر لندن الشهير، عام ١٨٤٠م/ ١٢٥٦هـ،

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٢٢٤-٢٣٤.

(٢) من أوفى الكتابات عن الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل رسالة الأستاذة هناء العوهلي، **الأحوال السياسية في الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل بن تركي: ١٢٥٠-١٢٥٤هـ**، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ بجامعة الملك سعود، ١٤٠٢هـ. ومن الكتابات المختصرة عنها ما أورده العثيمين في **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ٢٣٧-٢٤٩.

الذي فُرِضَ فيه على حاكم مصر سحب قواته من جهات معيَّنة في مقدَّمتهَا جزيرة العرب. ولأنه لم يبق مع خالد بن سعود في نجد إلا حاميات صغيرة اضطر إلى مغادرة البلاد أمام منافسة عبد اللَّه بن ثُنَيَّان؛ وذلك عام ١٢٥٧هـ[١]. وبعد ذلك بسنتين عاد فيصل بن تركي من مصر إلى نجد، واستعاد الحكم فيها وفي الأحساء والقطيف وما كان يتبعها من مناطق في جهات عمان. وظلَّ يحكم البلاد إلى وفاته سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م[٢].

على أن عبد اللَّه بن فيصل، الذي بويع بالحكم بعد وفاة أبيه، لم ينعم باستقرار الأمور له طويلاً. ذلك أن أخاه سعوداً خرج من الرياض مغاضباً له. ودارت بينهما معارك كان من نتائجها خروج منطقة الأحساء والقطيف من الحكم السعودي لصالح الدولة العثمانية، التي ضمَّتها إليها بحملة من العراق سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م[٣]. وقد توفي سعود في الرياض بعد ذلك بثلاث سنوات؛ وهو الحاكم لهذه البلدة وما حولها من بلدان. وتولَّى الأمر بعده أخوه عبد الرحمن - أبو الملك عبد العزيز - مدة سنتين، ثم تنازل عن الحكم لأخيه عبد اللّه الذي أخذ حكمه يضعف يوماً بعد آخر أمام مدِّ نفوذ أمير نجدي طموح هو: محمد بن عبد اللَّه بن رشيد[٤].

---

(١) ابن بشر، ج٢، ص١٢٤.

(٢) إبراهيم بن عيسى، **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر**، طبع ملحقاً لتاريخ ابن بشر المعتمد عليه في هذا العمل، ص ٤٩.

(٣) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ٢٩٢ -٢٩٥.

(٤) المرجع نفسه، ج١، ص ص٢٩٧-٣١٢.

كان محمد بن رشيد الابن الثالث الأصغر من أبناء عبد اللّه بن علي ابن رشيد، الذي كان أثيراً لدى الإمام فيصل بن تركي والذي عيَّنه ذلك الإمام أميراً لجبل شمَّر سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م. فكان عبد اللَّه المؤسس لإمارة آل رشيد. وقد حصل له ما حصل من نجاح في شمالي نجد[1]. ولما توفي، سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م خلفه في الإمارة ابنه الأكبر، طلال، الذي رسَّخ قوة الإمارة وزاد نفوذها اتساعاً؛ خاصة في شمال الجزيرة العربية. وكان عُبَيْد بن علي بن رشيد الساعد الأيمن لأخيه عبد اللّه، ثم لابن أخيه طلال. وقد توفي طلال سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٦م فحلَّ محلَّه في الإمارة أخوه متعب، الذي لم ينعم بها طويلاً. ذلك أن ابني أخيه طلال، بندراً وبدراً، قضيا عليه بعد سنتين تقريباً من تولِّيه إياها. وفي عام ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م انتقم محمد ابن عبد اللّه لأخيه متعب، وقتل أبناء أخيه طلال، وتولَّى الإمارة.

ولقد كانت علاقة آل رشيد بحكام آل سعود علاقة وطيدة حسنة منذ نشأة إمارتهم إلى تولِّي محمد بن عبد اللَّه مقاليد أمورها. ومن الصدف أن مجيئه إلى الإمارة تزامن مع استشراء الخلاف بين أبناء الإمام فيصل بن تركي على الحكم. وكانت عوامل ضعف هؤلاء، نتيجة خلافاتهم، عوامل قوة لذلك الداهية الطموح، وتجدُّد مشكلاتهم فرصاً سانحة له كي يمدَّ نفوذه على حسابهم. ومن ذلك أن أبناء سعود بن فيصل قاموا بالقبض على عمِّهم عبد اللَّه في الرياض،

---

(١) عن عبد الله بن رشيد وإمارة جبل شمّر في عهده يمكن الرجوع إلى كتاب **نشأة إمارة آل رشيد**، لكاتب هذه السطور، ط٢، الرياض، ١٤١١هـ.

سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م، فإذا بالأمير محمد بن رشيد، خال ابن الإمام عبد اللّه المقبوض عليه، يسارع بقواته إلى هذه المدينة؛ سواء كانت تلك المسارعة بمبادرة منه أو بطلب من الإمام نفسه. وكان أن دخل العاصمة السعودية، وأطلق سراح الإمام، وذهب أبناء سعود ابن فيصل إلى الخرج. لكن بدلاً من أن يبقى ذلك الإمام حاكماً في الرياض كان عليه أن يرحل بأسرته إلى حائل، وكان على أخيه عبدالرحمن، أيضاً، أن يرحل إلى هناك. وأصبحت الرياض عملياً في يد الأمير محمد بن رشيد. وبعد ذلك قضى سالم بن سبهان، الذي كان يدير أمورها نيابة عنه، على أبناء سعود بن فيصل خدعة في الخرج أواخر سنة ١٣٠٥هـ. ثم أذن ذلك الأمير للإمام عبد اللّه وأخيه عبدالرحمن وأسرتهما بالعودة إلى الرياض سنة ١٣٠٧هـ. لكن الإمام عبد اللّه توفي بعد وصوله إلى هذه المدينة بيومين، فأصبح أخوه عبد الرحمن حاكماً لها. وقد وضع الإمام عبد الرحمن يده في أيدي أمراء القصيم، الذين كانوا على خلاف شديد حينذاك مع الأمير محمد بن رشيد. لكن هذا الأمير أنزل بأولئك الأمراء وأتباعهم هزيمة شديدة في معركة المُلَيْداء سنة ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م. وكانت تلك المعركة النذير الأخير للإمام عبد الرحمن، الذي خاض، بعد عام من وقوعها، معركة ضد ابن رشيد في حُرَيْملاء. لكن دائرة هذه المعركة دارت عليه، وكانت بمثابة نهاية الدولة السعودية الثانية[1].

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن الحوادث بعد وفاة الإمام فيصل بن تركي وعلاقة آل رشيد- خاصة محمد بن عبد اللّه- بأبنائه، يمكن الرجوع إلى العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ٢٨٧-٣١٢.

ـداية الدولة السعودية الثالثة في نجد:

أصبح أمير جبل شمَّر، محمد بن رشيد، أميراً لمنطقة نجد كلها.
ـير أن مما يلفت النظر أن الغزوات المتبادلة بين قبائلها الرحَّل ظلت
ـستمرة. بل إن غزواته هو لبعضها تكرَّرت. ولقد كانت علاقات
ـراء أسرته من قبله بالدولة العثمانية حسنة. فازدادت في عهده
ـسُّناً. ولم يكن ذلك غير متوقَّع. فقد كانت له صلات خاصة
ـلايتها في العراق قبل تولِّيه الإمارة؛ إذ كان أميراً لقوافل الحج
ـقادمة منها، عبر جبل شمَّر، والعائدة إليها. وعند تولِّيه تلك الإمارة
ـانت منطقة الأحساء والقطيف قد خضعت لتلك الدولة. وبهذا
ـصبح محاطاً من الشمال والغرب والشرق بمناطق تابعة مباشرة لها.
معلوم ما لسكان نجد عموماً من مصالح مهمَّة وضرورية في تلك
ـناطق. واجتمعت عوامل وأسباب متعدِّدة لتجعل منه تابعاً
ـعثمانيين، حريصاً على إظهار المودَّة لهم. وظلَّ يحكم نجداً حتى
ـفاته في ٣ رجب سنة ١٣١٥هـ/ ٢٧/ ١١/ ١٨٩٧م. وخلفه في
ـلحكم ابن أخيه، عبد العزيز بن متعب، الذي لم يكن يتحلَّى بما كان
ـحلَّى به عمه محمد من دهاء وبُعْد نظر سياسي. وكان لاتِّصاف
ـلأمير الجديد بالشدة أثر كبير في نفور كثير من النجديين عنه وتطلُّعهم
ـى التخلُّص من حكمه.

وكان الإمام عبد الرحمن بن فيصل، بعد خروجه من الرياض، قد
ـث نساء أسرته وأطفالها إلى البحرين حيث رحَّب بهم حاكمها

الشيخ عيسى بن خليفة. أما هو فقد حاول أن يتخذ من الكويت مقراً مؤقتاً له؛ وذلك لبعدها نسبياً عن قاعدة الأمير محمد بن رشيد، وكونها قد أصبحت ملجأ لبعض النجديين؛ خاصة من أهل القصيم، الذين فرُّوا خوفاً من ذلك الأمير. لكن حاكم الكويت لم يقبل مجيئه في بداية الأمر؛ ربما بإيعاز من الدولة العثمانية. على أن تلك الدولة أدركت، فيما يبدو، أن وجوده في تلك المدينة أضمن لمراقبة تحرُّكاته، فأذنت له في المجيء إليها، وقرَّرت له راتباً شهرياً، ورحَّب به حاكمها. واجتمع شمل أسرته هناك عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م[١]. ومضت سنوات تغيَّرت خلالها القيادة في كل من الكويت وحائل، وتوتَّرت العلاقات بين الشيخ مبارك بن صباح والأمير عبد العزيز بن رشيد إلى أن حدثت بين الأول وحلفائه والثاني وأتباعه معركة الصَّريف عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، التي هُزِم فيها مبارك ومن معه هزيمة ساحقة.

يرجِّح أحد المؤرخين الثقات أن الملك عبد العزيز ولد سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م[٢]. وكان الخلاف بين أبيه وعمِّه عبد اللَّه قد انتهى تلك السنة[٣]. وهذا يعني أن السعادة بمولده تزامنت مع السعادة

---

(١) خير الدين الزركلي، **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، ط ٣، بيروت، ١٩٨٥م، ج١، ص ص ٦٣، ٦٥، ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٥٨. وقد استعمل في هذا العمل اللقب الذي أصبح لقب موحِّد البلاد.

(٣) ابن عيسى، **عقد الدرر**، ص ٨٤، هـ١.

بانتهاء ذلك الخلاف. ونشأ نشأة كثير من أفراد أسرته؛ متأدباً بالآداب العربية الإسلامية المتوارثة فيها. وقد وهبه اللّه من الذكاء والفطنة ما ساعده على النجاح فيما كان عليه أن يتعلّمه ويتقنه. وتهيّأ له من الظروف المحيطة بنشأته ما صقل مواهبه. وكانت أول مشاركة له في الحياة السياسية خروجه مع عمِّه محمد والشيخين عبد اللّه بن عبداللطيف وحمد بن فارس لمقابلة الأمير محمد بن رشيد عندما حاصر الرياض[1]. وكان ذلك الحصار في مستهل عام ١٣٠٨هـ[2]. أما أول قيادة عسكرية يتولاَّها فمن المرجح أنها تلك التي قاد فيها فرقة من الجيش الزاحف من الكويت، عام ١٣١٨هـ؛ وذلك عندما انطلق بهذه الفرقة من الشَّوكي إلى الرياض، ودخلها، وحاصر حامية ابن رشيد فيها. ولقد أنهى الحصار بعدما وافته أخبار هزيمة ذلك الجيش في معركة الصَّريف، وعاد إلى الكويت[3].

وفي عام ١٣١٩هـ خرج الملك عبد العزيز من الكويت ومعه عدد من أقاربه ومؤيِّديه الذين تذكر بعض المصادر أنهم أربعون[4]؛ وذلك بعد أن تهيَّأ له من الركاب والأسلحة والمؤن ما كان للشيخ مبارك بن

---

(١) سعود بن هذلول، **تاريخ ملوك آل سعود**، الرياض، ١٣٨٠هـ، ص ٥١.

(٢) الزركلي، ج١، ص٥٥.

(٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى عبد الله العثيمين، **معارك الملك عبد العزيز المشهورة لتوحيد البلاد**، ط٢، الرياض، ١٤١٦هـ، ص ٣٤-٣٥.

(٤) وهناك مصادر تقول: إنهم كانوا ستين تقريباً. ولعلَّ الذين خرجوا من الكويت كانوا أربعين، ثم انضم إليهم آخرون فيما بعد بحيث أصبحوا حوالى الستين عند اقترابهم من الرياض.

صباح اليد الطولى في تهيئته. وقام بعدة غزوات أدَّت إلى انضمام فئات من القبائل إليه. لكنها تركته لما رأت أن السلطات العثمانية في الأحساء أصبحت ضده. فمضى إلى يَبْرين الواقعة بين قطر والربع الخالي، وأقام هناك مدَّة يتدبَّر أمره. ثم انطلق هو ومن معه صوب الرياض في الحادي والعشرين من رمضان من ذلك العام. وفي ليلة الخامس من شوال (١٥/ ١/ ١٩٠٢م) كانوا في ضواحي هذه المدينة. وما تمَّ في تلك الليلة وصباح ذلك اليوم؛ تخطيطاً وتنفيذاً، من دخول الرياض والقضاء على عجلان، أميرها من قبَل ابن رشيد، ذكرته كثير من الكتب بالتفصيل والإعجاب بحيث لا يَحتاج إلى إعادة أو إيجاز. وكان الخطوة الأولى في مسيرة ذلك المؤسس التوحيدية[١].

بعد أن اطمأن الملك عبد العزيز إلى قوة ما قام به من تحصينات في الرياض سارع إلى التحرُّك خارجها لمواصلة مسيرته. فبدأ بالأقاليم الواقعة جنوب هذه المدينة، ونجح في توحيدها. واستدرج ابن رشيد إليها، وهزمه في معركة الدِّلَم في ربيع الأول من عام ١٣٢٠هـ/ يوليو ١٩٠٢م[٢]. ثم بدأ بتوحيد الأقاليم النجدية الواقعة شمال الرياض. ولم يمرَّ عام على تلك المعركة إلا وقد دخل تحت طاعته أقاليم المحْمل والشَّعيب والوَشْم وسُدَير[٣]، وأصبح على حدود إقليم القصيم

(١) انظر - مثلاً - الزركلي، ج١، ص ص ٧٩-١٠٠.

(٢) العثيمين، **معارك الملك عبد العزيز..**، ص ص ٥٩-٧٤.

(٣) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٦٧-٧٠. على أن المجمعة بالذات لم تدخل تحت حكم الملك عبد العزيز إلا بعد مقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد بحوالى سنتين.

الذي دارت على أرضه أعظم المعارك بينه وبين خصمه الأمير عبدالعزيز بن رشيد.

كان كبار آل مهنَّا، أمراء بريدة، وآل سُلَيْم، أمراء عنيزة، موجودين في الكويت عندما كانت الأسرة السعودية هناك. وقد شارك أولئك في الحملة التي انطلقت من هناك إلى نجد، عام ١٣١٨هـ، ودخلوا بلدتيهما دون عناء يذكر، بمؤازرة من غالبية سكانها. ولما علموا بهزيمة ابن صباح ومن معه في الصَّريف عادوا إلى الكويت[١]. وعندما قرَّر الملك عبد العزيز أن يكون القصيم الخطوة الآتية في حركته التوحيدية استدعى آل مهنّا وآل سُلَيْم، واتفق معهم على خطة لانتزاع ذلك الإقليم من حكم ابن رشيد. وكان هذا الأمير قد أدرك خطورة ما آلت إليه الأمور في أقاليم نجد الأخرى بالنسبة له، كما أدرك أن القصيم سيكون مسرح مجابهة عنيفة بينه وبين الملك عبدالعزيز. ولهذا عزَّز حامياته فيه، وأرسل سرايا لتدافع عنه، وذهب إلى حدود العراق يستنجد السلطات العثمانية لإمداده بالقوات والمؤن والأموال، ويستنهض المؤيِّدين له من شمَّر في ذلك القطر.

وتوجَّه الملك عبد العزيز وأتباعه صوب القصيم. وفي الخامس من المحرَّم سنة ١٣٢٢هـ/ ٢٢/ ٣/ ١٩٠٤م دخلت تحت حكمه عنيزة. ثم توجَّه إلى بريدة، ودخلها، وحاصر حامية ابن رشيد فيها قرابة ثلاثة

(١) إبراهيم بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد**. . ، دار اليمامة في الرياض، ١٣٨٦هـ، ص٢٠٠.

شهور إلى أن اصطلح قائدها معه على أن يخرج المحاصرون بأسلحتهم الشخصية آمنين، وتؤمن لهم ركائب تنقلهم إلى بلادهم. وبدخول المدينتين الكبيرتين من القصيم في حكمه أصبح الإقليم عملياً تابعاً له[١].

كان الأمير عبد العزيز بن رشيد قد نجح في الحصول على ما ذهب إلى حدود العراق من أجله. فتوجَّه إلى القصيم، لكنه لم يصل إليه إلا بعد أن وحَّده الملك عبد العزيز. وكانت أول مجابهة بينهما معركة البُكَيْرية، التي حدثت في ربيع الثاني عام ١٣٢٢هـ/ يوليو ١٩٠٤م[٢]. وقد تكبَّد فيها أتباع ابن رشيد؛ خاصة أفراد الجيش النظامي، خسائر فادحة، كما تكبَّد أتباع الملك عبد العزيز من غير أهل القصيم خسائر فادحة أيضاً. لكن أهل القصيم التابعين للملك حقَّقوا انتصاراً على خصمه[٣]. ثم تلت تلك المعركة مناوشات بين الطرفين خُتمت بمعركة الشِّنانة التي وقعت في الثامن عشر من رجب من ذلك العَام (٢٧/ ٩/ ١٩٠٤م)، والتي كان النصر فيها حليف الملك عبدالعزيز[٤]. وكان من نتائجها توطُّد حكمه في القصيم، واختلاف قادة القوات العثمانية هناك مع ابن رشيد، وانفصالهم عنه.

---

(١) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٧١-٨٠.

(٢) يذكر المؤرخ المحلِّي، إبراهيم القاضي في تاريخه المخطوط (ص١٥) أنها كانت في أواخر ذلك الشهر. ويذكر ذلك، أيضاً، مؤرخ محلِّي آخر هو عبد الله بن محمد البسام، **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، صورة خطية نقلها عن الأصل نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥هـ، ورقة ١٣٣ب. ويبدو أن ما ذكراه هو الصحيح.

(٣) العثيمين، **معارك الملك عبد العزيز**، ص ص ٨٩-٩٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ص ٩٥-٩٨.

وفي ليلة السابع عشر من صفر، عام ١٣٢٤هـ/ ١٠/ ٤/ ١٩٠٦م، شنَّ الملك عبد العزيز هجوماً على الأمير عبد العزيز بن رشيد في روضة مهنَّا. وقد نتج عن ذلك مقتل هذا الأمير، وانسحاب فلول أتباعه صوب جبل شمَّر[١].

كان الملك عبد العزيز يدرك خطورة المجابهة مع الدولة العثمانية، ويسعى إلى تفادي الصدام معها ما أمكنه ذلك. ولهذا حرص، منذ دخوله الرياض، على أن يوضِّح لقادتها بأن عمله ليس موجَّهاً ضدها، وإنما ضد خصمه ابن رشيد[٢]. لكن هذا الخصم نجح في إقناع أولئك القادة بمحاربته. ورغم ذلك فإن الملك استمر في كتاباته إليهم يعبِّر عن تقديره لهم، ويعتذر لهم بأنه دخل الحرب التي كان جنودهم طرفاً فيها، دفاعاً عن النفس[٣]. ولقد أدرك العثمانيون- بعد أن رأوا ما حدث على أرض الواقع في القصيم - فائدة التفاوض معه. وبدأت المفاوضات بينه وبينهم عام ١٣٢٣هـ، وانتهت في العام الذي تلاه. وكان مما نتج عنها اعترافه بالسيادة العثمانية على القصيم[٤]. لكن سرعان ما احتدم الخلاف بينه وبين قائد القوات

(١) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ١٠٠-١٠٥.

(٢) يعقوب جولدبيرج (Jacob Goldberg) وترجمة عنوان دراسته، «فيلبي مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية في أوائل القرن العشرين: دراسة نقدية». وقد نشرت في مجلة **دراسات شرق أوسطية** (Middle Eastern Studies)، مجلد ٢١، رقم ٢، ١٩٨٥م، ص ٢٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣١.

(٤) المرجع نفسه، الصفحة ذاتها؛ القاضي، ص٢٠.

العثمانية في ذلك الإقليم مما أدَّى إلى انسحاب تلك القوات من هناك قبل نهاية عام ١٣٢٤هـ[١].

ولم يحالف الحظ الملك عبد العزيز، عام ١٣٢٤هـ، في تخلُّصه من أقوى خصم له في نجد، وهو الأمير عبد العزيز بن رشيد، وانسحاب القوات العثمانية من القصيم فحسب، وإنما تجاوز هذا وذاك إلى حدوث خلاف دامٍ بين آل رشيد أنفسهم. فقد قام أبناء حمود العُبَيْد، سلطان وسعود وفيصل، باغتيال متعب بن عبد العزيز، الذي خلف أباه في الإمارة، وأخويه مشعل ومحمد. وتولَّى سلطان مقاليد الأمور في جبل شمَّر[٢]. وما لبث أن تحالف مع أمير بريدة، محمد أبا الخيل، وزعيم مطير، فيصل الدويش، ضد الملك عبد العزيز. لكن الملك أنزل بالمتحالفين هزيمة في الطُّرفية سنة ١٣٢٥هـ[٣]. ثم ثار سعود على أخيه سلطان وقتله في السنة التالية[٤]. لكن سعوداً لم يلبث في الإمارة أكثر من شهرين. ذلك أن آل سبهان قدموا إلى حائل بابن أختهم، سعود بن عبد العزيز بن متعب، من المدينة المنوَّرة في شعبان سنة ١٣٢٦هـ، وقضوا على سعود الحمود. وأصبح سعود بن عبد العزيز، برعاية أخواله، أميراً لجبل شمَّر[٥]. وقد خاضت القيادة

---

(١) الزركلي، ج١، ص ١٧٤.

(٢) القاضي، ص ٢٥.

(٣) الزركلي، ج١، ص ص ١٩٠-١٩١.

(٤) القاضي، ص ٣٣.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

الجديدة معركة ضد الملك عبد العزيز في الأشعلي عام ١٣٢٧هـ. لكنها خسرت تلك المعركة[١]. ثم بقيت الجبهة بينهما هائدة نسبياً إلى عام ١٣٣٣هـ.

وكانت سنة ١٣٢٨هـ حافلة بأحداث مهمَّة بالنسبة للملك عبدالعزيز. فقد ذهب لنجدة أمير الكويت ضد زعيم المنتفق، سعدون المنصور، لكن سعدوناً انتصر على خصومه في معركة هديَّة[٢]. وثار على الملك عدد من أحفاد عمِّه سعود؛ متَّخذين من جنوبي نجد قاعدة لهم. وبينما كان يرتِّب أموره للقضاء على ثورتهم ومن تحالف معهم فوجئ بقوات شريف مكة، الحسين بن علي، تتوغَّل في نجد وتأسر أخاه سعداً، الذي كان حينذاك بين فئة من قبيلة عُتَيبة. فأرجأ التعامل مع أحفاد عمِّه ومن معهم حتى يحلَّ مشكلته مع الشريف. وتوصَّل مع هذا - في آخر الأمر - إلى اعترافه بتبعيته للدولة العثمانية، وتعهُّده بدفع مبلغ من المال إليها سنوياً، وإطلاق سراح سعد[٣]. ثم توجَّه إلى جنوبي نجد، وتمكَّن من تشتيت صفوف الثائرين ضده[٤].

---

(١) أمين الريحاني، **تاريخ نجد وملحقاته**، ط٥، الرياض ١٩٨١م، ص ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) القاضي، ص ٣٥.

(٣) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ١٢٥-١٢٩.

(٤) القاضي، ص ص ٣٧-٣٨؛ الزركلي، ج١، ص ١٩٥-١٩٦.

توحيد الأحساء والقطيف:

لعلَّ من أبرز ما يراه المتأمل في تاريخ الدولتين السعوديتين الأولى والثانية أن أنظار قادتهما لم تتَّجه لتوحيد منطقة الأحساء والقطيف إلا بعد توحيدهم لنجد، وأن تلك المنطقة كانت المسرح الأول لامتداد عملياتهم التوحيدية خارج الأقاليم النجدية. وكان ذلك هو المتوقَّع. أما بالنسبة للأمر الأول فكان من المنطق أن يهتمَّ أولئك القادة بتوحيد منطلق حركاتهم؛ وهو أقاليم نجد، قبل الاهتمام بتوحيد غيرها. وأما بالنسبة للأمر الثاني فإن حكام الأحساء والقطيف كانوا أول من بدأ الهجمات من خارج نجد على الأراضي السعودية داخلها. وكان الرَّدُّ على هجماتهم، بعد المقدرة عليه، من طبيعة الأشياء. وكانت سواحل بلادهم المنفذ الملائم للنجديين لاستيراد ما هم في حاجة إليه مما لا تنتجه منطقتهم. وبالإضافة إلى هذا وذاك فإن إمكانات الأحساء والقطيف الاقتصادية الذاتية وموقعهما المتميِّز لهما أهمِّية كبيرة جذَّابة.

ولقد ورد في إحدى الدراسات أن الملك عبد العزيز أرسل مندوباً إلى السلطات البريطانية في المنطقة عام ١٩٠٣م - وهذا العام ينتهي قبل نهاية سنة ١٣٢١هـ؛ باحثاً عن مساعدتها، وملمِّحاً إلى تفكيره في استعادة منطقة الأحساء والقطيف من العثمانيين. وأشارت تلك الدراسة إلى أن ذلك الاتصال تم بعد توحيد الملك عبد العزيز للقصيم[١]. وإذا سُلِّم بصحَّة بعثه مندوباً من قِبَله فإن من الواضح أن

(١) تركي بن محمد بن سعود، «علاقة بريطانيا بالملك عبد العزيز آل سعود ١٩٠٢-١٩٢٥». **الدارة**، رجب ١٤٠٦هـ، ص ص٣٨-٣٩.

خطأ ما في التاريخ لتلك الحادثة قد وقع . فمن المعلوم أن توحيد إقليم القصيم لم يتم إلا سنة ١٩٠٤م؛ أي سنة ١٣٢٢هـ . وعلى هذا فإن بعثة المندوب إما أن تكون بعد سنة ١٩٠٣م أو قبل توحيد القصيم . على أنه من غير المرجَّح أن يفكِّر الملك عبد العزيز جدياً بتوحيد الأحساء والقطيف قبل توحيده لنجد، أو على الأقلِّ، توحيده لأكثر أقاليمها بما في ذلك إقليم القصيم . وبعد توحيده لهذا الإقليم، وتثبُّت حكمه فيه، لم يبق على استكماله لأقاليم نجد إلا جبل شمَّر، مركز إمارة آل رشيد، الذي لم يعد توحيده؛ خاصة بعد مقتل الأمير عبد العزيز بن متعب سنة ١٣٢٤هـ، إلا مسألة وقت فقط . وهذا ربَّما جعله يفكِّر حينذاك بتوحيد الأحساء والقطيف .

وكان من دوافع تفكير الملك عبد العزيز في توحيد منطقة الأحساء والقطيف أنَّها كانت جزءاً من الدولتين السعوديتين الأولى والثانية، وأن العثمانيين انتزعوها من الحكم السعودي حيلة، وأنهم وقفوا مع خصمه ابن رشيد، وأن دخولها تحت حكمه فيه تعزيز لقوته أمام سائر خصومه؛ إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من إمكاناتها الاقتصادية وكونها منفذاً لتجارة نجد . وظلَّ يتحين الفرصة لتنفيذ ما كان يفكِّر فيه . ومع بداية عام ١٣٣١هـ رأى أن تلك الفرصة قد حانت لعدة أسباب من أهمِّها : أن السلطات العثمانية في تلك المنطقة سمحت لخصومه من البادية، عامي ١٣٢٩ و ١٣٣٠هـ، بالالتجاء إلى مدنها، وأن شريف مكة قد ضايق التجار النجديين، ومنع الاتصال التجاري

بين نجد والحجاز، وأن الدولة العثمانية قد أصبحت مشغولة في ليبيا والبلقان، وأن سلطاتها في الأحساء والقطيف قد أرهقت السكان بالضرائب وعجزت عن حفظ الأمن خارج أسوار مدنهما مما جعلهم يتطلَّعون إلى من يخلِّصهم من الأوضاع السيِّئة التي كانوا فيها. وكان أن كثَّف اتصالاته بعدد من المتعاطفين معه منهم. ثم انطلق من الرياض بقوَّاته متَّجهاً صوب قاعدتها، الهفوف، وبتخطيط سليم وتنفيذ جريء دخل تلك المدينة ليلة الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٣١هـ/ ٤/ ٥/ ١٩١٣م؛ مفاجئاً الحامية العثمانية هناك. ولم يعد أمامها إلا الاستسلام للأمر الواقع؛ خاصَّة أنَّها كانت تدرك مشاعر السكان غير المؤيِّدة لها. ورحَّلها الملك باحترام إلى العقير، ثمَّ إلى البحرين. ولقد حاولت العودة إلى المنطقة، لكنَّها صُدَّت عند وصولها إلى العُقير[١].

لقد حدث ما سبق ذكره، ورياح الحرب العالمية الأولى توشك أن تهبَّ، واجتمع ذلك مع صعوبة اتِّخاذ العثمانيين أيَّة خطوة عسكرية ضدَّ الملك عبد العزيز، وخوفهم من وقوفه مع بريطانيا ضدَّهم؛ خاصَّة بعد أن اجتمع به وكيلها السياسي في البحرين أوائل عام

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ١٣٥-١٤١.
والعُقَير كان أشهر موانئ البلاد السعودية على ساحل الخليج. انظر عنه حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: المنطقة الشرقية**، دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٩هـ، جـ٣ ص ص ١١٧٤-١١٨٠.

١٣٣٢هـ، فقرَّروا أن يغيِّروا سياستهم تجاهه، وأرسلوا إليه وفداً برئاسة السيد طالب النقيب[١]، ونتج عن التفاوض بينهم وبينه اتِّفاق على أمور من أهمِّها اعترافه بالسِّيادة العثمانية مقابل مساعدته بالمال والسلاح[٢]. على أن تطوُّرات الحرب العالمية حالت دون تنفيذ ما اتُّفِق عليه.

(١) هو طالب بن رجب الرفاعي. ولد في البصرة. وأجاد التركية والفارسية والإنجليزية. عُيِّن حاكماً للأحساء، ثم عضواً في مجلس النواب العثماني. ولما احتل البريطانيون البصرة نفوه إلى الهند سنتين. ثم أصبح وزيراً للداخلية في العراق، ثم نفي إلى الهند مرة ثانية، فمرض، وسافر إلى أوربا للعلاج، فمات في ميونخ سنة ١٣٤٨هـ.

(٢) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى خالد السعدون، **العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩هـ-١٣٤١هـ**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ، ص ص ١٤٥-١٥٠؛ قاري ترولر (Gary Troeller)، وعنوان كتابه The Birth of Saudi Arabia، **مولد العربية السعودية**، لندن، ١٩٧٦م، ص ص ٥٦-٦٣ و٢٤٨-٢٤٩.

الملك عبد العزيز خلال الحرب العالمية:

بدأت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٢هـ، وانتهت سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٤-١٩١٩م). وقد مرَّ الملك عبد العزيز خلالها بقضايا وعلاقات مهمَّة.

أ- العلاقة مع إمارة آل رشيد:

كان سعود بن صالح السبهان قد وصل إلى مكانة مرموقة لدى الأمير سعود بن رشيد. فرمى بثقل الإمارة مع الدولة العثمانية التي أمدَّته بالمال والأسلحة ضدَّ الملك عبد العزيز، الذي فضَّل أن يتَّخذ سياسة حياديَّة نوعاً ما بينها وبين بريطانيا. وتوتَّرت العلاقات بين الملك والأمير سعود بن رشيد حتَّى تمخَّض التوتُّر عن معركة جُرَاب في ربيع الأول عام ١٣٣٣هـ/ يناير ١٩١٥م. وكان مما حدث فيها أن رجال قبيلة العجمان الذين كانوا مع الملك عبد العزيز أخذوا ما استطاعوا أخذه من إبله هو، ومضوا بها. وممَّا حدث فيها، أيضاً، مقتل النَّقيب البريطاني شكسبير، الذي كان قد أتى للتفاوض معه. ويبدو أن هزيمته أمام العجمان في كَنْزان، في العام نفسه، قد شجَّع الأمير سعود بن رشيد على محاولة التدخُّل في شؤون القصيم، لكن محاولته فشلت. وفي العام التالي قام الأمير تركي بن عبد العزيز بغارات على مواضع قريبة من حائل. أما عام ١٣٣٥هـ فشهد فرار سعود السبهان من هذه المدينة إلى أطراف العراق بعد اكتشاف الأمير سعود مخطَّطه التآمري ضدَّه. وفي العام الذي تلاه قام الملك

عبدالعزيز نفسه بغارات على أطراف جبل شمَّر[1]. ومن الواضح أن موقف ابن رشيد قد بات ضعيفاً لأسباب في مقدَّمتها أن فئات من شمَّر- عماد قوَّته- قد اعتنقت حركة الإخوان المشهورة فأصبح ولاؤها للملك عبد العزيز، وأنَّ الدول العثمانية التي تدعمه قد انهزمت في الحرب؛ خاصة في المناطق القريبة من إمارته.

ب- قضية العجمان:

سبقت الإشارة إلى ما حدث من العجمان في معركة جُرَاب. وكان ذلك، بطبيعة الحال، مما أغضب الملك عبد العزيز. ومما زاد الطين بلَّة أنهم قصدوا الأحساء، وانضمَّ إليهم بعض أحفاد عمِّه سعود المناوئين له حينذاك. وكان هذا ممَّا دفعه إلى التوجُّه لمحاربتهم. وقصدهم في مكان يقال له كَنْزان. وكانوا على علم بتحرُّكه، فأوقدوا النيران لإيهامه بأنَّهم مقيمون حيث هم، وانسحبوا إلى مكامن تحيط بخيامهم. وراح المهاجمون يطلقون النار على الخيام ظناً منهم أن خصومهم فيها. فلمَّا أوشكت ذخيرتهم على النفاد انقضَّ عليهم العجمان وهزموهم. وقد جُرِح الملك نفسه في المعركة، وقُتل أخوه سعد. وكانت تلك المعركة في شعبان سنة ١٣٣٣هـ/ يونيو١٩١٥م[2]. وانسحب المنهزمون إلى مدينة الهفوف، فتعقَّبهم خصومهم، وحاصروها ثلاثة شهور تقريباً. ثم أتت إلى الملك

---

(١) العثيمين، تاريخ المملكة، ج٢، ص ص ١٤٥-١٥٠.

(٢) العثيمين، **معارك الملك عبد العزيز**. . .، ص ص ١٦١-١٦٣.

تعزيزات من نجد بقيادة أخيه محمد، وقوة من الكويت بقيادة سالم الصباح. وبدأ موقف العجمان يضعف تدريجياً حتى انسحبوا من مواقعهم متّجهين شمالاً. وخرج الملك في أثرهم، وهاجمهم. وكان على أخيه محمد وسالم الصباح أن يقوما بتعقبهم، لكن سالماً توقَّف عن مهاجمتهم[1]. وممَّا زاد الأمر سوءاً، بالنسبة للملك عبد العزيز، قبول الشيخ مبارك لجوءهم إلى بلاده. على أن الأجل وافى الشيخ في شهر المحرَّم من سنة ١٣٣٤هـ. فخلفه ابنه جابر، الذي أراد تحسين علاقته بالملك، وطلب من العجمان النُّزوح عن أراضيه. فنزل أكثرهم في سفوان[2]، وتعهَّدوا - بضمانة بريطانية كويتية مشتركة - ألاَّ يقوموا بأعمال عدائية ضدَّ الملك عبد العزيز. وقد توفي الشيخ جابر بعد عام وشهرين تقريباً من تولِّيه الحكم وخلفه أخوه سالم في القيادة. فبدأ يتلاشى ما تعهَّد به العجمان، وراحوا يغيرون على أتباع الملك عبر الأراضي الكويتية. لكنَّ تصميمه جعل بريطانيا تضغط على الشيخ سالم بعدم التعاون معهم. فاضطروا إلى تغيير موقفهم، وتعهَّدوا بالانقياد له مقابل عفوه عنهم. وعادوا إلى مواطنهم السابقة في منطقة الأحساء، والتحق بعضهم بحركة الإخوان. وذلك عام ١٣٣٧هـ[3].

---

(١) حسين خزعل، **تاريخ الكويت السياسي**، بيروت، ١٩٦٢م، ج١، ٢١٨.

(٢) هذا هو النطق العربي الصحيح لها. لكن السين قُلبت صاداً في الأزمنة الأخيرة.

(٣) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى السعدون، **العلاقات بين نجد والكويت**، ص ص ١٧٠-١٧٨، و١٨٥-١٨٨و ١٩٧-٢٠٧.

ج- الملك عبد العزيز والكويت:

سبقت الإشارة إلى ملابسات السماح للإمام عبد الرحمن بن فيصل وأسرته بالإقامة في الكويت. وقد وحَّدت مصالح آل سعود والشيخ مبارك بن صباح موقفيهما أمام خصمهما، الأمير عبد العزيز ابن رشيد، عام ١٣١٨هـ. فكان أن ساعد ذلك الشيخ الملك عبدالعزيز عند خروجه من الكويت؛ وهو الخروج الذي أدَّى إلى دخوله المنتصر إلى الرياض عام ١٣١٩هـ. لكن نجاحه أمام ابن رشيد والقوات العثمانية، سنة ١٣٢٢هـ، بدأ يثير قلق الحاكم الكويتي. وكان من مظاهر ذلك أنه منع الملك من شراء أسلحة وذخائر من بلاده في تلك السنة، ثم اتَّفق مع ابن رشيد، في السنة التالية، على إنهاء حالة العداء بينهما. ولما وحَّد الملك عبد العزيز منطقة الأحساء والقطيف، عام ١٣٣١هـ، ازداد قلقه، وحاول إفشال المفاوضات بينه وبين العثمانيين في العام التالي. وبعد أن حدث ما حدث بينه وبين العجمان، سنة ١٣٣٣هـ، قبل لجوءهم إلى بلاده؛ مخالفاً بذلك ما اتّفق عليه معه. ولما توفِّي خلال شهر المحرَّم من السنة التالية، حرص خليفته، ابنه جابر على تحسين علاقاته بالملك، وطلب من العجمان مغادرة أراضيه، كما سبق أن ذكر. لكنَّ أخاه سالماً، الذي خلفه في الحكم سنة ١٣٣٥هـ، سمح لهم بعبور تلك الأراضي في إغاراتهم على أتباع الملك. ثم حدثت مشكلة تهريب المؤن إلى الأتراك عبر الكويت، وفرض بريطانيا حصاراً على ذلك أضرَّ بالتجار النجديين.

وقد حُلَّت مسألة العجمان بمساع بريطانية، وانتهت مسألة الحصار بنهاية الحرب العالمية. ولكن العلاقات بين الملك عبد العزيز والشيخ سالم توتَّرت بشأن قضية الحدود بين بلديهما. ونتجت عن ذلك اشتباكات بين أتباعهما من أعظمها معركة الجهراء في ٢٧/ ١/ ١٣٣٩هـ/ ١٠/ ١٠/ ١٩٢٠م. ولم تُحَلَّ تلك القضية إلا في عهد الشيخ أحمد الجابر سنة ١٣٤١هـ[1].

د- الملك عبد العزيز والملك حسين:

مع بداية عام ١٣٣٤هـ اشتد الخلاف بين شريف مكة، الحسين بن علي، وحكومة الاتحاد والترقي، التي عمدت إلى تتريك ولاياتها العربية؛ ومنها الحجاز. وأصبح في خندق واحد مع القوميين العرب الذين قاوموا ذلك التتريك. والتقت مصالحه، أيضاً، بمصالح بريطانيا، التي كانت تحارب الأتراك حينذاك. ونتج عن تحالفه معها ما عُرف باسم الثورة العربية، التي أطلقها من مكة في شعبان سنة ١٣٣٤هـ/ يونيو ١٩١٦م. والحديث عن تلك الثورة خارجٌ عن نطاق هذه اللمحة التاريخية. لكن المهمَّ هو أن الملك عبد العزيز وقف مع الحسين موقفاً ظاهره التأييد الحذر. وتبادل معه الرسائل والهدايا، وسمح لأتباعه بالانخراط في سلك جنديته. لكن الحسين ما لبث أن أعلن نفسه ملكاً للبلاد العربية كلها. وكان هذا ممَّا زاد من مخاوف

---

(١) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٢٤٥-٢٥٩.

الملك عبد العزيز، فضمنت له بريطانيا عدم تدخل الحسين بشؤونه الخاصة، بشرط ألاَّ يقوم هو بأيِّ نشاط ضدَّه. ومرَّ عام ١٣٣٥هـ بهدوء نسبي في العلاقات بين الملكين، لكنَّ العلاقات بينهما توتَّرت في العام التالي لأسباب منها انضمام فئات من قبيلة عُتَيْبة الموجودة على حدودهما إلى حركة الإخوان. على أن الذي أوقد شرارة النِّزاع بينهما إظهار كثير من سكان الخُرْمة وتُرَبَة، التابعتين إدارياً حينذاك للحسين، حماستهم للمبادئ التي قام عليها الحكم السعودي؛ وهو أمر تعود جذوره إلى عهد الدولة السعودية الأولى. وفي طليعة أولئك المتحمِّسين أمير الخُرْمة ذاتها الشريف خالد بن لؤي، الذي أدَّت أسباب مختلفة إلى خروجه عن طاعة الحسين سنة ١٣٣٦هـ. وحاول هذا الأخير إخضاعه بالقوة بإرسال عدَّة حملات إليها، لكن خالداً وأتباعه ومن انضمَّ إليهم من الإخوان؛ خاصَّة من هجرة الغطغط، ألحقوا بهم هزائم كبيرة. وكانت خاتمة المعارك بينهما حول الواحتين معركة تُرَبَة المشهورة سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م، التي حدثت بعد انتهاء الحرب العالمية.

هـ- الملك عبد العزيز وبريطانيا:

كان الملك عبد العزيز يدرك مدى نفوذ بريطانيا في الساحل الشرقي للجزيرة العربية عندما بدأ أولى خطواته لتوحيد البلاد عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م. ولذلك اتَّصل بها طالباً إقامة علاقات معها، وحمايتها له ضد أي خطر يمكن أن يتعرَّض له من قبل العثمانيين

المؤيِّدين لخصمه الأمير عبد العزيز بن رشيد. وتكرَّرت اتصالاته بها، لكنها لم تستجب لطلبه[١]. ومع أنها حذَّرت العثمانيين من التدخُّل عسكرياً في نجد[٢]؛ إلا أنها حذَّرت، أيضاً، الشيخ مبارك بن صباح من التورُّط في مساعدة الملك عبد العزيز[٣]. ويبدو أنها كانت تخشى انتصار ابن رشيد انتصاراً قد يجعله مصدر خطر على الكويت أكثر من ذي قبل، وتخشى انتصار الملك عبد العزيز انتصاراً قد يغريه بمحاولة مدِّ نفوذه على الجهات التي كان يحكمها أسلافه في سواحل الخليج وعمان.

وكان أول لقاء بين الملك عبد العزيز ومسؤول بريطاني لقاءه بالنقيب شكسبير في الكويت سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م[٤]. ثم قابله مرة أخرى في العام التالي، حيث أوضح له رغبته في إخراج القوَّات العثمانية من منطقة الأحساء والقطيف، وسأله عن إمكانية حماية بريطانيا له فيما لو حاول العثمانيون مهاجمته بحراً. لكن النقيب

---

(١) ترولر، ص ص ٢١-٢٥؛ تركي بن سعود، ص ص ٣٩-٤٠.

(٢) ترولر، ص ٢٢.

(٣) السعدون، **العلاقات بين نجد والكويت**، ص ٨٤-٨٥.

(٤) ترولر، ص ٣٦؛ جورج رنتز، وترجمة عنوان بحثه: «فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية»، **ندوة تاريخ الجزيرة العربية**، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٣٩٩هـ، الكتاب الأول، ج٢، ص٢٧. وكان ذلك اللقاء في قصر الشيخ مبارك. وهذا يوضح خطأ فيلبي ومن اتَّبعه في أن أول لقاء بينهما كان سنة ١٩١١م. على أن لقاءه به في السنة الأخيرة كان أول لقاء مطوَّل معه.

شكسبير أخبره بأنَّ حكومته ليست في وضع يتيح لها مساعدته[1].
على أن توحيده لتلك المنطقة، عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، جعلها تتَّخذ تجاهه موقفاً أكثر جدِّية. ولقيت مساعيه المتواصلة للحصول على اعترافها به وإقامة علاقات رسمية معه حماسة من ممثِّليها في الخليج. ولـمَّا بدأت الحرب العالمية أدركت صواب آراء أولئك الممثِّلين، وخشيت - إن استمرَّت في تجاهله - أن يقف مع خصومها الأتراك. وهكذا أرسلت النقيب شكسبير، عام ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، للتفاوض معه. ونتج عن مفاوضاته، وما تلاها من مفاوضات أخرى، عقد معاهدة دارين، أو القطيف، عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م. ومن أهمِّ بنود تلك المعاهدة: اعتراف بريطانيا به حاكماً مستقلاً لنجد والأحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها، ومساعدتها له ضدَّ أية دولة تعتدي على أراضيه، وتعهُّده بأن يمتنع عن كل مخابرة أو اتِّفاق أو معاهدة مع أية دولة أجنبية، ويمتنع عن التدخُّل في أراضي إمارات الخليج التي هي تحت حمايتها[2].

ولقد اتَّخذ الملك عبد العزيز خلال الحرب العالمية موقفاً حيادياً نوعاً ما بين العثمانيين وبريطانيا كما سبق أن ذكر. ويبدو أنه اتَّخذ ذلك

---

(١) المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

(٢) العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٢٩٠-٢٩٤؛ خالد السعدون، «المفاوضات التي أدت لعقد معاهدة سنة ١٩١٥م بين الإمام عبد العزيز آل سعود وبريطانيا» **الدارة**، رمضان ١٤١٠هـ، ص ١٥٠-١٧٥.

الموقف لأسباب منها انشغاله بأموره الداخلية، ومنها عدم رغبته في الإقدام على أمر لا يرى فيه فائدة واضحة له، أو يرى أن تفاديه لا يضرُّه. ومع أن بريطانيا لم تكن، على الأرجح، راضية عن موقفه كثيراً فإنها أمدَّته بمساعدات مالية وعسكرية طلبها منها. وذلك خوفاً، فيما يبدو، من أن يقوم بأعمال تعرقل مساعي حلفائها في المنطقة؛ خاصة الملك حسين، مما ستكون له آثار سلبية على محاولة تحقيق أهدافها.

وكان يهمُّ بريطانيا من مساعدتها للملك عبد العزيز محاربة الأمير سعود بن رشيد، الذي كان إلى جانب الأتراك؛ خوفاً من قيامه بعمل يؤثِّر على مجريات الحرب في شمال غرب الجزيرة العربية. لكن بعد أن هُزِم الأتراك في تلك الجهات وما يليها شمالاً لم يعد ابن رشيد يمثِّل أَي خطر بالنسبة لها. ولذلك أوقفت معونتها عن الملك عبدالعزيز؛ بل أصبحت تأمل في أن تبقى إمارة آل رشيد لتكون ورقة في يدها ضد طموحاته التوحيدية.

فيلبي وكتاباته التاريخية

عن المملكة العربية السعودية

أ- حياته :

هاري سانت جون بريدجر فيلبي - ويدعى اختصاراً جاك - أو إن شئت فقل : الحاج عبد اللّه فيلبي هو ذلك البريطاني الذي كان يطمح، منذ ريعان شبابه، أن يكون عظيماً مشهوراً، فكان له ما طمح إليه. لقد كانت حياته أسطورة. كان ذا مواهب متعدِّدة وقدرات عجيبة؛ تفكيراً وتنفيذاً. عمل في الإدارة والسياسة، فنجح أحياناً وفشل أحياناً أخرى. وكان لمواهبه الذهنية أثر واضح في تحقيق ما حقَّقه من نجاح، ولاعتداده برأيه وتصلُّبه في مواقفه أثر في تعرُّضه لما تعرَّض له من فشل. وجاب الأصقاع الواسعة؛ قفاراً، ونجوداً، وجبالاً، وأودية، حتى عُدَّ في طليعة الرحَّالة الغربيين، الذين تجوَّلوا في جزيرة العرب؛ إنتاجاً علمياً، وصفاً للأمكنة، واهتماماً بالنقوش ونقلاً لها، ورسماً للخرائط. وربما كان ابنه كيم مُحقاً عندما كتب على شاهد قبره في بيروت : «هذا أعظم مكتشفي جزيرة العرب»[1]. وجال في ميدان التاريخ؛ قراءة للمصادر ومعايشة للأحداث. فدوَّن الكثير الكثير؛ كتباً ومقالات. بل إن قدراته العلمية لم تقتصر على ما

---

(١) اليزابث مونرو (Elizabeth Monroe)، وعنوان كتابها : **Philby of Arabia (فيلبي جزيرة العرب)**. وقد نشر في لندن، ١٩٧٣م، ص ٢٩٥. وهناك كتاب **Laurence of Arabia**، الذي أخرج فيلماً مشهوراً. وكتاب **Palgrave of Arabia** للسيدة Mea Allen، الذي صدر في لندن سنة ١٩٧٢م.

سبق ذكره، وإنما تجاوزته إلى معرفته عدداً من اللغات القديمة والحديثة وآدابها، والآثار وعلوم الطبيعة والاقتصاد والمال. ولقد بلغ إنتاجه في ميادين الرحلات والسياسة والتاريخ والآثار أكثر من ثلاثين كتاباً منشوراً وغير منشور، وبلغت مقالاته في تلك الميادين عشرات وعشرات[1]. ولهذا فإنه يندر أن تخلو كتابات علمية لغربي أو شرقي عن جزيرة بالذات؛ خاصة في تاريخها الحديث، من الإشارة إلى ما ألّفه عنها في مسألة من المسائل. على أن كتاباته؛ شأنها شأن غيرها من كتابات الآخرين، تشتمل على ما يحتاج إلى تدقيق وتمحيص.

وشخصية بمثل قدرات فيلبي ومواهبه وإنتاجه العلمي لم يكن غريباً أن يحظى بمن يكتب عنه من المهتمِّين بالدراسات المتَّصلة بجزيرة العرب ولعلَّ آخر الكتابات عنه تلك التي كتبها علاَّمة الجزيرة الشيخ الجليل حمد الجاسر، ونشرت في صحيفة **الحياة**[2]. وقد أثنى الشيخ

---

(١) للدكتور ديرك هوب وود (Derek Hopwood) مقال مطوّل ترجمة عنوانه: «الأوراق ذات الصلة بجزيرة العرب الموجودة في أرشيف مركز الشرق الأوسط بكلية سانت أنتنيو في أكسفورد». وقد نشر مقاله بالإنجليزية ضمن **مصادر تاريخ الجزيرة العربية**، الكتاب الأول، جامعة الرياض (الملك سعود)، ١٣٧٩هـ، ص ١٤٥-١٥٠. والحديث فيه مركَّز على ما هو خاص بفيلبي، الذي وصفه بأنه الرجل الذي يتعب في حفظ نسخ لكل أنواع ما هو مكتوب؛ مشيراً إلى ما هوموجود في المركز من صور لآلاف الرسائل المتبادلة بينه وبين الآخرين، وللمذكرات ومخطوطات الكتب والمقالات والتقارير وغيرها، وأوضح ما يخص منها كل موضوع من الموضوعات التي كتب عنها فيلبي.

(٢) نشرت في ثلاث حلقات بعنوان: «الحاج عبد الله فيلبي ومؤلفاته»؛ وذلك بتاريخ ٢٤، ٢٥، و٢٧ ديسمبر ١٩٩٦م.

حمد على فيلبي عند بدايته الحديث عن أعماله العلمية بقوله: «الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدِّها إليها من سواه». وقال - بعد حديثه عن بعض أعماله المتَّصلة برحلاته: «إن القارئ ينظر إلى الرجل من خلال ذلك نظرة إكبار وتقدير حين يحسُّ ويدرك ما تكبَّده من الصِّعاب في محاولة التغلغل لكي يقدِّم وصفاً صادقاً أو مطابقاً - ما أمكن - للحقيقة في شدَّة تقصِّيه وتعمُّقه في البحث؛ مستهيناً بكل ما يعترضه من مصاعب». وقد أورد عناوين ستة عشر عملاً من أعماله المنشورة؛ مشيراً إلى أن له مقالات كثيرة جغرافية وأثرية وتاريخية منشورة في عدد من المجلات التي تعنى بدراسات المنطقة. وعرض محتويات عدد من كتبه المترجمة إلى العربية؛ معلِّقاً على بعض المسائل الواردة فيها.

وممن كتب عن فيلبي دراسة نقدية، أيضاً، الدكتور يعقوب جولدبيرج، الذي سبقت الإشارة إليه[1]. وقد استهلَّ كلامه عنه بقوله: منذ جيلين واسم فيلبي مرتبط ارتباطاً لا ينفكُّ بجزيرة العرب عامة والمملكة العربية السعودية خاصة، وإن دائرة اهتماماته بالجزيرة كانت بحق مثيرة للإعجاب شاملة لحقول متعدِّدة. ثم أخذ يحلِّل كتاباته عن تاريخ المملكة؛ موضِّحاً العوامل المؤثِّرة في تلك

---

(١) انظر ص ٣٠، هـ٥. وقد نال هذا الباحث درجة الدكتوراه من جامعة هارفرد سنة ١٩٧٨م. وترجمة عنوان أطروحته: **السياسة الخارجية للدولة السعودية الثالثة: ١٩٠٢-١٩١٨م.**

الكتابات، ومنتقداً ما رآه يحتاج إلى انتقاد. وقد ناقش ما كتبه في ثلاثة موضوعات: سياسة الملك عبد العزيز تجاه بريطانيا بين عامي ١٣١٩-١٣٣٢هـ/ ١٩٠٢-١٩١٤م، وسياسته تجاه الدولة العثمانية بين هذين العامين، ودوره في جهود بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى. على أن موقف ذلك الباحث من فيلبي موقف يتَّسم، بصفة عامة، بإبراز الجوانب السلبية أكثر من اتِّسامه بإظهار النواحي الإيجابية.

وممن كتب عن فيلبي المؤرخ الأمريكي جورج رنتز، الذي كان الرائد في الكتابة الأكاديمية عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى[1]. وقد ركَّز حديثه عن فيلبي على كتاباته التاريخية؛ جاعلاً عنوان دراسته: «فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية»[2]. وابتدأ ذلك الحديث عنه بقوله: إنه أكثر الغربيين إنتاجاً في تاريخ هذه البلاد؛ مشيراً إلى أن من أهمِّ مؤهّلاته لكتابة تاريخها معرفته التامة بها. ذلك أنه عاش فيها، وتنقَّل بين ربوعها منذ وصوله إليها أول مرة عام ١٩١٧م إلى وفاته عام ١٩٦٠م باستثناء فترات قصيرة متقطِّعة من هذه المدة. على أن ممَّا لا يقلُّ أهمِّية عمَّا ذكره المؤرخ رنتز صفات فيلبي الذاتية، وصلته الخاصة بالملك عبد العزيز،

---

(١) ترجمة عنوان أطروحته للدكتوراه، التي نالها من جامعة كاليفورنيا في بيركلي عام ١٩٤٨م، **محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢) وبداية الإمبراطورية التوحيدية في جزيرة العرب.** وله مقالات جيدة عن الجزيرة في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) انظر ص ٤٣، هـ٤.

الذي وضع تحت تصرُّفه إمكانات عظيمة ساعدته في تجواله ويسَّرت له الوصول إلى المصادر المحلِّية؛ كتابة ورواية. ومع ثناء ذلك المؤرخ على فيلبي فإنه أشار إلى بعض أخطائه العلمية التاريخية، وأوضح - وهو مُحق- أن كتاباته تحتاج إلى نقد يبيِّن جوانب قوَّتها ونواحي ضعفها.

وقد خصَّص الدكتور روبن بدْول فصلاً من كتابه عن الرَّحالة الغربيين في جزيرة العرب عن فيلَبي(١). وقال عنه: إنه لا يوجد من أولئك الرحالة من يضاهيه في رحلاته في الجزيرة من حيث المسافة التي قطعها في تجواله بين ربوعها، والفترة الزمنية التي قضاها فيها. ومع أنه اشتهر بصعوبة تعامله مع زملائه فقد برهن على أنه لغوي ممتاز وإداري من الطراز الأول. ثم أوجز الحديث عن نشاطه في مختلف مراحل حياته، وعن رحلاته، ونقل صوراً فوتوغرافية من تلك التي صوَّرها في أعماله المختلفة.

وأما الكاتب المترجم المعروف، خيري حمَّاد، فقد ألَّف عن فيلبي كتاباً جيِّد المحتوى، جميل العرض، حسن الأسلوب، يشتمل على خمسين وثلاث مئة صفحة، ويتكوَّن من مقدَّمة قصيرة وخمسة عشر فصلاً(٢). وقد تتبَّع فيه مراحل حياته، وما قام به من أعمال في

---

(١) يقع هذا الفصل بين صفحتي ٩٦ و١١٥ من كتابه Travelers in Arabia، الذي نشر في لندن عام ١٩٧٦م. وقد ترجمه إلى اللغة العربية الزميل الدكتور عبد اللّه آدم نصيف، بعنوان: **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**، ونشره في الرياض سنة ١٤٠٩هـ.

(٢) عنوان الكتاب: **عبد الله فيلبي: قطعة من تاريخ العرب الحديث**، بيروت، ١٩٦١م.

مختلف وجوه نشاطه؛ محلِّلاً، ومعلِّقاً، وموضِّحا آراء من يتعاطفون معه ومن لا يتعاطفون. واختتم هذا الكتاب بأسئلة صحفية سئلها فيلبي قبيل وفاته في بيروت وأجاب عنها؛ مبيِّناً تمسُّكه بالإسلام ومواقفه من مسائل عدَّة تثار حول أعماله.

على أن أعظم دراسة علمية نشرت عن فيلبي؛ توثيقاً وتحليلاً وشمولية، هي ذلك الكتاب القيِّم الذي ألَّفته إليزابيث مونرو، المشار إليه سابقاً[1]. ويتكوَّن من اثنتين وثلاثين وثلاث مئة صفحة. ويشتمل على مقدَّمة وخمسة عشر فصلاً[2]؛ إضافة إلى قائمتين: الأولى منهما بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في الدراسة، والثانية بعناوين ما كتبه فيلبي وما كتب عنه، وفهارس وافية.

وكانت المؤلفة قد قابلت فيلبي أوَّل مرَّة، سنة ١٩٣٨م، وعرفته منذ تلك السنة معرفة جيِّدة. وكان ممَّا قامت به لتأليف كتابها عنه؛ إضافة إلى تقصِّيها لما كَتَبَ وما كُتبَ عنه، أن سافرت إلى كل قطر عمل فيه مثل الباكستان، والعراق، والأردن، ومصر، وفلسطين، ولبنان، وجزيرة العرب؛ مستقصية ما هو في أرشيفاتها من معلومات

---

(١) انظر ص ٤٦ هـ ١.

(٢) وقد كتب عن هذا الكتاب عرضاً جميلاً الدكتور ج. د. نورتون، المحاضر في جامعة درهام (Durham) البريطانية، ونشر بعنوان، «فيلبي: رجل الجزيرة العربية»، **مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية**، التي تصدر عن جامعة الكويت، العدد الثالث، جمادى الثانية، ١٣٩٥هـ، ص ص ١٥١-١٥٩.

عنه، ومطَّلعة على مسارح نشاطه فيها. ولجودة دراستها ستكون المرجع الأساسي لكاتب هذه السطور في الحديث الموجز الآتي عن تلك الشخصية البريطانية أصلاً وانتماء، المرتبطة بجزيرة العرب عملاً وإنتاجاً علمياً.

ينتمي فيلبي إلى أسرة إنجليزية محافظة في ديانتها المسيحية الأرثوذكسية. وكانت تعيش في إقليم (Essex) بجنوب بريطانيا، ويعمل عدد من أفرادها في ميدان التجارة. وقد ذهب أبوه، هاري مونتي[١]، إلى سيلان في السبعينات من القرن التاسع عشر الميلادي لمزاولة تجارة القهوة. وعرف في كولومبو فتاة اسمها كويني[٢]؛ وهي ابنة لقائد الحامية البريطانية في تلك المدينة، العقيد جون دنكن (John Duncan)، فتزوَّجها سنة ١٨٨٣م. وتنحدر والدة هذه الفتاة من أسرة برز فيها عدد من المشهورين؛ مثل جدِّها ريفرند كاردو (Reverend Cardew)، الذي نادى بوجوب تحرُّر أمريكا من الهيمنة البريطانية، وبيرنارد مونتجمري، قائد معركة العلمين المشهور في الحرب العالمية الثانية[٣].

---

(١) اسم ذلك الأب Harry Montagu، لكنه كان يعرف دائماً باسم Montie. مونرو، ص١٢.

(٢) اسمها Gueenie، لكن فيلبي يسميها May. المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

(٣) المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

ولد فيلبي عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م في سيلان في ملكية مجاورة لمسكن والديه تدعى سانت جون[١] . وكان الثاني عمراً بين إخوته الثلاثة[٢] . وكان أبوه غارقاً في شهواته مسرفاً في نفقاته حتى تراكمت عليه الديون، وبدأ يعيش عيشة التشرُّد والانقطاع عن أسرته . وصبرت الأم على الظروف المحيطة بها، وبذلت تضحيات في تربية أولادها حتى عام ١٨٩١م حين اضطرت إلى الانتقال بهم إلى لندن . وهناك عاشت معهم حياة تغلب عليها المشقَّة؛ خاصة في السنتين الأوليين . وقد ساعدها والدها مالياً لإدخال ابنها في مدرسة داخلية .

بدت علامات النبوغ لدى فيلبى منذ التحاقه بالمدرسة . ولذلك ألحق بمدرسة وستمنستر ذات المستوى الرفيع . وفي هذه المدرسة كشف عن مواهبه الذاتية؛ ألمعية أكاديمية، وقوة بدنية، واعتداداً بالرأي الشخصي . وكان الأول بين أقرانه والزعيم لهم . وفي عام ١٩٠٤م التحق بكلية ترينتي (Trinity) في جامعة كمبردج، حيث بدأت تتبلور لديه أفكاره ومعتقداته الخاصة؛ مثل ميوله الليبرالية والاشتراكية المخالفة لنظام حكومة بلده، وشكوكه في صحة الديانة المسيحية[٣] . وفي عام ١٩٠٧م تخرَّج من الكلية بدرجة امتياز في الموضوعات المدروسة ومنها اللغات الحيَّة الحديثة[٤] .

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٤ . ولعلَّ هذا هو السبب في وجود سانت جون ضمن اسمه .

(٢) وهم رالف، وهارولد، وبادي . وكانت الأم تسمي الأولين توم وتيم .

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥؛ حماد، ص٣٠ .

(٤) المرجع الأول نفسه، الصفحة ذاتها .

وبعد أن تخرَّج فيلبي من الجامعة سجَّل اسمه ضمن قائمة الراغبين في العمل في الخدمة المدنية لدى حكومة الهند البريطانية، فنجح في الامتحان التمهيدي للعمل لديها. ودرس سنة أخرى في جامعة كمبردج اللغتين الفارسية والهندوستانية. ثم سافر إلى الهند عام ١٩٠٨م حيث قضى هناك قرابة سبع سنوات درس في أوائلها؛ إضافة إلى قيامه بعمله الإداري، اللغتين البنجابية والأوردية، كما بدأ يتعلَّم القرآن الكريم(١). وكانت معرفته باللغتين اللتين درسهما مما حقَّق له زيادة في مرتَّبه كان في حاجة إليها لسببين: أولهما أنه كان عليه أن يرسل مبلغاً من المال إلى والدته ليساعدها على تكاليف المعيشة، وثانيهما أنه تزوَّج عام ١٩١٠م؛ وللزواج متطلَّباته وأعباؤه المالية الخاصة.

كانت الفتاة التي تزوَّجها فيلبي تسمَّى دورا؛ وهي ابنة أدريان جونستون، الذي كان مهندساً في سكة حديد راولبندي. وكان على رأس من حضروا حفل زواجهما الملازم - حينذاك - بيرنارد مونتجمري، الذي يمتُّ إليه بصلة قرابة كما سبق أن ذُكِر(٢).

وبعد سنتين من ذلك الزواج ولد ابنهما البكر كيم (Kim)، الذي أصبح - فيما بعد - من كبار الصحفيين في بريطانيا، وبطل قضية التجسس لصالح الاتحاد السوفيتي المشهورة(٣).

---

(١) حمَّاد، ص ٣١.

(٢) انظر ص ٥٢ هـ ٣.

(٣) ثم ولد لهما ثلاث بنات هن: بات، وديانا، وهيلين. مونرو، ص ١٥١.

ومضى فيلبي يعمل في الهند، ويترقَّى في الوظائف الإدارية؛ متنقِّلاً من مكان إلى آخر. ومن تلك الوظائف رئاسة قسم الصحافة في التحقيقات الجنائية في البنجاب[١]. وكان نشطاً في العمل وكفؤاً في الإدارة. ومما اتَّضح من سيرته هناك أنه وطَّد علاقاته مع معظم المواطنين الهنود أكثر ممَّا وطَّدها مع مواطنيه البريطانيين أنفسهم[٢].

وفي أثناء عمل فيلبي في الهند تعلَّم اللغة العربية[٣]، التي سيكون لمعرفته إياها أثر في سيرته العملية مستقبلاً. وما إن قامت الحرب العالمية الأولى، عام ١٩١٤م، حتى وافته الفرصة ليذهب إلى البلاد العربية. فقد كانت حكومته، التي دخلت الحرب ضد تركيا، في حاجة إلى من يجيد العربية لمساعدتها في تدبير أمور العراق. وكان ممن اختير للتوجُّه إلى هذا القطر. وفي نوفمبر من عام ١٩١٥م وصل إلى البصرة مع عدد من زملائه. وكانت أول مهمَّة أسندت إليه - تحت إشراف بيرسي كوكس - رئيس الإدارة المدنية للأراضي المحتلَّة - دراسة موارد البلاد، ووضع خطَّة منظَّمة لشؤون المحاسبة المالية[٤]. وقد نجح في أداء تلك المهمَّة، وأخذت ثقة كوكس به تزداد مع مرور الأيام، فرُقِّي إلى منصب مندوب الحكومة لشؤون الدخل[٥]؛ وهو

(١) حمَّاد، ص ٣٣.

(٢) مونرو، ص ٣٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٤) حمَّاد، ص ٣٦.

(٥) مونرو، ص ٥٤.

المنصب الذي أتاح له فرصة التجوُّل في مناطق مختلفة من الأراضي المحتلَّة في العراق. ثم أصبح، في شهر مايو من عام ١٩١٧م، مساعداً شخصياً لكوكس في بغداد[1].

وفي أثناء ذلك كانت بريطانيا قد اتَّفقت مع الشريف حسين بن علي ليثور ضدَّ الحكومة التركية؛ مقدِّمة له الوعود التي لم تفِ بها. وكان المسؤولون البريطانيون في الهند يرون أن التعاون بين الحسين وبريطانيا سيثير الهنود المسلمين[2]. ومع تطوُّر مجريات الحرب ازدادت الشكوك حدَّة بين الملك حسين والملك عبد العزيز آل سعود. ورأت بريطانيا أن ترسل بعثة إلى الملك عبد العزيز لتعالج - من بين قضايا أخرى - الخلاف بين الملكين. وانطلقت البعثة من العراق برئاسة السيد ستورز، لكنها لم تستمر في سيرها؛ إذ أصيب رئيسها من جرَّاء حرارة الشمس الشديدة، فعادت أدراجها. ثم آلت الأمور إلى أن انطلقت مرة أخرى برئاسة فيلبي؛ وذلك في التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩١٧م (١٣/ ١/ ١٣٣٦هـ)[3]. وما حدث للبعثة من بدايتها إلى نهايتها فصَّله رئيسها في تقريره الذي هو السبب في إخراج هذا الكتاب.

عاد فيلبي إلى العراق في نوفمبر من عام ١٩١٨م (صفر

(١) المرجع نفسه، ص٥٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٦٠.

١٣٣٧هـ). وكانت الحرب العالمية توشك على النهاية لصالح بريطانيا وحلفائها. لذلك لم تعد هذه الدولة حريصة على زوال إمارة آل رشيد؛ بل ربما أصبحت ترى في بقائها ما يحفظ التوازن السياسي في وسط الجزيرة العربية، ويزيل أي مخاوف من امتداد حكم الملك عبدالعزيز صوب الأراضي الخاضعة لنفوذها[١]. وكان المسؤول البريطاني الأول في العراق عند عودة فيلبي إليها المقدَّم آرنولد ولسون، الذي كان يعارض وفاء بريطانيا بوعودها للعراقيين بالاستقلال، ويرى ترسيخ الحكم البريطاني فيها[٢]. ووقف فيلبي معارضاً له بشدة. وأدَّى ذلك إلى سفر هذا الأخير إلى لندن[٣].

كان التوتُّر في العلاقات بين الملك حسين والملك عبد العزيز قد بلغ أشُدَّه، أوائل عام ١٣٣٧هـ/ أواخر عام ١٩١٨م، حول واحتي الخُرْمة وتُرَبَة. فسارع كيرزون، القائم بأعمال وزارة الخارجية في أثناء غياب بلفور في باريس، إلى عقد اجتماع للجنة المختصة بشؤون الشرق الأوسط؛ وذلك في شهر مارس من العالم التالي. ورأت اللجنة أنه يجب الوقوف مع الحسين. وعندما سأل كيرزون فيلبي عن رأيه أجاب بأن في إمكان الملك عبد العزيز أن يدخل مكة متى أراد. فقوبلت إجابته بالسخرية. وبعد ذلك الاجتماع بشهر ونصف الشهر وقعت معركة تُرَبَة المشهورة، التي انتصر فيها الإخوان انتصاراً عظيماً

(١) بدول، ص ١٠١.

(٢) حمَّاد، ص ٧٢.

(٣) مونرو، ص ٩٧؛ حمَّاد، ص ٧٣.

على الأمير عبد اللّه بن الحسين وقواته. ولما وصلت أخبار تلك المعركة إلى لندن سارع كيرزون، مرَّة أخرى، لعقد اجتماع للجنة السابقة، وأمر فيلبي أن يستعد ليوفده إلى جزيرة العرب أملاً في إقناع الملك عبدالعزيز بمنع أتباعه من الزحف إلى الحجاز. واستقلَّ فيلبي الطائرة إلى القاهرة في طريقه إلى الجزيرة. لكنه لم يواصل طريقه من هناك إلى نجد. ذلك أن الزحف المخوف لم يحدث على أية حال[1].
وعاد فيلبي إلى لندن، فبقي فيها حيث أتيحت له فرصة مرافقة الأمير فيصل بن عبد العزيز في زيارته لبريطانيا عام ١٣٣٨هـ/ ١٩١٩م.

وفي العام التالي أرسلت الحكومة البريطانية السير بيرسي كوكس إلى العراق لمعالجة الأوضاع التي ساءت فيها إلى درجة تهدِّد بثورة عامة. وكان فيلبي ممن اختارهم كوكس ليذهبوا معه إليها. وهناك أقيم مجلس وزراء من العراقيين، وعُيِّن فيلبي مستشاراً للسيد طالب النقيب، وزير الداخلية. لكن بريطانيا قرَّرت تعيين فيصل بن الحسين ملكاً للعراق. وهدَّد النقيب بأن ذلك سيؤدِّي إلى ثورة في البلاد، فقُبض عليه خدعة، ونُفي إلى سيلان. وعُيِّن فيلبي قائماً بأعمال وزير الداخلية[2]. لكنه كان يعارض تعيين فيصل ملكاً، وينادي بانتخابات حرَّة، وإقامة نظام جمهوري. ولذلك أبعد عن العراق بعد وصول فيصل إليها[3].

---

(١) مونرو، ص ٩٩-١٠٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠١.

وكانت إمارة شرق الأردن حينذاك في طريق التكوين بقيادة الشريف عبد اللّه بن الحسين. لكنها كانت تمرُّ ببعض المشكلات الأمنية والمالية. وقد بعث وزير المستعمرات، ونستون تشرشل، لورانس إليها لمعالجة الوضع؛ وذلك في المحرَّم من عام ١٣٤٠هـ/ سبتمبر ١٩٢١م[١]. ثم عُيِّن فيلبي في الشهر التالي كبيراً لممثِّلي بريطانيا هناك. وقد نجح، أول الأمر، في تكوين علاقة طيِّبة مع عبداللّه، وتمكَّن من الحصول له على مساعدات مالية إضافية[٢]، كما نجح، أيضاً، في علاقته مع هربرت صموئيل، المندوب السامي في فلسطين. لكن الخلافات بينه وبينهما ما لبثت أن ظهرت، وتوتَّرت علاقته بصموئيل بالذات كثيراً. ولهذا آثر أن يستقيل من العمل بدلاً من أن يُقَال. وغادر شرق الأردن في رمضان عام ١٣٤٢هـ/ أبريل ١٩٢٤م[٣].

بعد عودة فيلبي إلى لندن واجه ظروفاً قاسية لعدم حصوله على وظيفة مناسبة. وراح يكتب مقالات ويدلي بأحاديث تشتمل على نقد صريح لسياسة بريطانيا تجاه العرب. وهذا ممَّا زاد من شهرته[٤]. وكان ممَّا قام به، قرب نهاية عام ١٩٢٤م، أن وصل إلى جدَّة وحاول مع آخرين التوسُّط بين الملك علي بن الحسين، الذي خلف أباه على عرش الحجاز، والملك عبد العزيز الذي كان يحاصر بقواته تلك

(١) المرجع نفسه، ص ١١٥.

(٢) مونرو، ص ١١٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٣-١٣٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٨.

المدينة[١]. ولم تكن مبادرته، فيما يبدو، بموافقة بريطانيا ورضاها[٢]. ومن المعروف أن جميع الوساطات قد فشلت، وأن علياً اضطر في نهاية الأمر إلى مغادرة جدَّة منهياً بذلك حكم الأشراف في هذه المنطقة.

وبعد إكمال الملك عبد العزيز توحيد الحجاز عاد فيلبي إلى جزيرة العرب. وبدأ يعمل في ميدان التجارة حيث أنشأ شركة سمَّاها الشرقية، واتَّخذ من جدَّة مركزاً لها[٣]. وقد أصبحت تلك الشركة مصدراً مهمّاً من مصادر دخله طيلة حياته[٤]. ومع مرور الأيام ازدهرت أعماله التجارية؛ وذلك بحصول شركته على وكالة بيع سيارات فورد في المملكة[٥]، واشتراكه مع شركات أخرى في تأمين معدَّات حديثة للنهضة الحضارية التي تبنَّاها الملك عبد العزيز[٦]، وبما حصل عليه من عمولة نتيجة اشتراكه في الترتيبات التي أدَّت إلى حصول شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا[٧] على امتياز التنقيب

(١) وممن حاول التوسُّط بين الطرفين أمين الريحاني، والسيد طالب النقيب، المرجع نفسه، ص١٤٣.

(٢) بدْول، ص ١٠٥؛ مونرو، ص ص ١٤٩-١٥٠.

(٣) مونرو، ص ١٥٣؛ حمَّاد، ص٢٦٥.

(٤) بدْول، ص ١٠٥.

(٥) حمَّاد، ص ٢٦٦؛ محمد المانع، **توحيد المملكة العربية السعودية**، ترجمة عبد اللّه الصالح العثيمين، الدمام، ١٤٠٢هـ، ص٢٧١.

(٦) حمَّاد، ص ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٧) هي Standard Oil Company of California.

عن النفط في شرقي البلاد عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م. على أن العمل في التجارة لم يكن، كما يقول فيلبي، من الأمور المحبَّبة إلى نفسه[١].

ولقد سبقت الإشارة إلى شكوك فيلبي بصحة الديانة المسيحية، التي كانت أسرته تعتنقها، منذ أن كان طالباً في الكلية، وأنه أخذ يقرأ القرآن الكريم عندما كان موظفاً في الهند. على أن عام ١٩٣٠م كان العام الذي اعتنق فيه الإسلام. وإذا كانت علاقته بالملك عبد العزيز تزداد رسوخاً منذ أن استقرَّ في المملكة قبل ذلك التاريخ بخمسة أعوام فإن اعتناقه الدين الإسلامي قد عمَّق أواصر علاقته به أكثر فأكثر، وأتاح له دخول الأماكن المقدَّسة، التي لم يستطع الدخول إليها عدد من الرحالة الغربيين أو دخلوا إليها خداعاً. وكان فيلبي من أولئك الذين يستشيرهم الملك في بعض الأمور السياسية، لكنه لم يكن مستشاراً رسمياً يتقاضى على ذلك مرتَّباً.

على أن عمل فيلبي التجاري، ووضعه الجديد في المملكة العربية السعودية، لم يحولا دون استمرار اهتمامه بشؤون السياسة خارجها. ومن ذلك أنه تورَّط في قضية فلسطين؛ إذ اقترح مشروعاً لحلِّها من بين بنوده تقسيمها بين العرب واليهود، والسماح لخمسين ألف يهودي بالهجرة خلال خمس سنوات[٢]. ومن ذلك أنه راح يشنُّ حرباً كلامية ضدَّ سياسة الحكومة البريطانية عند بداية الحرب العالمية

---

(١) مونرو، ص ٢١١.

(٢) مونرو، ص ص ٢١٨-٢١٩.

الثانية، وقرَّر أن يذهب إلى الهند وأمريكا لإلقاء محاضرات تبيِّن وجهة نظره. لكنه ما إن وصل إلى كراتشي حتى اعتقل وأُخذ إلى بريطانيا، فبقي عدة شهور محتجزاً بتهمة القيام بنشاط عدائي لها زمن الحرب[1]. ومن ذلك، أيضاً، أنه حاول -بعد إطلاق سراحه- أن يحصل على مقعد في البرلمان، ففشل[2].

وكان لفشل فيلبي في انتخابات البرلمان أثره النفسي عليه. ويبدو أن هذا كان أحد العوامل التي جعلته يكبُّ على دراسة تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام[3]. ثمَّ رجع من بريطانيا إلى جدَّة في صيف سنة ١٩٤٥م، وعاد إلى مزاولة أعماله التي كان يزاولها قبل مغادرته لهذه المدينة. وقام بين سنتي ١٩٥٠و١٩٥٣م برحلاته الاستكشافية الكبرى عبر أصقاع الجزيرة العربية؛ راصداً معلومات مهمَّة للجيولوجيين والجغرافيين والمؤرِّخين وعلماء الآثار. وقد رافقه في إحداها عالم الدراسات السامية كانون ريكمانز وابن أخيه جاك والمؤرِّخ فيليب ليبنز[4].

وظلَّ فيلبي في المملكة العربية السعودية وثيق الصلة بمؤسّسها الملك عبد العزيز. ولما توفي هذا المؤسس فقدت كثيراً من إغرائها بالنسبة

(١) المرجع نفسه، ص ٢٢٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٣.

(٤) المرجع نفسه، ص ص ٢٥٨-٢٥٩.

له؛ خاصةً أن خليفته، ابنه الملك سعوداً، لم يحتمل انتقاداته وآراءه. فطُرد من البلاد في شعبان عام ١٣٧٤هـ/ أبريل ١٩٥٥م، حيث سافر براً إلى بيروت. على أنه قد سُمح له بالعودة إليها في العام التالي؛ وذلك بعد أن سُوِّيت المشكلات التي أثارها بمساع حميدة قام بها التاجر اللبناني السياسي المعروف حسين العويني[١]. وبعد عودته إلى المملكة دخل ابناه، خالد وفارس، مدرسة الأنجال، التي كان مديرها الشيخ عثمان الصالح. وفي عام ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م دعاه مدير الجامعة الأمريكية في بيروت الدكتور نبيه فارس، للمشاركة في برنامج الدراسات العربية أستاذاً زائراً[٢]. وما إن وصل إلى هناك حتى سمع بنبأ وفاة زوجته دورا في لندن، تلك المرأة التي وقفت معه في سرَّائه وضرَّائه، وأحبَّها واحترمها، وإن قُضي عليهما أن يعيش كلٌ منهما بعيداً عن الآخر معظم الحياة الزوجية. فسافر إلى هناك لتصفية أمور ممتلكاته المنقولة. ثم عاد إلى الرياض، حيث قضى معظم وقته عاكفاً على كتابة كتبه وتنقيحها. وفي عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ذهب إلى موسكو، وحضر المؤتمر الرابع والعشرين للمستشرقين. وفي طريق عودته من هناك مرَّ ببيروت لزيارة ابنه كيم، ففارق الحياة فيها في التاسع من ربيع الثاني ذلك العام/ ٣٠/ ٩/ ١٩٦٠م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين[٣].

---

(١) مونرو، ص ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ٢٩٠-٢٩٥.

ب- كتاباته عن المملكة:

لقد سبقت الإشارة إلى قول العلاَّمة الشيخ حمد الجاسر عن فيلبي بأنه أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدِّها سواه. . وإن كتبه أصبحت مصدر كل دارس غربي لتاريخ الجزيرة وجغرافيتها، كما سبقت الإشارة إلى قول الرائد أكاديمياً في الكتابة عن تاريخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب والدولة السعودية الأولى، المؤرِّخ جورج يبرِّره: بأن فيلبي أكثر كاتب غربي إنتاجاً في ميدان تاريخ المملكة العربية السعودية. ولما ذكره كلٌ من الشيخ حمد والمؤرِّخ رنتز ما يبرِّره. ذلك أن كتابات فيلبي عن تاريخ هذه البلاد غزيرة في إنتاجها، عميقة في جذورها، ممتدَّة في فروعها، متنوِّعة في طرق عرضها، مختلفة في أساليبها. أما غزارة إنتاجها فيكفي دليلاً عليها أن أكثر من خمسة عشر كتاباً من كتبه المنشورة وغير المنشورة؛ إضافة إلى عشرات المقالات، تتناول ذلك التاريخ. وأما عمق جذورها وامتداد فروعها فيشهد لها أنه كتب عن تاريخ الجزيرة القديم؛ اعتماداً على المصادر المكتوبة وعلى الشواهد الآثارية، كما كتب عن تاريخها الحديث والمعاصر؛ اعتماداً على المصادر المكتوبة المتنوِّعة، وعلى معايشته الذاتية. وأما تنوُّع طرق عرضها فدليله أن منها ما هو رصد تاريخي متسلسل الحوادث، ومنها ما هو تجسيد لإنجازات تحقَّقت، ومنها ما هو وصف لأوضاع معاصرة مختلفة الجوانب. وأما اختلاف أساليبها فيتَّضح من مقارنة كتاباته الأولى عن المملكة؛ مثل بعثته إلى نجد **وجزيرة العرب**، بكتاباته الأخيرة عنها؛ مثل **المملكة العربية**

السعودية[1]؛ إذ تظهر صعوبة الأسلوب في الكتابات الأولى، وسهولته نوعاً ما في الكتابات الأخيرة.

وتزخر كتب رحلات فيلبي ومقالاته بالحديث عن أمور متَّصلة بتاريخ جزيرة العرب القديم وآثارها - كما يوجد فيها، بطبيعة الحال، الكثير عن أوضاعها المختلفة زمن تجواله - لكن كتابه **خلفية الإسلام**[2] مركَّز الحديث عن تاريخ الجزيرة العربية قبل ظهور دين الإسلام الحنيف. وحديث كاتب هذه السطور، هنا، منصبٌّ على ما كتبه فيلبي عن تاريخ المملكة منذ قيام الدولة السعودية الأولى.

تُعَدُّ أول كتابة منشورة لفيلبي عن التاريخ الحديث لهذه البلاد كتابته تقريراً عن البعثة التي رأسها إلى نجد عامي ١٣٣٦-١٣٣٧هـ/ ١٩١٧-١٩١٨م. ذلك أنها نشرت في مطبعة الحكومة ببغداد في العام الأخير نفسه. وتشتمل تلك الكتابة على ذكر أمور سياسية عسكرية مهمَّة متزامنة الحدوث مع كتابتها. وفيها ما هو دقيق وما هو في حاجة إلى تنقيح وتوضيح. ولا داعي لتفصيل الحديث عنها ما دامت هي محور هذا الكتاب، وأن كاتب هذه السطور قد علَّق على ما رأى أنه في حاجة إلى تعليق في موضعه.

---

(١) اسم الأول بالإنجليزية **Arabia**، وقد نشر في لندن عام ١٩٣٠م. واسم الثاني **Saudi Arabia**، وقد نشر في لندن عام ١٩٥٥م.

(٢) اسمه بالإنجليزية **The Background of Islam** وقد نشر في الإسكندرية عام ١٩٤٧م.

وفي عام ١٩١٨م كتب فيلبي في النشرة العربية (Arab Bulletin) ، التي يصدرها المكتب العربي التابع للسلطات البريطانية في القاهرة، ملحوظات عن رحلته من نجد إلى الحجاز، ورحلته إلى الخرج في ذلك العام. وتشتمل هذه الملحوظات على أمور مفيدة للمؤرخ عن الأوضاع المعاصرة التي شاهدها في رحلتيه المذكورتين.

أما عام ١٩٢٢م فشهد نشر كتاب فيلبي **قلب جزيرة العرب**(١) . وقد ظهر في جزأين يشتمل كل منهما على وصف لمناطق متعدِّدة من وسط الجزيرة والأوضاع السائدة فيها. ثم تلا ذلك نشر كتابه : **جزيرة العرب في عهد الوهابيين**(٢)، الذي صدر في لندن عام ١٩٢٨م. وهو مشابه لما سبقه؛ منهجاً وأسلوباً.

وفي عام ١٩٤٣م صدرت طبعة محدودة في لندن لكتاب فيلبي **حاج في جزيرة العرب**(٣) . ثم صدرت له طبعة عامة في تلك المدينة بعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ. وكثير من الحديث فيه وصف مفصَّل لحجِّه هو سنة ١٩٣١م؛ وهي السنة التي تلت سنة اعتناقه للإسلام. وفي هذا الوصف ما يفيد المؤرِّخ لدراسة أوضاع الحج في تلك الفترة. على أنه لا يقتصر على ما يفهم من عنوانه، وإنما

(١) اسمه بالإنجليزية **The Heart of Arabia**.

(٢) اسمه بالإنجليزية **Arabia of the Wahhabis**.

(٣) بالإنجليزية **A Pilgram in Arabia**.

يشتمل، أيضاً، على فصل عن رحلة مؤلِّفه إلى بلاد فارس بعد عزله من عمله في بغداد سنة ١٩٢١م.

أمَّا في سنة ١٩٤٨م فصدر في لندن كتاب فيلبي **أيام عربية**(١). وهو عن سيرته الذاتية من بداية حياته إلى زمن كتابته، لكنه يحتوي على أمور عامة متَّصلة بتاريخ المملكة؛ داخلياً وخارجياً. ثم أكمل حديثه عن تلك السيرة، فيما بعد، بكتابه **أربعون سنة في القفر**(٢)، الذي صدر في لندن عام ١٩٥٧م. وهو لا يختلف عن أيام عربية؛ منهجاً وأسلوباً. على أن عنوان الكتاب الثاني غير دقيق. صحيح أنه قد مرَّ أربعون عاماً بين مجيء فيلبي إلى جزيرة العرب، وتاريخ صدور الكتاب، لكن تلك الأعوام لم تكن كلها في البلاد العربية؛ ناهيك عن أن تكون في قفارها. ولعلَّه راعى ما للعنوان الذي استعمله من جاذبية؛ خاصة لدى القارئ الغربي.

وفي عام ١٩٥٢م صدر في إثاكا بالولايات المتحدة الأمريكية كتاب فيلبي **النجود العربية**(٣). وهو يتحدَّث عن مناطق وبلدان في جهات نجد الجنوبية الشرقية وعسير وجازان ونجران، كما يتحدَّث عن المناطق الحدودية السعودية اليمنية؛ محدِّداً المسافات بين نقطها، وواضعاً خرائط لها. وقد تحدَّث عنه بنوع من التفصيل الشيخ حمد الجاسر؛ معلِّقاً على ما رآه في حاجة إلى تعليق(٤). والكتاب من الأهمية

---

(١) بالإنجليزية **Arabian Days**.

(٢) بالإنجليزية **Forty Years in the wilderness**.

(٣) بالإنجليزية **Arabian Highlands**.

(٤) صحيفة **الحياة**، ٢٧ ديسمبر ١٩٩٦م.

بمكان؛ خاصة فيما يتعلَّق بالحدود الجنوبية للبلاد.

وفي عام ١٩٥٢م، أيضاً، صدر في لندن كتاب فيلبي **الذكرى العربية**(١). وهو عن حياة الملك عبد العزيز خلال خمسين عاماً؛ شاملاً وصفاً لما كان يدور في البلاط الملكي من أحداث. على أن المؤلِّف نفسه يقول عنه بأنه لم يهدف إلى أن يكون سجلاً تاريخياً عن حياة الملك وعهده، وإنما قصد به أن يكون أشبه بمسرح لعرض إنجازاته(٢). ولا شك أن المؤرِّخ يستفيد من معرفة هذه الإنجازات بالطريقة العلمية التي يعرفها.

وبعد صدور كتاب فيلبي السابق بثلاثة أعوام صدر له في لندن كتاب **المملكة العربية السعودية**(٣). وهو في جزء كبير منه، إعادة صياغة وتنقيح وتصحيح لما اشتمل عليه كتابه السابق **جزيرة العرب** من تاريخ المملكة. ولكنه، بطبيعة الحال، لا يقتصر على ذلك، وإنما يواصل الكتابة فيه عن التاريخ إلى زمن صدوره. وقد اعتمد فيه، بدرجة كبيرة، على المصادر المخطوطة والمطبوعة، التي ألَّفها المؤرِّخون من أهل وسط الجزيرة العربية، ولم تكن متاحة له عند تأليفه كتابه الأول. ومن هنا فإنه ليس من المستغرب وجود آراء في بعض المسائل قد لا تتَّفق مع آرائه السابقة؛ وذلك نتيجة لحصوله على ما

---

(١) بالإنجليزية **Arabian Jubilee**.

(٢) انظر مقدَّمة الكتاب X١.

(٣) بالإنجليزية **Saudi Arabia**.

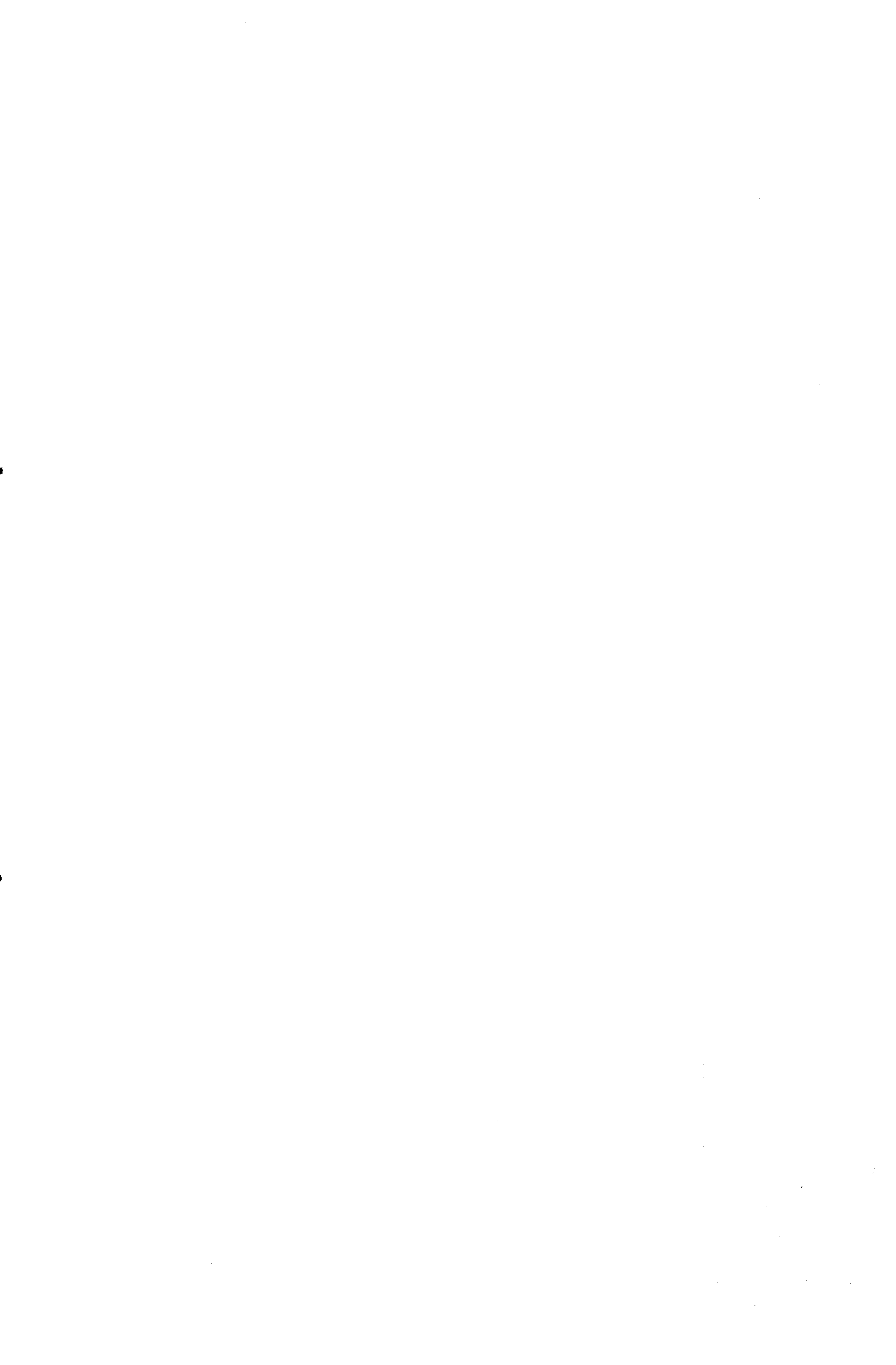
حصل عليه من معلومات. ومع أن هذا الكتاب أوفى كتابات مؤلّفة عن تاريخ المملكة، وأقربها إلى الدقة، فإنه يظلُّ في حاجة إلى تقويم ودقة ملاحظة من قبل المؤرِّخين المختصِّين؛ شأنه شأن غيره من الكتابات التاريخية الكثيرة[1].

وفي عام ١٩٦٤م؛ أي بعد وفاة فيلبي بأربع سنوات، صدر في واشنطن كتابه **صفقات الزيت العربي**[2]. وهو يشتمل على ذكر ما حدث بالنسبة لإبرام حق امتياز التنقيب عن النفط في منطقة الأحساء، الذي توصَّلت إليه المملكة مع السيد هولمز عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، ومنح حق امتياز التنقيب عنه لشركة ستاندرد أويل أف كاليفورنيا سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م. وهو مفيد جداً لمن يريد أن يؤرِّخ عن هذه الثروة العظيمة التي مَنَّ اللَّه بها على هذه البلاد، فأصبحت من أكبر النعم التي ساعدت على التوصل إلى ما توصَّلت إليه من تقدُّم حضاري ورُقِيّ عمراني في مختلف جوانب الحياة.

---

(١) تعرَّض لشيء من أخطائه جورج رنتز في دراسته المشار إليها سابقاً، كما لاحظ على ترجمته الشيخ حمد الجاسر ملاحظات متعدِّدة؛ موضِّحاً ضعف تلك الترجمة وكثرة أخطائها في أسماء الرجال والقبائل والأمكنة.

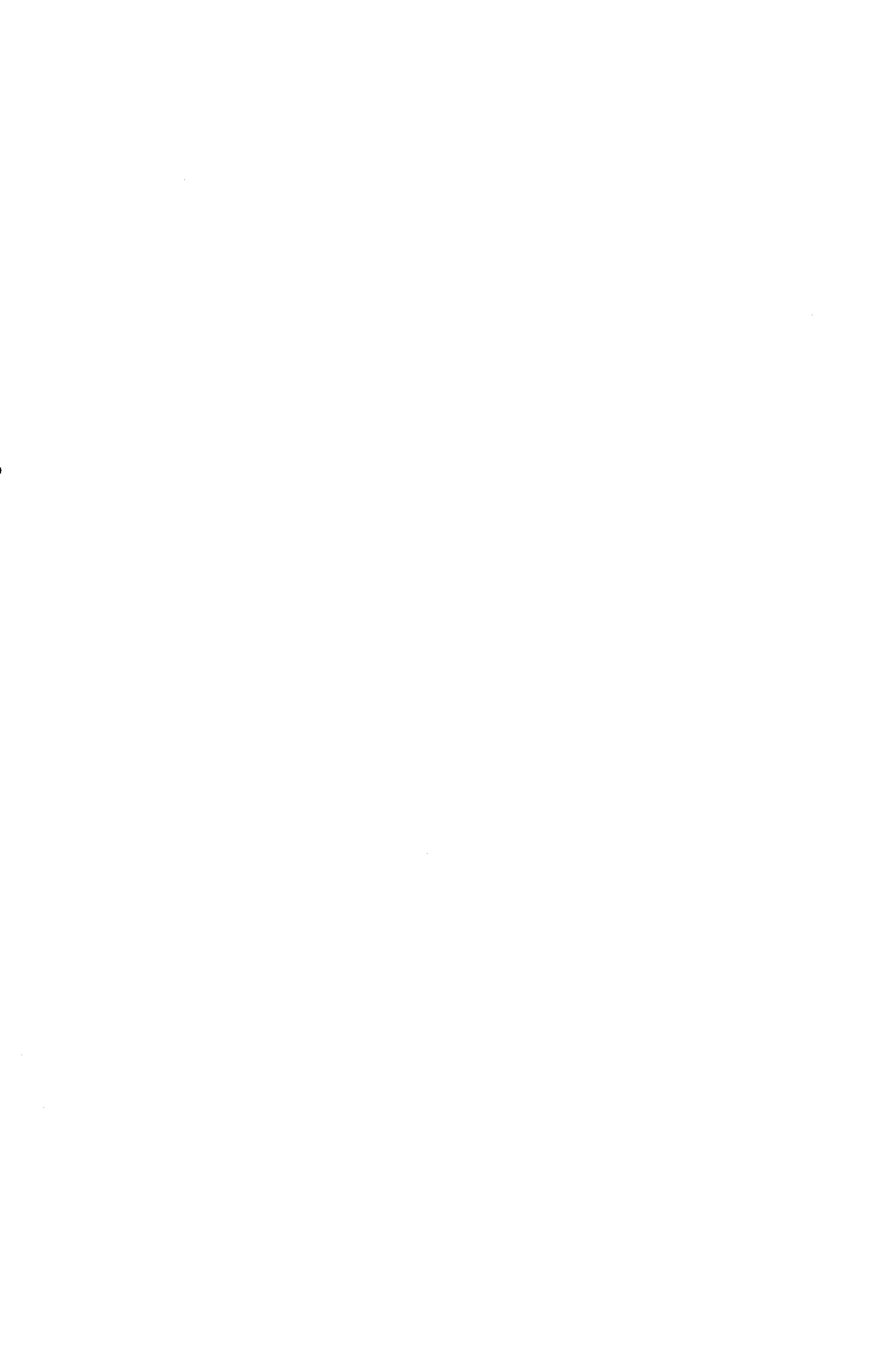
(٢) بالإنجليزية **Arabian Oil Ventures**.



ترجمة

تقرير فيلبي

والتعليق عليه



إلى :

السيد المقدَّم أي . تي . ولسون، [1]

المندوب المدني لإدارة الأراضي المحتلة في العراق، بغداد

رقم إم - ٢١٨ أُرِّخ في بغداد، ١٢ نوفمبر ١٩١٨م .

١ - أتشرَّف بتقديم تقرير عن عمليات البعثة التي حظيت بقيادتها إلى وسط جزيرة العرب للتباحث مع سعادة الإمام، عبد العزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود[2]، حاكم نجد وملحقاتها، في أمور معيَّنة مهمَّة له وللحكومة البريطانية؛ طبقاً لتعليمات حكومة صاحب الجلالة (ملك بريطانيا) الموجَّهة إلى السير بيرسي كوكس ببرقية مؤرَّخة في العشرين من أكتوبر سنة ١٩١٧م واردة من وزير الدولة لشؤون الهند.

ويغطِّي تقريري فترة سنة تقريباً: تبدأ من مغادرة البعثة لبغداد في

---

(١) أضيف إلى اسمه رموز هي: .C.M.G, C.I.E., D.S.O وترمز الثلاثة الأولى منها إلى Companion Of St. Michael And St. George (زميل القس مايكل والقس جورج). وترمز الثلاثة التالية منها إلى Companion of the order of the Indian Empire (زميل جماعة الإمبراطورية الهندية). وترمز الثلاثة الأخيرة منها إلى Distinguished Service Order (عضو الخدمة المميَّزة).

(٢) أضيف بعد اسمه رموز هي: .K.C.I.E. وترمز هذه الحروف إلى Knigh Commander Of The Indian Empire (قائد فرسان الإمبراطورية الهندية).

التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١٧م (١٣/ ١/ ١٣٣٦هـ)، وتنتهي بوصولي إلى هذه المدينة في أول نوفمبر سنة ١٩١٨م (٢٧/ ١/ ١٣٣٧هـ)؛ عائداً من وسط جزيرة العرب بعد نهاية مهمَّات البعثة.

وأحسب أنه من الأجدى عدم محاولة رصد عمل البعثة وفق ترتيب زمني. بل الأجدى إيراد نقاش مفصَّل لمختلف المسائل التي أخذت بعين الاعتبار خلال فترة إعداد هذا التقرير. وبالإضافة إلى ذلك فإن ضيق المجال يمنعني من إيراد تقرير مفصَّل عن رحلاتي في جزيرة العرب، أو ما وصلت إليه من نتائج جغرافية وغيرها خلال تلك الرحلات ما لم يكن ذلك ضرورياً لإيضاح الأمور التي تهمُّ البعثة بطريقة مباشرة. ولقد سبق أن كتبت تقارير مختصرة عن بعض رحلاتي في النشرة العربية (Arab Bulletin)، وإني لأنتظر الآن بشوق إلى فترة راحة لأرتِّب بشكل مناسب للنشر الملحوظات التي جمعت عن موضوعات شيِّقة مختلفة خلال إقامتي الطويلة في جزيرة العرب.

٢- العلاقات السابقة بين بريطانيا ونجد:[١]

لم تكن هناك إلا اتِّصالات رسمية نادرة بين بريطانيا وحكام نجد قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ وذلك لأسباب واضحة. ففضلاً عن تشدُّد السكان النجديين تجاه الآخرين وقوَّة روح الانعزالية لديهم فإن الصداقة الطويلة الأمد بين بريطانيا وتركيا حالت دون أي اعتراف سياسي بريطاني بمن ثار على الأتراك.

والواقع أن أوَّل مناسبة يزور فيها موظَّف بريطاني نجداً زيارة رسمية كانت تلك التي قام بها العقيد سادلير قبل تسعة وتسعين عاما[٢]. وقد أرسلته حكومة الهند البريطانية لتهنئة من حطَّم الإمبراطورية الوهابية[٣]، وحثِّه على اتِّخاذ احتياطات صارمة ضدّ أي عودة لقوة الوهابيين. وكان من حسن الحظ أن إبراهيم باشا ومن عمل نيابة عنهم

---

(١) يقصد فيلبي بذلك العلاقات التي سبقت قدوم البعثة التي رأسها إلى نجد وكتابته تقريراً عن أعمالها. والواقع أنه تحدَّث عن هذا الموضوع بتفصيل أكثر، وإن يكن قد سمَّى حديثه ملخَّصاً للعلاقات بين الطرفين، وجعل ذلك أول ملحق لهذا التقرير. انظر ص ص ١٧٧-١٩٧.

(٢) كان مجيء سادلير إلى نجد عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م.

(٣) المقصود بذلك إبراهيم باشا ابن والي مصر محمد علي باشا، الذي تمكَّن من إجبار الإمام عبد اللّه بن سعود، آخر حكام الدولة السعودية الأولى، على الاستسلام له سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م؛ وذلك بعد أن أبدى الإمام وأعوانه أمثلة رائعة من الصمود والشجاعة.

وقد سمَّى فيلبي الدولة السعودية بالوهابية تمشياً مع التسمية التي كانت شائعة لدى الأوربيين الذين استعملوا التسمية التي وضعها، أول الأمر، خصوم تلك الدولة.

لم يكونوا ممن يقبل النصيحة الجيدة. ولو أن الغرض من بعثة العقيد سادلير قد أصبح معلوماً في جزيرة العرب لكان من المؤكد أن يُنْسَى قبل أن تذهب بعثة بريطانية ثانية إلى الرياض.

كان ذلك عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ) عندما دُعي العقيد لويس بيلي، المقيم السياسي البريطاني في الخليج، لمناقشة المسائل الناتجة عن القرصنة وتجارة الرقيق التي كانت ما تزال قائمة في الساحل العربي من ذلك الخليج. فقرَّر - بمبادرة منه - أن يزور العاهل الوهابي في بعثة مكوَّنة من عدد قليل من المختصين. وكان استقبال (الإمام) فيصل بن سعود ووزيره له غير مشجِّع[1]. وعادت البعثة البريطانية إلى الساحل وهي تشعر أنه مع علمها الشيء الكثير عن أوضاع نجد فإنها لم تحقِّق إلا القليل في اتِّجاه إقامة علاقات صداقة دائمة مع البلاط الوهابي.

ولقد حدث انقطاع طويل في التعامل الرسمي بين بريطانيا ونجد،

---

(١) كان الإمام فيصل بن تركي من قادة المدافعين عن الدرعية سنة ١٢٣٣هـ، ثم أخذ مع من أخذ من آل سعود، بعد استسلامها، إلى مصر. وعاد من هناك إلى نجد سنة ١٢٤٣هـ، فأصبح المساعد الأيمن لأبيه الإمام تركي بن عبد اللّه. وعندما اغتيل هذا الإمام - بمؤامرة دبَّرها مشاري بن عبد الرحمن آل سعود آخر يوم من سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م- تولَّى مشاري مقاليد الأمور في الرياض. لكن فيصل بن تركي، الذي كان في شرقي البلاد لإخماد نار فتنة شبت هناك، عاد مسرعاً وقضى على مشاري. وفي عام ١٢٥٤هـ اضطرَّ الإمام فيصل إلى الاستسلام لخورشيد باشا، الذي أرسله محمد علي للقضاء على الحكم السعودي. أخذ فيصل مرَّة أخرى إلى مصر. لكنه عاد منها إلى نجد سنة ١٢٥٩هـ، واستعاد حكم البلاد. وبقي حاكماً حتى وفاته سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م.

التي تعرضت لهزَّات مدمِّرة خلال هذا الانقطاع، من قبَل الحكم الرشيدي، الذي قام حديثاً في حائل. فقد استولى محمد بن رشيد على الرياض وجميع ما يتبعها من مناطق[1]، وبحثت الأسرة السعودية عن ملجأ في الكويت وغيرها من جهات الساحل حيث بقيت في المنفى حتى عام ١٩٠٢م (١٣١٩هـ). وبعد وفاة محمد بن رشيد، سنة ١٨٩٨م (١٣١٥هـ) بأربعة أعوام استعاد ابن سعود مدينة الرياض ومناطقها. ثم تلت ذلك فترة تثبيت لما استعاده. وكانت طموحاته خلالها، باتِّجاه الأحساء، وما دخل فيه من مشكلات مع الأتراك، مما دفعه إلى النظر بعين الصداقة إلى القوة التي علم أنها حامية للكويت. فكان من السهل على النقيب شكسبير[2]، الوكيل السياسي في البلد الأخير، أن يقيم علاقات صداقة شخصية مع حاكم نجد عن طريق سلسلة من الزيارات إلى أراضيه بلغت ذروتها برحلته عن طريق الرياض والقصيم - عبر جزيرة العرب - إلى السويس في الشهور الأولى من عام ١٩١٤م (١٣٣٢هـ). ولذلك فإنه عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى كانت الأرضية ممهَّدة فعلاً لإعادة

---

(١) محمد بن رشيد هو الابن الأصغر لعبد اللّه بن علي بن رشيد مؤسس إمارة آل رشيد في جبل شمَّر. وقد تولَّى الإمارة سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م. ثم استفاد من النزاع الذي حدث بين أبناء الإمام فيصل بعد وفاته، وتمكَّن من إنهاء الدولة السعودية الثانية عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م. وظلَّ حاكماً لنجد حتى وفاته سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٨م.

(٢) وضع بعد اسمه رمزان هما .I.A ويعنيان Indian Army؛ أي أنه تابع للجيش الهندي (البريطاني). وأوفى كتابة عنه كتاب ونستون (Winstone) وترجمة عنوانه: **الكابتن شكسبير**. وقد نشر في لندن عام ١٩٧٨م.

العلاقات الرسمية بين السلطات البريطانية وابن سعود. فَأُرسل النقيب شكسبير مفوّضاً لدى البلاط الوهابي. وقد سبق أن بُعِثَ بتفصيل كاف عن تاريخ مهمَّته وما آل إليه أمرها حتى نهاية عام ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)؛ وذلك ضمن ملخَّص عن علاقات الحكومة البريطانية بابن سعود، وموجَّه إلى الحكومة (البريطانية) مع مذكرة السير بيرسي كوكس رقم ٢ وتاريخ الحادي والعشرين من يناير عام ١٩١٧م (٢٨/ ٣/ ١٣٣٥هـ).

وأرى من الواجب عليَّ في هذا المكان ألاَّ أكتفي بمجرد إضافة شهادتي بالنسبة للخسارة الكبيرة التي حدثت للحكومة البريطانية بوفاة النقيب شكسبير. ذلك أن كلَّ من قُدِّرَ له الاتصال به في جزيرة العرب ما زال يذكر اسمه بالتقدير والإجلال. وإني لا أشك بأنه لو بقي حياً لسقطت حائل منذ زمن، وأن ابن سعود لو حصل على مساعدة منا أكثر من تلك التي حصل عليها خلال الأيام الأولى من الحرب العالمية لساهم في العمليات ضد العدو (تركيا) مساهمة تفوق ما أمكنه عمله، أو أصبح من الضروري له أن يعمله.

والإشارة إلى المذكرة المقتبسة أعلاه توضِّح أن وفاة النقيب شكسبير في يناير عام ١٩١٥م (٣/ ١٣٣٣هـ) في معركة جُرَاب قد تلتها فترة طويلة من عدم النشاط العسكري من قبَل ابن سعود. وكانت قواته في تلك المعركة قد نُظِّمت بجانبنا ضد قوات ابن رشيد، الذي أعلن وقوفه مع تركيا. وكان ذلك اليوم على حليفنا، لا له[1]. وعلى أية

(١) كانت معركة جُراب في ٨/ ٣/ ١٣٣٣هـ (٢٣/ ١/ ١٩١٥م). وقد كتبت عنها كتابات كثيرة؛ منها ما ورد في كتاب **معارك الملك عبد العزيز**...، ص ١٥١-١٥٨.

حال فإن تلك الفترة الفاصلة قد قضيت بنجاح في تعزيز تحالفنا معه، وأدَّت إلى عقد معاهدة مرضية بشكل كبير لكلا الطرفين في لقاء لحكام تمَّ في الكويت، وقلَّد فيه السير بيرسي كوكس ابن سعود شارة قائد فرسان من أوسمة الإمبراطورية الهندية، كما أدَّت إلى زيارة قام بها ابن سعود للبصرة، حيث لم تتح له كل الفرص ليرى بنفسه معدَّات الحرب الحديثة، ونتائج العمليات البريطانية في هذه البلدة، فحسب؛ بل أُمدَّ، أيضاً، بمزيد من الأسلحة والمعونة الشهرية المالية المقرَّرة كي يكونَ قادراً على تجديد عملياته النشطة ضد عدوِّه وعدوِّنا: ابن رشيد.

وهكذا كان فجر سنة ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) مشعاً بالأمل في مستقبل أفضل. وكانت ضرورة إرسال السير بيرسي كوكس ممثِّلاً له في نجد قد شغلت باله. لكن لم تحن الفرصة المناسبة لما كان يخطط له قبل شهر مايو من تلك السنة. وذلك حين وصل إلى بغداد السيد (العقيد الآن) آر. ستورز[1] بتوجيه من المندوب السامي البريطاني في مصر. وبموافقة ذلك المندوب تقرَّر أن يعود ستورز إلى مصر عبر جزيرة العرب، ويزور في طريقه ابن سعود في القصيم، كي يطلع السير بيرسي كوكس على معلومات مباشرة عن قوَّة ابن سعود ومشاريعه التي كانت ضرورية لتقرير ما يمكن عمله لتكون العمليات في وسط الجزيرة العربية مشاركة جوهرية في النشاط العام لقواتنا العسكرية على المسرح التركي من الحرب. وكان على السيد ستورز، أيضاً، أن يحاول تحسين الموقف بقدر الإمكان بالنسبة للعلاقات بين ملك

(١) وضع بعد اسمه الرموز: C.M.G وقد سبق أن شرحت في صفحة **٧٣** هامش ١.

الحجاز والحاكم الوهابي، اللذين كانت شكوكهما وعدم ثقة أحدهما بالآخر تزداد وضوحاً يوماً بعد آخر.

وبعد أن عُملت الترتيبات الأولية الضرورية غادر السيد ستورز الكويت في التاسع من يونيو سنة ١٩١٧م مع قافلة من أهل الزلفي. لكنه عاد إلى الكويت بعد أربعة أيام لأنه وقع ضحيَّة لحرارة الشمس في اليوم الثالث من رحلته. ولم يعد يخطر بباله أن يجازف مرة أخرى، فيعبر الصحراء في مثل ذلك الفصل الحار. فعاد إلى مصر عن طريق البحر.

وأصبح واضحاً حينئذ أنه من غير العملي تجديد محاولة الاتصال بابن سعود حتى يعتدل الجو. وكانت حرارة الطقس قد جعلته لا يقوم بمحاولة جادة لتهديد حائل من القصيم حتى رمضان عندما وضع ابنه الأكبر، تركي بن عبد العزيز، قائداً لقواته التي بقيت مجتمعة، وعاد هو إلى الرياض ليصوم فيها.

وفي هذه الأثناء كان الوضع في وسط الجزيرة العربية قد أصبح غامضاً بازدياد. فالمدينة (المنوَّرة) لا تبدو أية إشارة إلى أنها آيلة للسقوط في أيدي قوات الشريف، والأتراك متمسكون بسكة حديد الحجاز، مصلحون لما طرأ عليها من خلل، بينما العلاقات بين حليفينا الزعيمين العربيين، الشريف وابن سعود، كانت تتدهور وتتوتَّر بسرعة. وكان عدم نشاط ابن سعود قد أعطى الشريف حجة لاتِّهامه بعدم الحماسة لقضيتنا، بل بحياد ضمني ذي طبيعة كريمة تجاه ابن رشيد والأتراك.

وفي ظلِّ تلك الظروف جدَّد السير بيرسي كوكس، أواخر سبتمبر عام ١٩١٧م(١٢/ ١٣٣٥هـ)، مشروعه لإرسال بعثة إلى ابن سعود. ولأنه قد اتُّفق، بصفة عامة، على أنه يجب أن تبذل جهود جادة للقضاء على ابن رشيد، أو تحييده، كي يمكن لعمليات الشريف أن تنجح، ويزال أساس الخلاف الموجود بين هذا الأخير وابن سعود، فإن حكومة صاحب الجلالة أقرَّت إرسال بعثة أكثر انسجاماً وطموحاً مما كان يُعَدُّ ملائماً أو محتملاً خلال الطقس الحار السابق. والواقع أنه فُكِّر بأن البعثة يجب أن تكون ممثَّلة بشكل مرضٍ لجميع المصالح لتكون قادرة على إزالة خلافات حلفائنا العرب السياسية ومنافساتهم، كما يجب أن تأخذ صفة شبه عسكرية حتى يمكن أن يكون هناك وزن لاقتراحاتها بالنسبة للمساعدة العسكرية التي يطلبها ابن سعود، وأن تكون بمثابة المستشار للقادة الوهابيين عندما يتقرَّر القيام بعمل ما.

ولقد أقرَّت حكومة صاحب الجلالة إرسالة البعثة في برقية مؤرخة في العشرين من أكتوبر سنة ١٩١٧م (٤/ ١/ ١٣٣٦هـ)، وانطلقت تلك البعثة من بغداد بعد تسعة أيام من ذلك التاريخ.

٣- شخصيات البعثة:

كانت الاقتراحات الأصلية التي قدَّمها السير بيرسي كوكس إلى حكومة صاحب الجلالة ترمي إلى أن يكون تكوين البعثة أكثر طموحاً وتمثيلاً مما تحقَّق فيما بعد. فقد كان يؤمِّل أن يتمكَّن المندوب السامي (البريطاني) في مصر وصاحب السمو[١] ملك الحجاز من إرسال ممثِّلين لهما للمشاركة في مداولاتها. وفُكِّر أن يكون العقيد هاملتون[٢]، الوكيل السياسي في الكويت، الذي كان حينذاك في طريقه إلى نجد لغرض آخر، ضمن البعثة لتمثيل مصالح شيخ الكويت سالم بن صباح. وبالإضافة إلى ذلك كان مؤمَّلاً أن يوجد معها موظف طبِّي. ولأن هدف البعثة كان، بالدرجة الأولى، ذا طابع عسكري، فقد كان مفهوماً أن يرسل القائد العام لقوات الحملة البريطانية في منطقة ما بين النهرين بالعراق مسؤولاً عسكرياً لدراسة الحالة العسكرية في وسط الجزيرة العربية ويعمل تقريراً عنها. وأخيراً رُؤي من الضروري، لمساعدة البعثة وتسهيل عملها، أن يكون معها مفرزة جهاز لاسلكي صغيرة.

على أن تلك الخطة الطموح، إلى حدٍّ ما، لم تتحقَّق، كما سبق أن ذكر. فقد أُرسِل المقدَّم كنليف أوين[٣] (Cunliffe Owen)، ليمثِّل

(١) هكذا ورد مع تسميته بالملك.

(٢) وضع بعد اسمه هذه الرموز: C.I.E، وقد سبق توضيح دلالاتها في صفحة ٧٣ هامش ١.

(٣) وضع بعد اسمه هذه الرموز: C.M.G وقد سبق توضيح دلالاتها صفحة ٧٣، هامش ١، كما وضع بعدها الرموز: .R.F.A، وترمز إلى Royal Fleet Auxillary وترجمتها: عضو احتياطي في الأسطول.

القائد العام، وصحبني من بغداد إلى الرياض حيث بقي - خلال غيابي الطويل نسبياً في جدة والقاهرة - مسؤولاً عن عمل البعثة المحلِّي حتى شهر فبراير سنة ١٩١٨م عندما عاد إلى الساحل وغادره في إجازة قصيرة قبل عودته إلى مزاولة واجباته العسكرية. وكان من لطف المقدَّم هاملتون، الذي كان في الرياض عند وصول البعثة إليها، أن بقي هناك عدة أيام ليمدَّني بما يفيد من آرائه ونصائحه قبل عودته إلى عمله في الكويت. وباستثناء هاتين الشخصيتين فإن البعثة إلى نجد، خلال الفترة التي يشملها هذا التقرير، كانت مكوَّنة مني وحدي.

وعندما أعود الآن بذاكرتي إلى الحديث عن تلك الفترة فإني أميل إلى القول بأن حجم عدد الموظفين المقرَّرين للبعثة أصلاً كان طموحاً. فإحضار شيء مفيد مثل الجهاز البرقي، ووجود عدد له اعتباره من العاملين البريطانيين في هذا البلد المتشدِّد غير المضياف(١)، سيكون مصدر إزعاج مستمر.

ومن المؤكَّد أن وجود طبيب سيكون أكبر مصدر قوة للمساعدة في تخفيف موقف السكان المتشدِّد تجاه كل الأمور الأجنبية باستثناء إمدادات الطعام، والأواني، والأسلحة والأدوية. وقد اقترحت حديثاً أن تدرسوا الرغبة في ملء هذه الثغرة التي لا يُشَك في

(١) من المعلوم ما يشتهر به أهل البلاد من كرم. ولكنه يقصد، فيما يبدو، أنهم لا يوادُّون من هم ليسوا على دينهم.

وجودها. ومع أن هذه المسألة قد أصبحت الآن من شأن البحث الأكاديمي، من وجهة نظر البعثة ذاتها، فمن المؤكد أنها ستؤخذ جدياً بعين الاعتبار في حالة تعيين ممثِّل سياسي دائم لدى البلاط الوهابي فيما بعد. وبما أنه تقرَّر في وقت ما أن ممثِّلاً طبياً من البعثة الأمريكية في الخليج قد يسدُّ تلك الثغرة - ولا أقول شيئاً عن النزعة المؤكَّدة لتوسيع نشاط المبشِّرين (المنصِّرين) في جزيرة العرب في جانب سلطات التبشير - فإني أرى من الضروري أن أحذِّر الحكومة (البريطانية) بأن استخدام موظف طبِّي من ذلك المصدر لن يكون مقبولاً لدى ابن سعود ورعاياه، وأنه يجب أن يُبذَل كل جهد لعدم تشجيع العمل الطبي في أراضيه من قِبَل الموظفين في البعثة الأمريكية.

ومن واجب الإنصاف لابن سعود أن أوضح أنه وجَّه دعوة ودِّية للدكتور هاريسون، أحد أعضاء تلك البعثة، لزيارة الرياض لعمل طبي في صيف عام ١٩١٧م، وأن خطأ ذلك الطبيب نفسه هو الذي أنهى عمله فجأة، فلم يكن أبداً من الضروري أن تغلَّف الحبوب والمسحوقات بدعايات مسيحية.

وأخيراً، بالنسبة لموقف الشريف من ابن سعود، فإني لا أرى أية فائدة من إرسال وفد شريفي ليتعاون مع البعثة. لكن لا توجد كلمات تستطيع التعبير عن أسفي من أن الظروف تمنعني من التعاون مع ممثِّل

من المندوب السامي في مصر؛ خاصة مع السيد ستورز، الذي لن يكون أحد مقبولاً عند ابن سعود مثله نظراً لأنه قد خطَّط له أن يزور نجداً ممثِّلاً للسير بيرسي كوكس أوائل سنة ١٩١٧م (٣/ ١٣٣٥هـ).
وإني لأضع أهمِّية كبيرة لهذه النقطة؛ إذ يجب أن يُراعَى أنني، من وجهة نظر ابن سعود، قد ذهبت إلى مصر محامياً لقضيته، وعدت مهزوماً على أيدي محامي الشريف. فيجب أن نصف الوضع بطريقة مختلفة إلى حدٍّ ما. لكن النتيجة كانت واحدة بالنسبة لابن سعود ولنا.

٤- أهداف البعثة:

لخَّص السير بيرسي كوكس الوضع بالنسبة لشؤون ابن سعود؛ وذلك في برقيته المؤرخة في الثالث والعشرين من سبتمبر سنة ١٩١٧م (٧/ ١٢/ ١٣٣٥هـ). وقد أوضح أنه كان من «أمله أن بعثة السيد ستورز المقترح إرسالها في يونيو الماضي، ورسالته إلى الشريف المصحوبة بمبعوث من ابن سعود، سيكون لهما تأثير في إزالة جو عدم الثقة لدى الدوائر الشريفية، وفي تمكيننا من أن نقرِّر ما إذا كانت هناك أية وسائل نستطيع بها أن نجعل ابن سعود أكثر فائدة لنا».

وقد عبَّر السير بيرسي كوكس في آخر تلك البرقية عن رأيه في أنه إذا كان يراد من ابن سعود فائدة عسكرية أكبر «فيجب أن نهتم بهذا الموضوع جدِّياً، ونعيره مدفعية هندية أو مصرية». ومع ذلك فإنه تساءل عن فائدة مثل هذه التجربة ما لم تكن هناك رغبة فيها من قِبَل السلطات في مصر. لكنه اقترح، على أية حال، أن تزور نجداً بعثة مشتركة تمثِّله، كما تمثِّل القائد العام في العراق والمندوب السامي في مصر، لتجعل الاقتراحات منسجمة مع الإمكانات العملية.

وفي إبلاغ المندوب السامي في مصر ملك الحجاز بأخبار تلك البعثة المقترحة «تعمَّد التأكيد على الطبيعة العسكرية للبعثة ودورها في نصح ابن سعود بالنسبة للإجراءات التي يجب اتِّخاذها ضد الأتراك وابن رشيد». وفي الوقت الذي كان يدرك فيه تفكير الملك حسين المتصلِّب

إلى حدٍّ ما، ويستنكر أية محاولة مبتسرة لحلِّ المسائل السياسية الكبرى بينه وبين ابن سعود، فإنه عبَّر عن أمله في أن عامل الوقت، والنهاية الناجحة للبعثة التي يؤمّل أن تؤدِّي إلى هجوم نشط ضدَّ العدو من قبَل ابن سعود، سيبرهنان للملك (حسين) على غباء سياسته الحالية المَتَّصفة بالشكِّ، ويوضِّحان الحكمة في إنهاء الخلاف مع أقرب جار قويٍّ له.

وبعد نقاش شفهي طويل حول الوضع في جزيرة العرب المتَّصل بعمل البعثة المقترح لخَّص السير بيرسي كوكس لي تعليماته في مذكرة مكتوبة مؤرَّخة في الحادي والثلاثين من أكتوبر سنة ١٩١٧م (١٥/ ١/ ١٣٣٦هـ). وزبدتها باختصار كما يأتي:

١- الهدف الأول والأساسي للبعثة التباحث بالتفصيل مع ابن سعود، وتكوين رأي عمَّا إذا كان هناك أي عمل مفيد يمكن أن يقوم به لصالح القضية المشتركة ضدَّ العدو.

٢- محاولة تنقية الجوِّ الذي يكتنف علاقة ابن سعود بالشريف وشيخ الكويت.

٣- إيجاد حلٍّ دائم أو مؤقت لمسألة العجمان.

٤- مناقشة ابن سعود حول طلبه حديثاً أن يسمح له بإصدار عملة نحاسية لنجد.

٥- مناقشة مسألة تعيين وكيل سياسي بريطاني في نجد.

وبالإضافة إلى هذه الأمور فقد سألني السير بيرسي كوكس أن أناقش أموراً أخرى مثل الحدِّ من التجارة بسبب ضرورات الحرب، واستحالة إعطاء تسهيلات ملاحية لموانئ الأحساء خلالها، والحدِّ من حركة الحجِّ.

وهكذا كانت التعليمات التي بدأت البعثة مهمَّتها بموجبها؛ نصاً وروحاً. أما أنا فلم تغب عن عيني أبداً حقيقة أن الهدف الأول والأساسي كان تطوير القضية المشتركة ضد العدو بعمل ناجح ضدَّ ابن رشيد.

٥- خط سير البعثة:

غادرت البعثة بغداد بعد ظهر يوم التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١٧م (١٣/ ١/ ١٣٣٦هـ) على ظهر زورق بخاري؛ متَّجهة إلى البصرة، فوصلتها منتصف ليلة الثاني من نوفمبر من تلك السنة. وقضت هناك ثمانية أيام تجمع إِمدادات ومعدَّات. وخلال هذه الفترة اغتنمتُ فرصة وجود عدد من زعماء القبائل البدوية المجاورة للزبير، وتعرَّفتُ على أمورهم في سلسلة من مقابلاتي الشخصية معهم.

وفي صباح اليوم الحادي عشر من نوفمبر كان كل شيء مُعَدّاً للانطلاق، وركبت البعثة على ظهر السفينة إتش. إم. إس. لورانس، التي وضعت تحت تصرُّفها بمجاملة من العميد البحري سي. سانت ويك Wake [1] قائد القوات البحرية في الخليج وما بين النهرين.

وفي الثالث عشر من نوفمبر وصلنا إلى البحرين حيث وجدنا أن الوكيل السياسي يي. سي. لوخ Loch [2] قد تكرَّم بعمل الترتيبات لتواصل البعثة سيرها إلى العُقَيْر على مركب شراعي [3].

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ركبت البعثة مركباً

(١) وضع بعد اسمه رمزان: .C.B ويرمزان إلى Commpenion of the Bath (زميل جماعة الأسطول المساعد).

(٢) وضع بعد اسمه رمزان: .I.A وسبقت الإشارة إلى أن المراد بهما أنه تابع للجيش الهندي.

(٣) كانت العُقَيْر ميناء مهمّاً على ساحل المملكة المطلِّ على الخليج. ولها تاريخ حافل بالنشاط.

شراعياً رافعاً علم ابن سعود. وقد وضع كروزاير قائد السفينة لورانس، تحت تصرُّفنا زورقاً بخارياً ليسحب مركبنا بعض الطريق لأن الريح لم تكن متحرِّكة. ثم تقدَّمنا في إبحارنا حتى فم مضائق البحرين.

وتأخذ الرحلة من البحرين إلى العُقَيْر، عادة، سبع ساعات، أو ثماني ساعات بالمركب الشراعي. لكن بعد مفارقتنا للزورق البخاري درجنا بهدوء بقية ذلك اليوم. ومع غروب شمس اليوم التالي كنا نرسي على طول رصيف العُقَيْر. وذلك في الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٩١٧م (٣٠/ ١/ ١٣٣٦هـ).

وقد استقبلنا في العُقَيْر؛ نيابة عن ابن سعود، أميرها عبد الرحمن ابن خير اللَّه[١]. ثم سرنا منها إلى الأحساء، فوصلنا إلى الهفوف في التاسع عشر من نوفمبر، حيث استقبلنا حاكم المنطقة، عبد اللَّه بن جلوي[٢]، بكرم عظيم؛ نيابة عن ابن سعود. وغادرنا الهفوف في الثاني والعشرين من نوفمبر صوب داخل البلاد، فوصلنا إلى الرياض قرب منتصف يوم الثلاثين من ذلك الشهر (١٥/ ٢/ ١٣٣٦هـ).

(١) لعلَّه من نسل خير اللَّه، الذي كان مملوكاً للإمام فيصل بن تركي، وكان أحد الشجعان الذين يعتمد عليهم.

(٢) هو الأمير عبد اللَّه بن جلوي بن تركي آل سعود. كان في طليعة رفاق الملك عبد العزيز في معركة استعادة الرياض من حكم ابن رشيد. وظلَّ في طليعة رفاق دربه؛ سواء في معارك توحيد البلاد أو في إدارة بعض أقاليمها. وقد أصبح أميراً لمنطقة الأحساء وما يتبعها من توحيدها سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، إلى وفاته سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م. واشتهر بحزم نادر كانت تقتضيه تلك المرحلة. فتحقَّق على يديه في تلك المنطقة أمن منقطع النظير.

وكما ذُكر سابقاً قابلنا في الرياض المقدَّم هاملتون، الوكيل السياسي في الكويت. واستقبلنا سعادة عبد العزيز بن سعود وأبوه الإمام عبدالرحمن بن فيصل[1].

وكانت البعثة، خلال الأيام التالية، مشغولة تماماً في التباحث مع ابن سعود حول الموضوعات التي أتت من أجل مناقشتها. وقد وجدت فيه رجلاً لا يملُّ من العمل. وبالرغم من الميل إلى الانجراف بعيداً عن نقاشه بموجات من فصاحته القرآنية فإنه رجل ذو مقدرة تجارية، وذو معرفة جيدة بشؤون العالم، ومطَّلع جداً على تعقيدات السياسة العربية، وإن يكن مشاهداً غير مهتمّ بها. وفوق ذلك فإن لديه اقتناعاً صادقاً بضرورة التحالف مع بريطانيا؛ إذ يرى ذلك هو الضمان الوحيد لمصالح بلاده وشعبه حاضراً ومستقبلاً.

وعند منتصف ليلة الخامس من ديسمبر كنت قد قضيت ما لا يقلُّ عن أربع وثلاثين ساعة من المئة والاثنتين والثلاثين ساعة منذ وصولي في لقاءات مع ابن سعود؛ ناهيك عن المقابلات الإضافية مع ابن عمِّه

(١) هو الابن الأصغر للإمام فيصل بن تركي. تولَّى الحكم بعد وفاة أخيه سعود، سنة ١٢٩١هـ، ثم تنازل عنه لأخيه عبد اللّه عام ١٢٩٣هـ. وبعد وفاة عبد اللّه، عام ١٣٠٧هـ، تولَّى الحكم مرَّة أخرى وإن كان مدى نفوذه محصوراً. ثم اضطرَّ عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م، إلى مغادرة عاصمته، الرياض، وتنقَّل مع عدد من أفراد أسرته في شرقي البلاد مّما يلي الربع الخالي إلى أن سمح العثمانيون له ولأسرته بالاستقرار في الكويت سنة ١٣١٠هـ. وبعد استعادة ابنه عبد العزيز الرياض من حكم ابن رشيد، عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م بشهور قدم إليها من الكويت مع باقي أسرته. وظلَّ محلَّ التقدير والإجلال لدى الجميع، وأهلاً للمشورة لدى ابنه في الشؤون العامَّة، حتى توفي سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

أحمد بن ثُنَيَّان، الذي يبدو أنه محلُّ ثقته الكاملة، والذي غالباً ما أرسله ليمهِّد الطريق أمام الموضوعات الحسَّاسة المحتمل ورودها في اللقاءات التالية. وقد شعرت أنني أصبحت مطَّلعاً بدرجة كافية على الحقائق الرئيسية للوضع، بحيث يمكنني صياغة اقتراحات محدَّدة لتدرسها الحكومة البريطانية.

وفي أثناء ذلك أصبح واضحاً بصورة متزايدة أن ملك الحجاز كان يعمل بكل ما يستطيع لإعاقة إتمام عمل البعثة؛ وذلك بمنعه وصول مبعوث من المندوب السامي في مصر إلى نجد. وكنت أنا وابن سعود متَّفقين تماماً على أن حضور مثل ذلك المبعوث ليرى بنفسه الأوضاع في هذه البلاد أمر ضروري لمصالح جميع المعنيِّين. وبناء على ذلك فإني عندما تلقَّيت أخباراً بأن ذلك الملك رفض إعطاء حماية للسيد ستورز بحجة أن الطرق من الحجاز إلى حائل - ربما قصد بريدة - غير آمنة، قرَّرت، بموافقة من ابن سعود، أن أضمن إعادة النظر في ذلك الرأي بالبرهنة على أن الخطر المزعوم لا يوجد إلا في مخيلة الملك وحده. وبناء على ذلك تركت المقدَّم كنليف أوين قائماً بالأعمال الجارية للبعثة وأنا واثق بأنه لن تجري أية أوامر بشأن المقترحات الرئيسية المتَّصلة بالرياض قبل عودتي إليها[1] . وانطلقت مسافراً إلى الطائف في اليوم التاسع من ديسمبر (٢٤/ ٢/ ١٣٣٦هـ).

وعند وصولي إلى الطائف عصر يوم عيد الميلاد أسفت كثيراً لا لأني لم أجد السيد ستورز هناك لمقابلتي فحسب؛ بل لأن ملك

١- قال عنه، هنا، المقدَّم، وقال عنه، فيما بعد، العقيد.

الحجاز لم يتلقَّ خبراً بوصولي المتوقَّع. وكان هذا بالتأكيد مثبِّطاً جداً. ولا شك عندي بأن الملك قد اعتقد أن وصولي غير المعلن كان نتيجة مؤامرة لإنهاء معارضته لمفاوضاتنا مع ابن سعود. ولست أدري ما إذا كانت قد بُذلت محاولة لإقناعه بأن عدم إخباره بالأمر كان مجرَّد خطأ غير مقصود. بل إني أنا لا أعلم ما إذا كان ذلك مجرَّد خطأ.

ومهما كان الأمر فقد أكرم وفادتي الشريف حمود، القائم بإمارة الطائف، حتى الثامن والعشرين من ديسمبر عندما غادرتها إلى جدة بناء على دعوة مجاملة من الشريف (حسين). وقد تركت احتياطاً نصف قافلتي وجميع أغراضي الثقيلة في الطائف.

وكان سفري إلى جدَّة آخر يوم من سنة ١٩١٧م (١٧/ ٣/ ١٣٣٦هـ). وهناك أسكنني وضيَّفني المقدَّم باست Basset وضباط البعثة العسكرية البريطانية خلال الأسبوعين التاليين. وبعد أيام قلائل وصل إلى جدَّة الرائد دي. جي. هوجارث[1]؛ ممثِّلاً خاصاً للمندوب السامي في مصر ليرأس مداولات معيَّنة مع الملك (حسين) كان العقيد باست قد بذل محاولات لترتيبها. وكان قد مضى وقت غير قصير والملك لم يقرِّر ما إذا كان سيحضر إلى جدة أو لن يحضر. لكنه أخيراً قدم إليها بعد يومين من وصول هوجارث. وقد حضرت، خلال الأيام التالية، سلسلة من مداولات كان محور

(١) وضع بعد اسمه الرموز: .C.M.G وقد سبق الحديث عنها. وتلتها الرموز .R.N.V.R وترمز إلى Royel Naval Volunteer Reseveber (عضو احتياط البحرية الملكية).

النقاش فيها يدور حول العلاقات بين ابن سعود والملك. ويكفي أن أقول، هنا، إنه ما إن أصبح واضحاً أن لا طائل من وراء زيادة النقاش في هذا الموضوع نظراً لموقف الملك العدائي الذي لا يتزحزح قرَّرت - بناء على استحسان من الرائد هوجارث والعقيد باست - أن أستاذن سموَّه بالمغادرة. وكان هناك من الإشارات ما جعلني مستعداً لما تلا ذلك؛ وهو رفض الملك الشديد السماح لي بالعودة إلي الرياض براً. وقد ذهبت سدى جميع محاولات الرائد هوجارث والعقيد باست لإقناعه بالعدول عن رفضه. ولم يبق أمامي إلا أن أعود إلى عملي عن طريق البحر.

وبموافقة من السير بيرسي كوكس استجبت للدعوة الكريمة التي وجَّهها لي المندوب السامي لزيارة القاهرة وأنا في طريق عودتي إلى عملي. وبناء على ذلك صحبت الرائد هوجارث في عودته على ظهر السفينة الملكية هاردنج، التي غادرت جدة في الرابع عشر من يناير سنة ١٩١٨م (١١/ ٤/ ١٣٣٦هـ)، ومرَّت في طريقها بينبع والوَجْه والعَقَبة حتى وصلت إلى السويس في العشرين من يناير. وفي مساء ذلك اليوم وصلت إلى القاهرة. وبعد فترة فاصلة، صحبت خلالها الرائد هوجارث في زيارة إلى فلسطين والقدس، بقيت في القاهرة حتى السادس عشر من فبراير أناقش الأوضاع العربية المتصلة بعمل البعثة مع المندوب السامي وموظفي المكتب العربي.

وفي السادس عشر من فبراير، والأمور حينذاك قد أصبحت في طريقها للحل النهائي، غادرت القاهرة عائداً إلى البصرة عن طريق

السويس، فكراتشي، فبمبي. وفي الرابع والعشرين من مارس وصلت إلى البصرة.

وكان السير بيرسي كوكس عند وصولي إلى البصرة في طريقه إلى مصر وإنجلترا. فقرَّرت أن أبقى في تلك المدينة حتى تلقيت منه أوامر حكومة صاحب الجلالة حول المقترحات النهائية، والتي أرسلت في برقيته من مسقط برقم ب-٢٩ وتاريخ التاسع من مارس سنة ١٩١٨م (٢٦/ ٥/ ١٣٣٦هـ).

وفي السادس والعشرين من مارس تلقَّيت برقية منكم[1] تفيدني أن مقترحات السير بيرسي كوكس قد لقيت موافقة حكومة صاحب الجلالة فأصبحت بذلك حراً في العودة إلى ابن سعود لأبلغه نتيجة مناقشاتي.

وكانت خطَّتي الأصلية أن أعود عن طريق الكويت إلى ابن سعود، الذي قيل حينئذ إنه كان في الأحساء. لكن وصول رسل إليَّ من ضاري بن طُوَالة، الذي كان يقيم في حفر الباطن وفق تعلّيماتي السابقة، جعلني أقرِّر الذهاب إلى مخيَّمه في الحفر، ثم أسافر من هناك إلى ابن سعود.

وبناء على ذلك سافرت في الثامن والعشرين من مارس سنة ١٩١٨م (١٥/ ٦/ ١٣٣٦هـ)، عن طريق البحر إلى الزبير. وفي صباح اليوم التالي اتَّجهت إلى داخل البلاد، فوصلت إلى مخيَّم ضاري قرب الحفر في الثاني من أبريل، واسترحت هناك اليومين

(١) الضمير يعود إلى من أرسل إليه التقرير؛ وهو المقدَّم ولسون، المندوب المدني لإدارة الأراضي المحتلَّة في العراق.

التالين أناقش أوضاع الصحراء. وفي الخامس من أبريل واصلت السفر بصحبة ضاري متَّجهاً جنوباً إلى ابن سعود.

وعندما وصلت إلى شَعيب الشَّوْكي في هضبة العَرَمَة[1] في الحادي عشر من أبريل (٢٩/ ٦/ ١٣٣٦هـ) وجدت أن ابن سعود قد وصل إليه من الأحساء في ذلك اليوم نفسه. ولهذا بقيت هناك حتى السادس عشر من أبريل أناقش الأوضاع معه، ثم صحبته إلى الرياض، فوصلناها في التاسع عشر من أبريل.

وكانت نتيجة مناقشاتي مع ابن سعود تعهُّده بأن يستعدَّ للعمل ضدَّ ابن رشيد في رمضان القادم (يونيو-يوليو)، وأن يقضي الفترة الممتدَّة إلى ذلك التاريخ في جمع المؤن وغيرها من التجهيزات الضرورية لعملياته.

وكانت فكرة جلوسي في الرياض دون عمل حتى منتصف يوليو بعيدة كل البعد عن كونها جذَّابة بالنسبة لي، لكني كنت سعيد الحظ في الحصول على موافقة، وإن تكن فاترة نوعاً ما من ابن سعود على قضاء بعض تلك الفترة في رحلة إلى أطراف نجد الجنوبية. وانطلقت من الرياض في السادس من مايو (٢٥/ ٧/ ١٣٣٦هـ) عن طريق الحائر، فالخَرْج، فالأفلاج، فالسُّلَيِّل إلى وادي الدواسر[2]. ومن

(١) الشَّوْكي موضع يبعد عن الرياض بحوالى ١٦٠ كيل شمالاً بمَيْلٍ قليل نحو الشرق.

(٢) الحائر قرية لفئة من قبيلة سُبَيْع جنوب الرياض غير بعيدة عنه. والخرج والأفلاج إقليمان في كل منهما عدة بلدان وقرى. أما السُّلَيِّل فبلدة يتبعها قرى بين الأفلاج ووادي الدواسر وهي أقرب إلى الوادي. وأما وادي الدواسر فمن أشهر أودية نجد، وفيه بلدان وقرى كثيرة.

هناك سافرت عبر هضبة طُوَيْق، فزرت الهدَّار، والحمر، وستارة، والغَيْل، والحَوْطَة[1]. ثم عدت إلى الرياض في الرابع والعشرين من يونيو بعد غياب دام خمسين يوماً.

وفي الخامس من أغسطس عام ١٩١٨م (٢٧/ ١٠/ ١٣٣٦هـ) كان كل شيء جاهزاً لبدء الهجوم الرئيسي على ابن رشيد. وكان ذلك بعد قيام الابن الأكبر لابن سعود، تركي بن عبد العزيز، بمحاولة غير ناجحة لبدء الهجوم ضدَّ شمَّر. وقد صحبت ابن سعود من الرياض عبر وادي حنيفة، فالوَشْم، فالسِّر، فالمذْنَب، فعُنَيزة، ثم وصلنا إلى بريدة في الخامس والعشرين من أغسطس تلك السنة (١٨/ ١١/ ١٣٣٦هـ)[2].

وقد حدث تأجيل آخر للغزو في أثناء تجمُّع فرق مختلفة من قوات ابن سعود الضاربة. ولم يبدأ ابن سعود نفسه الهجوم على حائل قبل التاسع من سبتمبر عام ١٩١٨م، (٣/ ١٢/ ١٣٣٦هـ). ولم يسمح لي بمصاحبته في الهجوم لأسباب سأشرحها فيما بعد. وقد قضيت فترة

---

(١) طويق جبل معروف وهو جبل اليمامة: يمتدُّ من شمال الزلفي إلى الربع الخالي جنوباً. والهدَّار: بلدة في الأفلاج. والحمر: واد في الأفلاج. وستارة والغَيْل قريتان من قرى الأفلاج. أما الحوطة فالمراد بها حوطة بني تميم؛ البلدة المشهورة.

(٢) وادي حنيفة من أكبر أودية الجزيرة العربية، وتقع على ضفافه مدن وقرى كثيرة من أشهرها الدرعية والرياض والعيينة. أما الوشم فإقليم من أهم مدنه أشيقر وشقراء وثرمداء. وأما السِّر فإقليم بين الوشم والقصيم، ومن أشهر بلدانه الآن ساجر. والمذنب وعنيزة وبريدة مدن معروفة مشهورة في إقليم القصيم.

غيابه في عنيزة، ثم التحقت به ثانية في قصيباء[1] بعد عودته من حائل؛ وذلك في الثامن والعشرين من الشهر المذكور.

وبما أن إعادة عاجلة لهجومه على حائل لم تكن عملية عدنا مع جميع قواته المكوَّنة من خمسة آلاف رجل إلى الطُّرْفية[2]، ومن ثم إلى بريدة حيث تلقَّيت في الرابع من أكتوبر التعليمات المثبِّطة نوعاً ما من حكومة صاحب الجلالة لإنهاء مهمَّات البعثة. وعندئذ قرَّرت الذهاب إلى الساحل، فوصلت إلى الكويت في السادس عشر من أكتوبر؛ وذلك عن طريق الشِّماسيَّة، فالزُّلْفي، فالدِّجاني، فالقَرْعاء[3].

(١) قُصَيْبَاء: بلدة في شمالي القصيم تبعد عن بريدة بحوالى ٧٤ كيلاً. انظر عنها محمد العبُّودي، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: معجم بلاد القصيم**، ط٢، الرياض، ١٤١٠هـ، ج٥، ص٢٠١٨.

(٢) الطُّرْفية تقع شمال شرقي بريدة، وتبعد عنها بحوالى ٢٧ كيلاً. انظر عنها العبُّودي، ج٤، ص ١٤٧٦. وقد وقعت فيها، أو بالصَّريف المجاور لها، معركة بين مبارك بن صباح ومن معه وعبد العزيز بن رشيد وأتباعه؛ وذلك عام ١٣١٨هـ. فانتصر فيها ابن رشيد على خصومه. ولذلك يسمِّي البعض تلك المعركة معركة الصَّريف أو الطُّرفية. ثم وقعت فيها معركة بين سلطان الحمود بن رشيد، ومعه فيصل الدويش، زعيم مطير، ومحمد أبا الخيل أمير بريدة، وبين الملك عبد العزيز آل سعود؛ وذلك عام ١٣٢٥هـ. وقد انتصر فيها الملك على خصومه.

(٣) الشِّماسيَّة: بلدة تقع شرق بريدة على بعد ٣٠ كيلاً. انظر عنها العبودي، ج٣، ص ١٢٧٢. أما الزُّلفي فمدينة مشهورة شمالي إقليم سدير. وأما الدِّجاني فيقع شمال شرقي إقليم سدير. وهو الآن من الجهات التي يقيم فيها البراعصة من مُطَير. ويتبع إدارياً المجمعة.

انظر عبد الله بن خميس، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: معجم اليمامة**، الرياض، ١٣٩٨هـ، ج١، ص٤١٠.

وأما القَرْعاء فمورد ماء جنوب اللصافة وشرق الصُّمَّان. انظر حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي: المنطقة الشرقية**، ج٤، ص ١٣٥٨، **والمعجم الجغرافي... : شمال المملكة**، دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٧هـ، ج٣، ص١٠٨١.

وبالجملة فقد قضيت تسعة شهور من الفترة التي يتناولها هذا التقرير على تراب جزيرة العرب. وخلال ذلك الوقت قطعت في السفر حوالى ٢٦٠٠ ميل[١]. وكان أكبر جزء في رحلتي من الرياض إلى الطائف، وكل رحلتي من الرياض إلى وادي الدواسر والعودة منه قد حدثا عبر بلاد أعتقد أنها لم يزرها أوربيون من قبل[٢]. ثم إن ظروف سفري مكَّنتني، حتى في الطرق المعروفة كالوَشم والسِّر والقصيم ذاتها، أن أزور القرى الواقعة بعيداً نوعاً ما عن طريق الرحالة السابقين. وقد صنَّف مسوَّدات خرائطي، جزئياً، المقدَّم سي. رايدر[٣]، مدير المسح الجغرافي لدى قوات الحملة البريطانية في بلاد ما بين النهرين.

(١) طبقاً لتقديراتي كنت أقطع ثلاثة أميال في الساعة في الأرض السهلة وميلين ونصف الميل في الأرض الوعرة أو الرملية (فيلبي).

(٢) باستثناء إقليم الخرج الذي زاره المقدَّم أوين في يناير سنة ١٩١٨م خلال غيابي عن الرياض(فيلبي).

(٣) وضع بعد اسمه الرموز: .C.I.E، ثم .D.S.O وقد وضحت مدلولاتها في صفحة ٧٣ هامش ١.

٦- شيوخ منطقة الزبير:

عند وصول البعثة إلى البصرة، حيث كان من الضرري التأخُّر قليلاً لجمع ذخائر ومعدَّات، وجدت دعوة موجَّهة للأصدقاء من شيوخ منطقة الزبير لحضور سباق خيل سيجري في البصرة خلال الأسبوع الأول من نوفمبر، وكانت تلك المناسبة فرصة ملائمة للنقاش معهم حول الأوضاع في الصحراء القريبة من الزبير وقبائلها، تمهيداً لعمليات قد يطلب من البعثة القيام بها في المناطق الداخلية من البلاد؛ خاصة أن مراسلات سابقة بين بغداد والبصرة قد أشارت إلى ضرورة الاستفادة من مميِّزات مختلف قادة شمَّر والظفير الذين يظهرون الصداقة لنا، وينعمون منذ وقت طويل بعطائنا، ولا يقومون مقابل هذا بأي عمل ضدَّ أعدائنا المشتركين.

وكان أهم الشيوخ المشار إليهم سعود بن صالح السبهان[1]، الذي ترك ابن رشيد وانضم إلينا قبل اثني عشر شهراً، فرُحِّب به حليفاً وأُمدَّ بمعونة قدرها ٦٠٠٠ روبية شهرياً؛ إضافة إلى أسلحة وذخائر ومؤن؛

---

(١) ينتمي إلى أسرة من أشهر أسر حائل، التي لها صلة وثيقة بآل رشيد. وكانت أم أمير جبل شمَّر، في الفترة التي يتحدَّث عنها التقرير، سعود بن عبد العزيز بن متعب، بالذات من آل سبهان. وكان لدى سعود بن صالح السبهان طموح إلى تولِّي مكانة قريبه، زامل بن سبهان، في الإدارة. فأوغر صدر الأمير سعود على زامل، ثم قام باغتياله سنة ١٣٣٢هـ، واحتلَّ مكانته. وازداد نفوذه إلى درجة أنه بدأ يفكر في عزل الأمير عام ١٣٣٥هـ. لكن الأمير اكتشف أمره، فاضطرَّ إلى الفرار إلى العراق. وبقي هناك حتى قُتِل سنة ١٣٣٨هـ. العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص١٤٩.

أملاً أن يبرهن بنشاط على أنه مفيد في قطع طريق القوافل المتَّجهة إلى حائل وغيرها من الجهات المعادية. ويشاع منذ مدة أنه يستغفلنا. لكن من المؤكَّد أنه لم يقم بأي عمل يستحقُّ ما يصرف له من تلك المعونة، التي خُفِّضت إلى ٣٠٠٠ روبية قبل مغادرة البعثة بغداد بقليل.

ويلي سعود الصالح في الأهمية ضاري بن طُوَالة رئيس الأسْلم من شمَّر[(١)]، الذي كانت معونته ١٠٠٠ روبية شهرياً. ويحلّ بسرعة محلَّ سعود في تقدير أولئك الموظفين الذين يتعاملون مع أمور الصحراء. وقد قيل عنه حديثاً: إن كرمه تجاه أتباعه أدَّى إلى أن يكون رهن إشارته أتباع يفوقون أتباع منافسه سعود من حيث العدد وإمكانية الاعتماد عليهم.

وثالث أولئك الشيوخ المحلِّيين حمود بن سُوَيْط رئيس الظَفير[(٢)]، الذي يستلم، أيضاً، معونة من الحكومة البريطانية والذي أُسندت إليه مهمَّة مراقبة خط سكة الحديد بين البصرة والناصرية من جانب الصحراء، ومنع خروج مهرِّبين منها يستفيد منهم الأعداء.

وفي الخامس من نوفمبر سافرت إلى الزبير مع جماعة نظَّمها السير (المقدَّم الآن) إي. بي. هاول Howell، نائب المندوب المدني في البصرة[(٣)].

---

(١) الأسلم: فرع من فروع قبيلة شمَّر الكبيرة المشهورة.

(٢) الظفير: من القبائل العربية الكبيرة، التي كانت نشطة جداً في غاراتها.

(٣) وضع بعد اسمه الرموز: .C.I.E وقد سبق شرحها صفحة ٧٣، هامش ١.

وقد نزلنا ضيوفاً عند الشيخ إبراهيم[1]، وعُرِّفت بضاري بن طُوَالة وحمود بن سُوَيط ومحمد بن سبهان، الأخ الأصغر لسعود الصالح، الذي أرسل اعتذاراً عن عدم حضوره شخصياً السباق بحُجَّة مرضه. وربما كان السبب الحقيقي لعدم حضوره شعوره بعدم قيامه بما كان يجب أن يقوم به. وقد قمت بمناقشات أولية مع هؤلاء الشيوخ حول موضوعات ذات مصالح مشتركة، ورتَّبت أن يأتوا إلى البصرة لمناقشات أطول في المستقبل القريب. وفي الوقت نفسه رجوت محمداً أن يرسل مبعوثاً خاصاً إلى أخيه ليخبره أن من الأحسن له أن يحضر شخصياً.

وفي السابع من نوفمبر وصل إلى البصرة كلٌ من ضاري وحمود ومحمد مع شيخ الزبير إبراهيم. وأجريت مقابلات مطوَّلة مع كلٍ منهم باستثناء محمد، الذي أخبرته أني سأرجئ كل نقاش حول أوضاع أخيه حتى يأتي بنفسه. والواقع أن سعوداً لم يأتِ أبداً.

وكان الشيخ إبراهيم مفيداً جداً لي كي أناقش بثقة كل مميِّزات الشخصيات المختلفة التي يجب أن أتعامل معها. وكان متحمِّساً لضاري وإمكانات كونه مفيداً لمصالح الحكومة البريطانية. وهو عدوٌ لسعود الصالح، الذي يصفه بأنه محتال ليست لديه رغبة في أن يخدم

(١) هو إبراهيم بن عبد اللّه آل راشد، تولَّى مشيخة الزبير عام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م). ثم عُزِل عنها سنة ١٣٤٢هـ. انظر عبد الرزاق الصانع وعبد العزيز العلي، **إمارة الزبير بين هجرتين**، الكويت، ١٣٠٦هـ، ج١، ص١٦٥.

أحداً بصدق سوى نفسه. أما بالنسبة لحمود فهو لا يهتم به كثيراً. ذلك أن الرئيس الحالي للظفير شخصياً حليف غير مهمّ في سلسلة الشيوخ، الذين جعلوا اسم ابن سويط محترماً ومرهوباً في الماضي.

وبعد مناقشة حرَّة وافية مع إبراهيم وضاري وحمود، وبالتشاور مع السيد هاول، توصَّلت إلى النتائج الآتية:

١- أن سعوداً الصالح من المستبعد أن يكون ذا فائدة عملية لنا، وأن المعونة التي تضيع بإعطائه إيَّاها يجب أن توقف أو تخفَّض إلى معونة صغيرة شخصية تدفع إليه بشرط أن يقيم في مكان لنا سيطرة فعَّالة عليه.

٢- أن الظفير، الذين لهم خبرة قديمة بطرق الصحراء التي تخترقها الآن سكة الحديد، يمكن أن يفيدوا كثيراً، بقيادة حمود بن سُوَيْط ورجال عشيرته، إذا استخدموا في مواطنهم، وأنه لا يمكن أن يكونوا مفيدين في أية عمليات داخل البلاد.

٣- أن ضاري بن طُوَالة، الذي كوَّنت عنه فكرة عالية من خلال معرفتي القصيرة له، يمكن أن يفيد إذا استخدم فيما يتعلق بنشاط البعثة في نجد.

وبناء على ذلك أرسلت برقية في الثامن من نوفمبر (٢٣/ ١/ ١٣٣٦هـ)، ضمَّنتها جوهر النتائج السابقة، مقترحاً:

١- أن معونة سعود يجب أن تخفَّض إلى ٥٠٠ روبية شهرياً، وأن تسحب منه الأسلحة التي سبق أن أعطي إيَّاها، وأن يُوجَّه إلى الإقامة في الزبير أو البصرة أو المحمَّرة.

٢- أن يترك حمود دون أية مضايقة في المهمة التي يقوم بها حينذاك.

٣- أن تزاد معونة ضاري من ١٠٠٠ روبية إلى ٣٠٠٠ روبية شهرياً، وأن تكون خدماته منذ ذلك الوقت تحت تصرُّف البعثة في نجد، وأن يعطى البنادق التي تسحب من سعود.

ولأنه كان من المحتمل قيام عجيمي[1] بعمل عدائي ضد خط السماوة - الخَميسية، وأن العدو كان لا يزال يعدُّ سعوداً مفيداً لنا، فإن السير بيرسي كوكس لم يكن قادراً على قبول توصياتي بالنسبة لسعود - فقرَّر أن يرجئ النظر في الأمر إلى وقت أكثر ملاءمة.

ومع ذلك فإن اقتراحاتي الأخرى لقيت قبولاً. وقبل أن تغادر البعثة البصرة قمت بمقابلات مطوَّلة مع ضاري بن طُوَالة، ورتَّبت معه، في نهاية المطاف، أن يذهب مع أتباعه إلى جوار حفر الباطن خلال شهر من تاريخه، ومن ثَمَّ يرسل مبعوثاً إليَّ، إما في الرياض أو بريدة، للحصول على ما يستجدُّ من أوامر. وبإعطائي تلك التعليمات كنت أرجو أن يكون ضاري ورجال قبيلته في مكان يسهل الوصول إليه من مكان قيادتي في حالة ما إذا تبيَّن - بعد التداول التام

---

(١) المراد به، فيما يبدو، عجمي بن سعدون آل سعدون، أحد زعماء قبيلة المنتفق. ومن المعروف أن العامة أحياناً تصغِّر الأسماء. ولعلَّ فيلبي سمعه مصغَّراً، فأورده كذلك.

مع ابن سعود - أنه من الممكن إحضارهم ليلتحقوا بأية خطة عمل عامة يمكن أن تُقرَّر فيما بعد. وفي أثناء ذلك كان عليه أن يقطع كل الاتصالات بين حائل وما يليها شرقاً، ويهاجم أية قافلة يمكن أن تحاول المرور.

ولقد حالت مجريات الأحداث بيني وبين الاتصال بضاري خلال شهور الشتاء. لكني - بعد وصولي إلى البصرة مرة أخرى في مارس عام ١٩١٨م-وجدت أن مبعوثَين منه قد وصلا إليها، يبحثان عنّي وعمَّا تأخَّر صرفه من معونته الشَهرية. وقد صحبتهما إلى مخيَّم ضاري، فوجدته قد نفَّذ أوامري بالنسبة لاستقراره مع جمع كبير من أتباعه من شمَّر في جوار آبار الحفر. ولست أدري ما إذا كان عدم ذكره لقيامه بغزو للقوافل أو الاستيلاء عليها سببه عدم وجود فرصة مناسبة للقيام بذلك، أو عدم إرادة للقيام به. ويساورني الخوف بأن عدم الإرادة هو السبب، مع أنه حتى هذا التاريخ (بداية أبريل) (١٩/ ٦/ ١٣٣٦هـ) يستحقُّ ألاَّ يشك فيه لغياب أي دليل على خيانته.

والحقيقة أن الانطباع الجيد الذي كوَّنته عن ضاري في أول لقاء معه ازداد عمقاً في إقامتي القصيرة في مخيَّمه، وخلال رحلتي إلى شَعيب الشَّوْكي، التي صحبني فيها، ووجدت أنه لم يكن أقل حباً للمال من أمثاله. لكني رأيت أن أحوِّل هذه الصفة إلى منفعة بالنسبة لنا.

وبعد أن دفعت إلى ضاري معونته المتأخرة للشهور الخمسة الماضية

وافقت على أن أدفع إليه مقدماً معونة الشهور الثلاثة المقبلة بشرط أن يتعهَّد بالبقاء في الحفر، وأن يقوم بحملات نشطة ضدَّ مخترقي الحصار. وبالإضافة إلى ذلك وزَّعت هدايا عليه وعلى مختلف رؤساء العشائر المقيمة في المخيَّم، وعلى جميع أعضاء الحرس، الذين كان يرى ضرورة مرافقتهم لي.

وعند وصولي إلى شَعيب الشَّوْكي استشرت ابن سعود في موضوع توظيف ضاري لمصلحة القضية المشتركة. ومع أنه كان يشكُّ، إلى حدٍّ ما، في صدق ولائه فإنه وافق على أن التجربة تستحق المحاولة، وأن الحفر سيكون أفضل قاعدة ينطلق منها للقيام بعملياته. وخلال الأيام القليلة التي بقي فيها ضاري في مخيَّم ابن سعود انتهزت كل فرصة للتأكيد عليه بأن استمرار معاملة الحكومة (البريطانية) الكريمة له تعتمد كلية على جهوده الخاصة من أجل قضيتنا المشتركة. وقد أطلعه ابن سعود نفسه على شيء من خططه لمهاجمة الفئات المعادية له من شمَّر في رمضان، وأنه يتوقَّع من ضاري أن يقطع خط الرجعة على العدو. وبعد أن لقي ضاري ما لقيه من كرم المعاملة، وأدرك ما أسند إليه من دور ليقوم به، عاد إلى الحفر مؤكِّداً اعترافه بالجميل وعزمه على المحافظة بكل ولاء على ما تُوصِّل إليه من ترتيبات.

وفي غضون شهر من وصول ضاري إلى الحفر ترك وظيفته، وتحرَّك إلى صفوان حيث استُقبِل بذراعين مفتوحين، ودون أي

سؤال[1]. وبعد ذلك بقليل فُصل عن إدارتي دون علمي؛ وذلك بناء على تقرير من الوكيل السياسي في الكويت يفيد بأني لم أكن على اتِّصال به. وبعد برهة وجيزة وصل إلى حائل من الزبير، أو الكويت، خمس مئة بعير محمَّلة بالبضائع وتحت حراسة ضاري. وفي حوزتي عن هذا الأمر من الأدلَّة ما لا يدع مجالاً للشك.

ولم يكن ذلك كل ما حدث؛ فعندما هجم تركي بن عبد العزيز آل سعود على شمَّر قرب آبار Ajibba [2] طبقاً للبرنامج المعدِّ انسحب العدو سالماً من النهب إلى آبار أبعد منها. وكانت آبار الحفر حينذاك محتلَّة؛ نيابة عنه، بفخذ وهب من شمَّر، الذين كانوا في عداء مع ابن سعود، ولم يبدوا معارضة للمنسحبين من إخوانهم.

ومن الواضح جداً أن ضارياً، بعد أن أدرك بأنه سيشترك في الهجوم على إخوانه الشمَّريين إذا هاجمهم ابن سعود، قد قرَّر أن ينأى عن منطقة الخطر بدون تأخير. وذنبه هذا لا يغتفر، ويدلُّ على عدم فائدة وضع أية ثقة في شمَّر، التي تشتهر بتضامنها القبلي في كل مكان من جزيرة العرب.

(١) صَفْوان: مكان معروف داخل أراضي العراق القريبة من حدودها مع الكويت. وكان اسمه سفوان بالسين، لكن السين قلبت صاداً في الأزمنة الأخيرة.

(٢) لم أعثر في المراجع، التي تناولت أمكنة تلك المنطقة على هذا الاسم. ولعلَّ المراد به قُبة، التي ينطقها العامة بهمزة قبل القاف. وكانت مورداً لشمَّر، ثم أصبحت بلدة لفئة من قبيلة حرب على رأسها عبد المحسن الفرِم.

ولست أدري على أي أساس بنى الوكيل السياسي في الكويت تقريره بأنِّي فقدت الاتِّصال بضاري، ولا أفهم لماذا سُمح لضاري أن يستقرَّ في صفوان، وسُمِح له أن يدخل أسواق الزبير والكويت مع أنه لم يظهر ما يدلُّ على أنيَ قد أذنت له بالتوجُّه إلى هناك. ومهما كان الأمر فإنَّه مع تصرُّفه الخياني الذي أفقدني الثقة به لم يجد صعوبة في كسب ثقة السلطات في البصرة. ومنذ ذلك الوقت، الذي أصبحت فيه صَفْوان قاعدة له، مضى متعاوناً مع العجمان، الذين اتخذوا من كُوَيبدة(١) قاعدة لهم تحت حماية البريطانيين، وبعيداً لذلك عن هجمات ابن سعود المباشرة، ليعمل من نفسه مصدر إزعاج لأهل نجد، حيث أصبح أخوه سَطَّام بن طُوَالة قائداً مشهوراً لعدة هجمات شمَّرية - عَجْمية ضدَّ أراضي ابن سعود خلال الشهور التالية.

وقد فشلت تقاريري عن هذا الموضوع أن تؤدِّي إلى إعادة النظر في الأوامر التي أعطيت، لكنَّها أدَّت إلى تخفيض راتب ضاري من ٣٠٠٠ روبية إلى ١٠٠٠ روبية شهرياً. وبعد عدَّة شهور أصبحت لديه صفاقة كي يكتب إليَّ محتجاً علي ذلك التخفيض، وطالباً مني التدخُّل لإلغائه، فلم أجبه. ولقد أصبح هذا الموضوع الآن ذا أهمِّية أكاديمية فقط، لكنِّي رأيته من الضروري أن أناقشه بنوع من التفصيل نظراً لتأثيره السيئ جداً على الرأي العام في نجد في وقت كانت فيه الإشاعات الكاذبة، التي تحاك بمثابرة في الكويت، تخلق شكوكاً

(١) كُوَيبدة: مكان شمال غربي بلدة الزبير العراقية.

حول الموقف النهائي للحرب كأن يقال بحرِّية إننا نخاف من اتِّخاذ عمل قويٍّ ضدَّ الأعداء المحتملين، ومستعدون لاسترضائهم بأيِّ ثمن. ومغزى ذلك واضح: إن سياسة ابن سعود في صبره الثابت على الإهانات؛ بل والهجمات، أصبحت تُنتَقد وتُعَارَض بحرِّية.

إن من المؤكَّد أن تعاملنا مع شمَّر لم يضعنا موضع التقدير لدى أهل نجد. وقد تكون الاعتبارات العسكرية قد أملت علينا هذا التعامل، لكن هذا في حدِّ ذاته اعتراف بالضعف الذي من الخطر إظهاره أمام شعب جاهل ومعاد بصفة عامة.

يقول الإمام عبد الرحمن نفسه:

«إن الحكومة البريطانية إما أنها تستطيع مساعدتنا لكنها لا تريد، أو أنها تريد مساعدتنا لكنها لا تستطيع. وفي كلتا الحالتين يجب أن نكون مهيَّئين لمساعدة أنفسنا». وقد وافقه على ما قاله المفتي الأعلى للوهابيين(١).

---

(١) لعلَّ المراد بذلك الشيخ عبد اللَّه بن عبد اللطيف آل الشيخ، الذي كان أعظم شخصية علمية دينية حينذاك. وكانت له جهود واضحة؛ علمية واجتماعية وسياسية، قبل نهاية الدولة السعودية الثانية، ثم خلال عهد الملك عبد العزيز. وقد توفِّي عام ١٣٣٩هـ. انظر عنه عبداللَّه بن عبد الرحمن البسام، **علماء نجد خلال ستة قرون**، مكة، ١٣٩٨هـ، ج١، ص ص ٧٢-٨١.

٧- فئات شمَّرية أخرى:

فصَّلت الحديث في الفصل الأخير عن ضاري بن طُوَالة، الذي جمع، مع سعود الصالح السبهان قوَّة كبيرة من فئات شمَّر، بجوار الزُبَير وصَفْوان، حيث كوَّنا خطراً قائماً لابن سعود ومصدراً محتملاً جداً لإمداد رجال قبيلتهما في حائل وما حولها. ومع ذلك فإنهما - بالنسبة لهجوم ابن سعود المخطط له ضدَّ حائل - قد حيَّدا عدداً لا يستهان به من المشايعين المحتملين لقضيَّة ابن رشيد.

أما فئات شمَّر الأخرى، مثل عَبْدة والتُّومان[١] اللتين لم يكن لي تعامل مباشر معهما، فتحتل موقعاً مشابهاً في الجهات الشمالية من بلاد ما بين النهرين - حيث تقع تحت سيطرة المُقدَّم جي. إي. ليخمان Leachman، الضابط السياسي في الصحراء[٢].

ولقد عَبَّر ابن سعود من وقت لآخر عن مخاوفه من أن تلك الفئات التي تستفيد من السماح لها بدخول أسواق العراق، تنتظر في الواقع

---

(١) عَبْدة إحدى عشائر شمَّر المشهورة. وكان أحد زعمائها؛ وهو مطلق الجَرْباء، قد انتقل من نَجد عام ١٢٠٥هـ إلى العراق. ثم استقرَّت العشيرة في منطقة الجزيرة في ذلك القطر. وأصبح لزعمائها نفوذ قوي ومكانة مرموقة. ومن أحسن الكتابات عنها وأوفاها رسالة الدكتوراه غير المنشورة، التي كتبها الباحث الأمريكي وليمسون، وترجمة عنوانها: **التاريخ السياسي لقبيلة الجرباء الشمَّرية في الجزيرة**، جامعة إنديانا، ١٩٧٥م. أما التُّومان فهم من سنجارة من شمَّر. وفي طليعة زعمائهم التمْياط. حمد الجاسر، **معجم قبائل المملكة العربية السعودية**، دار اليمامة بالرياض، ١٤٠١هـ، ج١، ص٦٢.

(٢) وضع بعد اسمه الرموز: .C.I.E انظر شرحاً لها صفحة ص ٧٣، هامش ١.

الوقت المناسب للانضمام إلى ابن رشيد بمجرَّد تطوُّر الهجوم ضدَّه. وقد وجدت من الصعب، إلى حدٍّ ما، أن أبرِّر له سياستنا حول هذا الموضوع. وبينما شرحت له الفوائد المفيدة العاجلة من تحييد ابن عجْل[1] وأتباعه من عَبْدة بالسماح لهم بدخول أسواقنا بمقدار محدود جَداً فإني حثثته على الهجوم ما داموا بعيدين أملاً في أن يكون المقدَّم ليخمان قادراً على الحدِّ من نشاطهم في حالة بدء الهجوم.

وفي الوقت نفسه كان ابن سعود يغازل سنجارة الشمَّرية بقيادة عدوان بن رمال وأخيه غضبان، اللذين أبديا استعداداً لقبول عرضه لإعطائهما ملجأ في الصحراء، بين الكويت والدهناء.

وبالجملة فإن حالة شمَّر بقيت - خلال الشهور القليلة الماضية من الفترة التي يشملها هذا التقرير - غامضة ومعقَّدة. ولم يكن أبداً ممكناً تكوين تقدير لأعداد رجال القبيلة الذين يرجّح أن يتوافدوا للدفاع عن حائل في حالة بدء هجوم ابن سعود عليها واستمراره.

وفي ظلِّ تلك الظروف فإنه من غير المجدي الآن أن يُتَنَبَّأ بما يمكن أن يحدث. وكل ما نستطيع قوله بالتأكيد هو أن ابن سعود عندما بدأ هجومه على ابن رشيد وجد أن الميدان كان خالياً من الفئات المعادية، وأن مواصلة الهجوم أصبحت غير ضرورية قبل أن يستطيع معرفة إجابة الفئات الشمَّرية في حدود العراق لدعوة ابن رشيد العامة إلى السلاح للدفاع عن معقل قبيلتهم.

(١) لعلَّ المراد به عُقَاب بن عجل. وكان قد حلَّ محلَّ سعود الصالح السبهان في مساعدة الأمير سعود بن رشيد على تدبير شؤون الإمارة.

٨- العلاقات بين نجد والكويت:

لقد سبق أن ذكرت بأن المقدَّم هاملتون، الوكيل السياسي في الكويت، كان في الرياض لمدة ثلاثة أسابيع قبل وصول البعثة إليها. وكان قد غادر الكويت أوائل أكتوبر تعقُّباً لقافلة شمَّرية كبيرة حصلت على إمدادات، وتوجَّهت إلى حائل خلال غيابه المؤقَّت في بغداد. وقد هربت القافلة، ومضى المقدَّم هاملتون إلى القصيم - حيث كان نجل ابن سعود الأكبر، تركي، البالغ من العمر ١٩ عاماً،(١) يجمع القوات النجدية لغزو جبل شمّر- ومن ثم سافر إلى الرياض.

وبعد وصول البعثة إلى الرياض أتيحت لي عدة فرص لأناقش مع المقدَّم هاملتون كل المسائل التي تكوِّن جوهر الخلاف بين ابن سعود وشيخ الكويت سالم بن صباح(٢). واستجابة لطلبي بقي في الرياض ليعطي البعثة ما تستفيد به من تجربته ونصائحه حتى تُوصِّل إلى حلٍّ مؤكَّد للصعوبات القائمة بين الحاكمين. ثم غادر الرياض عائداً إلى الكويت في السادس من ديسمبر.

---

(١) ولد الأمير تركي بن عبد العزيز عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م، كما أرشدني إلى ذلك مشكوراً الأمير سلمان بن عبد العزيز. وقد اتَّصف بالشجاعة والإقدام. وتوفِّي بالوباء الذي حلَّ في البلاد سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م؛ وهي السنة التي عُرفت عند كثير من أهل نجد بسنة الرحمة.

(٢) أحد أبناء الشيخ مبارك بن صباح. تولَّى حكم الكويت بعد وفاة أخيه، جابر، سنة ١٣٣٥هـ. وكان متديِّنا شجاعاً. أما علاقاته بالملك عبد العزيز فكانت في جملتها، متوتِّرة. بل إنها تدهورت إلى حدِّ المجابهة العسكرية بينه وبين أتباع الملك. وقد توفي سنة ١٣٣٩هـ، فخلفه في الحكم ابن أخيه، أحمد الجابر، الذي كانت علاقاته بالملك عبد العزيز ودِّية.

ولقد اتَّضح، منذ البداية، أن واحدة من تلك المشاكل؛ وهي مشكلة العجمان، كانت لها الأهمِّية الأولى، وأن البعثة - على المستويين العسكري والسياسي - لا تأمل في نجاح مهمَّتها الرئيسية في جعل ابن سعود يتعهَّد بالقيام بعمليات عسكرية جادة ضد ابن رشيد وجبل شمَّر ما لم تنته هذه المشكلة بشكل يرضيه. وفي الوقت نفسه كان من الممكن أن يقال - من خلال مداولاتنا الطويلة المكثَّفة معه -: إنه كان مستعداً أن يقابلنا في منتصف الطريق؛ بل أكثر، لحلِّ المسائل الصغرى، مثل إقامة حصار فعَّال ضدَّ حائل، وتزكية العوازم، إذا استطعنا حلَّ المشكلة الكبرى بما يرضيه. وكان هذا أيسر لنا على أساس أن الاعتبارات العسكرية وحدها تجعل من الضروري إزاحة قبيلة العجمان، التي يفترض أن عداءها لابن سعود أشدّ ضراوة وتصلُّباً من عدائه لها، من موقعها الذي يمكن أن يجعلها قادرة على تهديد جناح قواته، أو اتِّصالاته في حالة تجهيزاته للحرب ضدَّ حائل.

وقبل الاستمرار في مناقشة تلك المشكلات المختلفة فإنه ليس مما يخرج عن النطاق محاولة إعطاء موجز للعلاقات بين أسرتي ابن سعود وابن صباح حتى الآن.

خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر عندما خضعت الأراضي الوهابية لحكم ابن رشيد أقام بقية أفراد الأسرة السعودية الحاكمة لاجئين في أجزاء مختلفة من ساحل الخليج. وقد حاول

عبدالرحمن - الابن الأصغر لفيصل بن سعود العظيم[١]، أن يقيم حكماً في أرض آبائه، لكنه لم ينجح. فطلب اللجوء إلى الكويت، ومُنِح إياه بكل استعداد[٢]. وعاش هناك مع أسرته؛ خاصة أبناءه الشباب، تحت حماية محمد بن صباح، ثم أخيه مبارك؛ منتظراً حظاً سعيداً من المؤكَّد مجيئه. وقد وصل مبارك إلى الحكم بعد قتله لأخيه[٣]. وسرعان ما اعترف به قوَّة لابد أن يفكِّر بها في الجزيرة العربية. وكان سياسياً ودبلوماسياً ماهراً؛ مساوياً لسعدون العظيم[٤]، وأقلَّ قوَّة فقط من محمد بن رشيد، الذي كان حينذاك حاكماً لكل وسط جزيرة العرب. ورأى مبارك، بسياسته الحكيمة، في أسرة آل سعود اللاجئة لديه مصدراً متوقَّعاً لزيادة قوَّته في سباقه مع منافسيه؛ خاصة ابن رشيد.

---

(١) المراد بفيصل بن سعود الإمام فيصل بن تركي، الذي كان من أعظم قادة الدولة السعودية الثانية. وهو فيصل بن تركي بن عبد اللَّه بن محمد بن سعود.

(٢) عن ظروف السماح لعبد الرحمن بن فيصل وأسرته في الإقامة بالكويت انظر العثيمين، **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٣١-٣٥.

(٣) قتل مبارك أخويه محمداً وجرَّاحاً سنة ١٣١٣هـ نتيجة خلاف مرير بينه وبينهما. وتولَّى حكم الكويت، وأصبح له من الصيت الشيء الكبير. وقد توفي عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م.

(٤) المراد به سعدون بن منصور آل سعدون، زعيم قبيلة المنتفق، الذي ولد عام ١٢٧٤هـ. وكان له نشاط كبير في جنوب العراق وشمال شرقي الجزيرة العربية. خاض عدة معارك مع كثيرين. وقُبض عليه، فأُرسِل إلى حلب حيث بدأت محاكمته، لكنه توفي خلال المحاكمة؛ وذلك سنة ١٣٣٠هـ. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط٦، بيروت ١٩٨٤م، ج٣، ص ٨٩.

ومع بداية القرن الحالي؛ أي سنة ١٩٠١م، تحالف مبارك مع سعدون، ثم انطلق مصحوباً بقوة نجدية بقيادة الإمام عبد الرحمن بن سعود لمحاربة عبد العزيز بن رشيد[١]، الذي وصل إلى الحكم حديثاً بعد موت محمد العظيم. وفي الوقت نفسه انطلق عبد العزيز بن سعود، الحاكم الحالي لنجد، بقوَّة من ١٥٠٠ رجل لمحاصرة الرياض.

وقد خيَّم مبارك وحلفاؤه في الطُّرْفية في حين خيَّمت شمَّر في الصَّريف[٢]: وكانت معركة الصَّريف، التي سميت بذلك رغم وقوعها في الطُّرفية، من المعارك الحاسمة في تاريخ البدو. وبعد قتال دام هُزِمَ مبارك، وهرب مع فلول قوته. أما عبد العزيز فرفع الحصار عن الرياض بسرعة، وانطلق عائداً إلى الكويت[٣]. لكن عبد العزيز بن رشيد قرَّر مصيره بنفسه بسوء استعماله لانتصاره. ذلك أنه أعقبه بانتقام شديد من أهل مدن سدير وقراها وغيرها من أجزاء نجد[٤].

(١) هو عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد. تولَّى الإمارة بعد وفاة عمِّه محمد سنة ١٣١٥هـ. وكان من أعظم فرسان زمانه، لكنه لم يكن سياسياً ماهراً مثله. نازل الملك عبدالعزيز في عدد من المعارك كانت أخراها معركة روضة مهنَّا، التي قُتِل فيها؛ وذلك سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م.

(٢) الأصح أن يقال: في حين خيّم ابن رشيد وأتباعه؛ لأن هؤلاء الأتباع من شمّر وغيرها.

(٣) كُتِبَت عن هذه الحوادث كتابات كثيرة؛ منها ما كتبه المؤرخ العالم خير الدين الزركلي في كتابه **شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز**، ط٣، بيروت ١٩٨٥م، ج١، ص ٧٥-٧٦، وما دوَّنه كاتب هذه السطور في كتابه **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ٣٧-٤١.

(٤) الواقع أن العبء الأكبر من انتقامه وقع على أهل الرياض وأهل القصيم. ولقد فرض على عدد من كبار رجالات بريدة وعنيزة، بالذات، مبالغ مالية طائلة.

وفي السنة التالية استردَّ عبد العزيز بن سعود الرياض بخمسة عشر رجلاً من أتباعه فقط؛ وذلك في انقلاب جسور[١]. وبعد ذلك بسنوات قلائل استعيدت المناطق الوهابية حتى حدودها القديمة[٢].

وقد لقي عبد العزيز بن رشيد نهايته في معركة مع ابن سعود في روضة مهنَّا سنة ١٩٠٨م[٣]. وانقلب ميزان القوة بين ابن رشيد وابن سعود في وسط الجزيرة العربية.

ولم يكن تغيُّر الحظ المفاجئ، والإقامة السريعة النشطة لحكومة مستقرة في نجد على يد حاكمها الشاب، من الأمور السارة تماماً لمبارك، الذي أمل بدون شك أن يزيد قوَّته هو بتحطيم قوة ابن رشيد. لكن الواقع أثبت أنه قد أضيف عنصر رابع إلى العناصر العربية الثلاثة في الجزيرة، وهذا العنصر الرابع سرعان ما أظهر أنه لا يقلُّ قوة وثباتاً عن أيٍ من منافسيه.

وعلى أية حال فإن المظهر الخارجي للصداقة بين نجد والكويت بقي

---

(١) الذين وصلوا مع الملك عبد العزيز إلى الرياض كانوا - على الأرجح - ستين رجلاً. وقد تكلَّم عن هذه الحادثة، التي هي بمثابة الخطوة الأولى لتوحيد المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز، عدد كبير من الكتاب. ومن هؤلاء الزركلي، ج١، ص ٨٧-١٠٠، وكاتب هذه السطور، **معارك الملك عبد العزيز**. . ، ص ص ٣٧-٥٥.

(٢) هذا الكلام غير دقيق. صحيح أن الملك عبد العزيز وحَّد أقاليم نجد - باستثناء جبل شمَّر - تحت قيادته خلال ثلاث سنوات. لكن الدولة السعودية الأولى بالذات وحَّدت من مناطق جزيرة العرب ما هو أوسع مما وصلت إليه الدولة السعودية الحالية: **المملكة العربية السعودية**.

(٣) كان مقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد في روضة مهنَّا سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

محافظاً عليه خلال حياة مبارك. وقد ذكر لي ابن سعود عدة مناسبات طلب فيها مشورة مبارك ليستفيد من تجربته الناضجة؛ خاصة فيما يجب أن يتبعه من سياسة تجاه الحكومتين البريطانية والتركية، كما أخبرني - للتاريخ فقط ودون شعور بالعداء - بمحاولات مبارك، أحياناً، أن يجتذب إليه ولاء القبائل النجدية بحيل سياسية كان فيها سيداً سبَّاقاً.

ولما خلف جابر أباه مباركاً بقيت العلاقات بين نجد والكويت على ما كانت عليه في السابق. وكانت علاقة كل من ابن سعود وجابر ببريطانيا ثابتة. وهذا عامل إضافي لإبقاء العلاقات الحسنة بينهما. لكن كان من المعلوم أن سالماً، أخا جابر وولي عهده في المشيخة، لم يكن معادياً لحاكم الكويت الجديد فحسب لكن كان لديه أيضاً ميل إلى الأتراك. وقد دفعته محافظته على المذهب السُّنِّي إلى أن يرى ابن سعود والوهابية عدوَّين له(١).

---

(١) لا غرابة أن يكتب فيلبي ذلك وهو في المرحلة الأولى من مراحل معرفته بالبلاد السعودية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، التي قام على أساسها الحكم السعودي. ومعلوم أن ذلك الشيخ وأتباعه من أكثر الناس تمسُّكاً بمذهب أهل السنة والجماعة في أصول الدين، وأنهم يتبعون المذهب الحنبلي في الفروع، أو الفقه، وإن كانوا لا يتعصَّبون له إذا اتضح لهم أن الدليل من القرآن أو السنة لا يؤيِّد هذا المذهب في مسألة من المسائل.

ووصف الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه بالوهابية وصف أطلقه في بداية الأمر خصومهم؛ محاولة منهم لتنفير العامة عن دعوته المباركة. ثم تلقَّاها الأوربيون وغيرهم فأطلقوها لقباً عليهم، وإن كان بعض هؤلاء منصفين في عرضهم للخطوط العريضة لتلك الدعوة. ولهذا لم يكن غريباً أن يستعمل هذا الوصف فيلبي نفسه. وقد رؤي عدم تغييره؛ تمسُّكاً بالنص الذي ورد فيه، وترجيحاً بأن القارئ الكريم لا تخفى عليه حقيقة الدعوة التي نادى بها ذلك الشيخ.

ولذلك كانت لحظة سيئة لكل المعنيِّين عندما توفي جابر فجأة وخلفه سالم في حكم الكويت. والواقع أن هذا الأخير قد اعترف صراحة بولائه لبريطانيا، وأعلن عزمه الأكيد على العمل من أجل القضية المشتركة، لكن تصرُّفه منذ البداية كان مخالفاً لما أعلنه واعترف به.

وكانت الكويت دائمًا، إلى درجة لا يمكن تفاديها، ملاذاً لتهريب البضائع إلى أمكنة العدو. وقد أصبحت بسرعة واضحة مصدراً رئيسياً لحصول العدوِّ على الإمدادات. ويجب أن يُعترف بأن كلَّ الاحتمالات تدلُّ على أن كثيراً من الأشياء المصدَّرة المارَّة عبر القصيم إلى حائل مصلحتها لتجار الإقليم الأول. وقد قابل الشيخ سالم احتجاجات السلطات البريطانية بإجابة جاهزة؛ وهي أن ابن سعود - وليس هو - المسؤول عن الأوضاع المؤسفة في حين أن ممثِّلي ابن سعود يجيبون بأنه لابد من إيقاف الشرِّ عند مصدره؛ أي الكويت.

وهكذا فإن اصطدام المصالح السياسية - وغني عن القول المالية - هو الذي أوقد النار التي مهَّدت لها الكراهية الدينية. فتحوَّلت الصداقة التقليدية بين آل سعود وآل صباح إلى عداوة وإن تكن خفيَّة تحت رداء أوامر قوة أعظم منهما وحليفة لهما.

وسرعان ما أدَّت الاتِّهامات المتبادلة حول الحصار إلى تصرُّفات من عداوة سياسية غير معلنة. وقد لقيت قبيلة العجمان الهاربة من انتقام ابن سعود ما بحثت عنه من ملجأ في أراضي الكويت قبل مجيء

سالم إلى المشيخة، بترتيب من الحكومة البريطانية وتفاهم مع ابن سعود وجابر وفق شرط جوهري؛ وهو أن القبيلة يجب أن تكون مؤدَّبة، وألاَّ يُسَمح لمن لجأ من قادتها إلى حائل أو عجيمي بن سعدون بدخول الأراضي الكويتية.

وعلى أية حال فإن سالماً، الذي رأى هذه المشكلة وسيلة لإيذاء ابن سعود، أظهر مباهاة لا ضرورة لها بحماية القبيلة والترحيب بعودة القادة المشار إليهم سابقاً. وردَّ ابن سعود على ذلك بأخذ الزكاة من قبيلة العوازم، التي يدَّعي سالم أنها تابعة له وحده؛ وذلك عندما عبرت حدوده بحثاً عن المرعى.

وباختصار فإن العلاقات بين حليفينا كانت، عند وصول البعثة إلى الرياض، متوتِّرة تقريباً بدلاً من كونها حسنة. وكان سالم في وضع أقوى، إلى حدٍّ ما، في تلك الفترة بالذات بسبب معارضة السلطات البريطانية الطبيعية لزيادة عدد أعدائها؛ وذلك بإصرارها على معارضة إجلاء العجمان من الأراضي الكويتية إلى ملاذهم الممكن الوحيد وهو الأراضي التابعة للعدو في حائل، والصحراء الممتدة بينها وبين بلاد ما بين النهرين.

٩- مشكلة العجمان:

لكي يُفْهَم جيداً موقف ابن سعود من قبيلة العجمان وما تعنيه مشكلتها بالنسبة لسياسة نجد فإن من الضروري العودة إلى الستينات والسبعينات من القرن الماضي، عندما تلا موت فيصل بن سعود صراع طويل على العرش بين ابنيه الكبيرين، عبد الله وسعود. ذلك الصراع الذي لم تكن عاقبته كارثة فقط لسعود الذي سقط في المعركة[١]؛ بل كارثة، أيضاً، على الحكم السعودي ذاته، الذي اضطرَّ بقية أفراده إلى العيش في المنفى عندما اغتصب أراضيهم محمد ابن رشيد الحامي الاسمي، والسيد الحقيقي لعبد اللَّه[٢].

وقد سجَّل بالجريف الانطباع الذي توصل إليه خلال زيارته للرياض، سنة ١٨٦٢م(١٢٨٠هـ)، وهو وجود كراهية ظاهرة تفرِّق بين الأخوين وفيصل ما زال حياً. وخلف عبد اللَّه، الابن الأكبر، أباه في الحكم، لكن سعوداً لم يلبث طويلاً حتى رفع علم الثورة. وسرعان ما جذبت شخصيته الأكثر بهجة من شخصية أخيه كثيراً من

---

(١) من الثابت تاريخياً أن سعوداً لم يقتل في معركة؛ بل توفي وفاة طبيعية في الرياض عام ١٢٩١هـ.

(٢) في العبارة عدم دقة. صحيح أن الأمير محمد بن رشيد استولى على الرياض أول مرَّة بحجة مساعدة الإمام عبد الله بن فيصل، الذي ثار عليه أبناء أخيه سعود وسجنوه. لكن ذلك الإمام لم يكن تابعاً لابن رشيد أبداً.

الأتباع لبُّهم وأهمُّهم من قبيلة العجمان التي منها أمه[1].

وليس من الضروري، هنا، تتبُّع تقلُّبات الحظ في ذلك الصراع بين الأخوين، والذي لم ينته - كما ذكر سابقاً - قبل أن ينجح سعود في انتزاع العرش من عبد اللّه ويتمتع به فترة قصيرة. ولهذا أهمِّية يُعوَّل عليها في سياسات نجد على أساس أن اعتلاء العرش المؤقت من قبل الأجداد لا يقلُّ أهمِّية عن حقيقة أن الفرع الذي يحكم من آل سعود هو فرع الحكم الأعلى الذي لا يزال حياً. وبما أن عبد اللّه توفي ولم يعقِّب أبناء، فإن ذرية سعود يدَّعون أنهم أصحاب الحق في حكم نجد. وقد أكَّدوا هذا الادعاء واقعياً بثورتهم المعلنة غير الناجحة ضد الحاكم الحالي أكثر من مرة.

والذين يطالبون دائماً بالحكم هم أفراد من فرع سعود، الذين يفتخرون بانتمائهم المتَّصل بالعجمان من قبَل أمهم. وهذه حقيقة تجعلهم قادرين على الاعتماد على المساعدة المخلصة من هذه القبيلة المحاربة الصلبة في كل مخاطرة يقومون بها ضد الفرع الحاكم الحالي، الذي يستند في الحكم على أساس أنه هو الذي استردَّ حكم الأسرة

---

(١) أم سعود من بني خالد، كما أرشدني إلى ذلك مشكوراً الأمير سلمان بن عبد العزيز. ولعلَّ من الأسباب المهمَّة لوقوف العجمان بالذات مع سعود ضد أخيه عبد الله ما أوقعه هذا الأخير بهم من خسائر فادحة في المعركتين اللتين خاضهما ضدَّهم سنتي ١٢٧٦هـ و١٢٧٧هـ قرب الجهراء. ومن الكتابات التي تناولت هاتين المعركتين الأخوين والخلاف بين الأخوين ما دوَّنه كاتب هذه السطور في **تاريخ المملكة**، ج١، ص ص ٢٦٩-٢٧١، ٢٨٧-٢٩٩.

من المغتصب الأجنبي أكثر من اعتماده على علوّ الدرجة في سلسلة النسب. فعبد الرحمن، أبو الحاكم الحالي، هو الرابع من أبناء فيصل[1].

وكانت أخطر محاولة للمدَّعين بأحقِّيتهم في الحكم للوصول إليه تلك التي حدثت حوالى سنة ١٩١٠م (١٣٢٨هـ). وقد تعامل ابن سعود، الذي كان محاطاً حينذاك بالأعداء، مع تلك المحاولة البالغة الدقة والحساسية بأسلوب غاية في المهارة. فغني عن القول أنه كان حينذاك في حرب مع ابن رشيد، الذي نجح في دعوته شريف مكة إلى التعاون معه. وتقدَّم الشريف إلى مرتفعات القُوَيعيَّة[2]. ففاجأ قوة وهابية صغيرة بقيادة سعد، أخي ابن سعود، وأخذه رهينة قبل أن يأتي هذا الأخير لإنقاذه. وفي الوقت نفسه هدَّد ابن رشيد القصيم في الشمال. وبعد هذا بقليل وصلت الأخبار بأن الأقاليم الجنوبية أعلنت الوقوف مع العرائف[3] المطالبين بالحكم، الذين ظنُّوا أن الفرصة المناسبة لتحرُّكهم قد حانت.

(١) لعلَّ مما تجدر الإشارة إليه أن الإمام عبد الرحمن بن فيصل كان آخر حكام الدولة السعودية الثانية، وأن الملك عبد العزيز، الذي استعاد الحكم السعودي، في درجة آباء من نازعوه من آل سعود بالنسبة للإمام فيصل بن تركي. فهو حفيد هذا الإمام مباشرة. أما هم فأبناء أحفاده.

(٢) القُوَيعيَّة: قاعدة العرْض. تقع غرب الرياض باتجاه الحجاز.

(٣) علَّق فيلبي في هامش تقريره على هذه الكلمة تعليقاً غير دقيق. ويسمَّى نسل الإمام سعود بن فيصل بأحفاد سعود. أما سعود بن عبد العزيز بن سعود بن فيصل فيلقَّب بسعود الكبير.

ولضعف موقف ابن سعود أمام الشريف بسبب أن الأخير قد أبقى أخاه المفضل سعداً رهينة لديه رضخ للشروط المجحفة. ولما حصل على إطلاق سراح أخيه انطلق لملاقاة ابن رشيد، لكن المفاوضات بينهما مرَّة أخرى أدَّت إلى هدنة، وأراحت ابن سعود من كل الأخطار الراهنة، وجعلته حراً ليقوم بحملة قصيرة في الأقاليم الجنوبية، حيث هزم المطالبين (بالحكم من أبناء عمه)، وانتقم بشدة من البلدان التي ساعدتهم[1].

ومرَّة أخرى قابل ابن سعود ابن رشيد في بداية عام ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) في معركة جُرَاب. وكان في صحبته النقيب شكسبير، كما كان يتصرَّف بصفته حليفاً لنا. وطبقاً لما قاله فإن العجمان انسحبوا من المعركة في وقت كان استمرار مساعدتهم له خلاله يمكن جداً أن يؤدِّي إلى نصر حاسم له. وكان انسحابهم هو الذي جعله ينسحب، أيضاً، وجعل ابن رشيد يحظى بالصيت العالي، رغم أنه عجز عن أن يستفيد منه[2].

وهذا يقودنا إلى الفصل الأخير في مأساة العجمان، الذي قامت به سنة ١٩١٦م في الأحساء، عندما قاد ابن سعود قوَّاته لينتقم لنفسه من القبيلة لانسحابها عنه في جُرَاب ولتصرُّفاتها العدائية الأخرى. ولأن

(١) عن تفصيلات الحوادث المتَّصلة بغزو الشريف وموقف أحفاد الإمام سعود بن فيصل يمكن الرجوع إلى ما دوَّنه كاتب هذه السطور في **تاريخ المملكة**، ج٢، ص ص ١٢٤ - ١٣١.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه المعركة يمكن الرجوع إلى ما دوَّنه كاتب هذه السطور في **معارك الملك عبد العزيز...**، ص ص ١٥١ - ١٥٨.

العجمان قد وجدوا أنفسهم أمام من يفوقونهم عدداً فإنهم طلبو الهدنة. ووافق ابن سعود، تكرُّماً منه، على ذلك بشرط أن يتقابل الفريقان المتخاصمان في صباح اليوم التالي لعمل الترتيبات لسلام دائم. وكان أخوه سعد غائباً عندما وافق على الهدنة. ولمَّا رجع ذلك المساء شعر بالخزي لإنهاء الخصومة بين الطرفين. ولغضبه من لين أخيه اقترح خطة لهجوم مفاجئ على رجال القبيلة الذين لم يكونوا متوقعين لمثل ذلك الهجوم. وأذعن ابن سعود، في لحظة ضعف، لإلحاح أخيه الشديد.

وقاتل العجمان، الذين فوجئوا بهجوم من يفوقهم عدداً، كالوحوش الضارية دفاعاً عن أنفسهم. ولم ينتج عن ردِّهم الهجوم هزيمة أحسن جنود ابن سعود فحسب؛ بل إن سعداً قُتل، كما جُرِح ابن سعود نفسه(١). ولم يضع رجال القبيلة المنتصرون وقتاً في البحث داخل حدود الأراضي الكويتية عن ملاذ من الانتقام، الذي كان من المؤكَّد أن يُحاوَل ضدَّهم.

وهكذا كان. لكن ما من شك في أن العجمان، الذين بدوا حتى الحادثة الأخيرة هم المجرمين في المسرحية، كان لهم الحق في نهاية الرواية، وأن سعداً باقتراحه التصرُّف السيئ استحقَّ المصير الذي لقيه.

وبالرغم من ذلك فقد كان من غير المتوقَّع أن يقبل ابن سعود الفصل الأخير من حظِّه على أنه نهائي، ولا كانت لديه هو أية نيَّة لذلك، إذا

(١) لمزيد من التفصيل انظر المرجع نفسه، ص ١٦٠ - ١٦٤.

حكم المرء من خلال الطريقة التي عرض بها أطفال أخيه المحبوب اليتامى أمام أعين الجمهور، وإلقائه خطبة مثيرة عن ضرورة الثأر لا لما حدث لهم وله فحسب؛ بل لشرف أسرته؛ متجاهلاً - بذلك الضعف الرقيق في المنطق الذي هو من الصفات المميِّزة للعربي البدوي - الاعتبار الأساسي في أن المسؤولية الكاملة للمأساة لا تقع إلا على كاهله.

وعلى أية حال فإن وصول العجمان؛ لاجئين من غضب ابن سعود، إلى داخل حدود الأراضي الكويتية كان أمراً خطيراً لم تستطع السلطات البريطانية أن تتجاهله. فقبول المتمرِّدين غير المشروط؛ مستفيدين بالحماية البريطانية، لا يمكن إلا أن يؤثِّر في علاقتنا بحليف عربي مهمّ، في حين يتطلَّب العدل العام والعادات العربية أن يُعطَى المتضرِّعون حماية، مهما كانت مؤقَّتة، خلال دراسة وقائع المسألة والمصالح المتَّصلة بها.

وبناء على ذلك ناقش السير بيرسي كوكس تلك المشكلة مع ابن سعود والشيخ سالم في احتفال الكويت في نوفمبر سنة ١٩١٦م. وبالنظر إلى المصالح الأكثر أهمية، التي تضمَّنها التحالف المصادق عليه حديثاً بين الحكام العرب والحكومة البريطانية من أجل عمل نشط في الحرب ضد العدو المشترك، فقد تمَّ التوصُّل إلى تسوية وافق عليها جميع الأطراف. وبموجبها تعهَّد ابن سعود ألاَّ يضايق العجمان في مواطنهم الجديدة بشرط أن يوقفوا بدورهم التحرُّش بقبائل نجد ويمتنعوا عن التعامل مع الفئات التي وضعت نفسها تحت حماية العدو.

وكان هناك عزم على أن يستمر ذلك الاتفاق ساري المفعول حتى نهاية الحرب، كما كان مؤملاً أن يرضى العجمان بالأمان الذي حصلوا عليه تحت حماية الحكومة البريطانية، ويحافظوا من جانبهم بأمانة على الشروط التي وضعت عليهم.

وعلى أية حال فإن عدم الاستقرار الفطري للشخصية العربية سرعان ما جعل الآمال التي تضمَّنها الاتِّفاق تضيع هباء. فقد أعلن ابن سعود - ومن المستحيل تقرير مدى صحة ذلك - أنه قد ترك حركته التي خطَّط أن يقوم بها ضد القوات الشمَّرية خلال صيف عام ١٩١٧م بسبب حركة العجمان المفاجئة، التي هدَّدت جناح قوَّاته. ولا شكَّ أن العجمان قد تحرَّكوا في الاتجاه الذي ذكره ابن سعود، وإن كان لا يوجد داعٍ لافتراض أن تصرُّفهم كان وراءه أي دافع سوى ضرورة البحث عن مراعٍ جديدة لحيواناتهم وماشيتهم. على أن حركتهم مثَّلت خرقاً لاتِّفاق نوفمبر سنة ١٩١٦م (محرَّم ١٣٣٥هـ). وإذا كان ابن سعود، في ذلك الوقت، قد قرَّر الهجوم على شمَّر فإن تصرُّف العجمان كان كافياً، من الوجهة العسكرية وحدها، لأن يجعله يتوقَّف. ثم إن فشل سالم في التأكيد على ضيوفه بأن يحافظوا على الاتِّفاق جعل الحكومة البريطانية متَّهمة بنقض العهد.

ولم يضع ابن سعود الفرصة في تقديم شكوى حول الطريقة التي اتَّبعها الموقِّعون على الاتِّفاق سواه. ثم بدت له فرصة أخرى ليلة مغادرة البعثة العراق؛ وذلك عندما وصل إلى الكويت ضيدان بن حثلين، أحد شيوخ العجمان الذين أشير إليهم في الاتِّفاق.

صحيح أن السير بيرسي كوكس قد استجاب لالتماس ضيدان حق اللجوء بشرط ألاَّ يتمَّ إلا بإبراز رسالة تزكية له من ابن سعود، لكن ضيدان وأتباعه استقرُّوا في الأراضي الكويتية بدون مثل تلك الرسالة، وبموافقة شيخ الكويت. وقد تُرِك للبعثة لترى ما يمكن التوصل إليه من ترتيبات بالتشاور مع ابن سعود.

وهكذا وجدت البعثة عند وصولها إلى الرياض أن لدى ابن سعود حجة دامغة. ذلك أنه كان قادراً على أن يشير إلى حادثتين نُقض فيهما اتِّفاق صادقت عليه الحكومة البريطانية لكنها لم تبذل أي جهد لتنفيذه في حين أنه هو قد حافظ عليه بشدة؛ روحاً ونصاً. وبالإضافة إلى ذلك فإن البعثة، التي كان هدفها الرئيسي حثُّ ابن سعود على هجوم نشط ضدَّ العدو، لا يمكن أن تتجاهل الأثر المحتمل لأي وجود نشط أو غير نشط لقوة كبيرة معادية بالقرب من جناح جيشه أو مؤخرته. وقرَّرنا- للاعتبارات العسكرية وحدها- أن ابن سعود لا يمكن أن يتحرَّك ما دام العجمان موجودين في الأراضي الكويتية. وعلى أساس أقل قبولاً، من الوجهة السياسية، اعتقدنا أنه من المستحسن أن نرضي ابن سعود على حساب قبيلة لم تطالب، وليس لها حق المطالبة، باعتباراتنا الودِّية عندما تَعد مثل هذه الترضية بنتائج جوهرية في الاتِّجاهات الأخرى. وبالرغم من ذلك فإننا بعد أن قرَّرنا، على أسس أخلاقية وسياسية، أن يرحل العجمان من الأراضي الكويتية يجب أن نبذل أقصى جهودنا مع ابن سعود لنحصل لهم على أفضل الشروط الممكنة. ومن هنا بيَّنا له أنه من غير الحكمة، من الوجهة العسكرية وحدها، أن نزيد عدد أعدائنا النشطين إذا كان هذا من

الممكن تفاديه بضمان حياد أولئك الذين لا يستطيعون أن يكونوا أصدقاء لنا، ولا رغبة لديهم في أن يكونوا أعداء لنا.

وقبل بهذا ابن سعود بعد نقاش طويل. وأخيراً تقرَّر أن العجمان يجب أن يُتْرَكوا ليختاروا واحداً من الخيارات الآتية التي تهدف إلى أمرين مزدوجين: إزاحتهم من الأراضي الكويتية، وإزالة واحد من المصادر المحتملة للانقسام بين ابن سعود وابن صباح. وهذه الخيارات هي:

١- أن تتحرَّك القبيلة كلُّها باتِّجاه الشمال، وتلتحق بحليفنا فهد بن هَذَّال، رئيس العمارات من عنزة، ثم تظهر حسن نواياها تجاه قضية المتحالفين، بالعمل معه أو البقاء طواعية على الحياد.

٢- أن يأتي شيوخ القبيلة، ويعترفوا بتبعيتهم رسمياً لابن سعود، الذي تعهَّد بالعفو عن أخطائهم السابقة، بشرط بقائهم مسالمين في المنطقة التي يحددها.

٣- إذا رفضوا الخيارين السابقين فيجب أن ينزحوا فوراً من أية أرض كويتية أو بريطانية، بحيث يمكن التعامل معهم أينما وجدوا بعد ذلك على أنهم أعداء.

وقد أرسلت هذا الترتيب في برقية رقمها إم - ٤، مؤرَّخة في الثاني من ديسمبر عام ١٩١٧م (١٧/ ٢/ ١٣٣٦هـ)، وأخبرت السير بيرسي

كوكس، في الوقت نفسه، أن العقيد هاملتون[1]، بناء على استحسانه، سيخبر القبيلة بالشروط التي فرضت عليها بعد وصوله إلى الكويت.

ولست متأكِّداً تماماً من نتائج تعامل العقيد هاملتون مع قادة القبيلة. لكن الملاحظات التي كتبها عن القبيلة، في سبتمبر سنة ١٩١٨م، النقيب لي. جي. لوك Loch، الوكيل السياسي في الكويت حينذاك، توضِّح أن مناقشاته مع أولئك الشيوخ فشلت، وأن محاولة أخرى للعثور على حلٍّ للمشكلة قد عملت في فبراير عام ١٩١٨م عندما تُوُصِّل إلى اتِّفاق وقعه كل من العقيد هاملتون والشيخ سالم وضيدان بن حثلين، قائد العجمان المشار إليه سابقاً. وبموجبه أعطيت القبيلة ملجأ بجوار الزبير وفق الشروط الآتية:

١- أن القبيلة كلها يجب أن تستقرَّ ضمن الأراضي المحدَّدة لها: الزبير أو أي مكان آخر يُعيَّن لها.

٢- أن القبيلة يجب ألاَّ تدخل مرَّة أخرى، بأية حال، حدود الأراضي الكويتية. وبالإضافة إلي ذلك - بالرغم من أنه لم يشترط صراحة في الاتِّفاق - فقد كان من الواضح أنه قد أُلزم العجمان، ضمن تلك الشروط، أن يمتنعوا عن أي إزعاج لأراضي ابن سعود أو قبائله. والواقع أنهم لا يستطيعون الغزو داخل نجد دون عبور الأراضي الكويتية. وهذا يتعارض مع الشرط الثاني من الشروط المذكورة سابقاً.

وهكذا دخلت الحكومة البريطانية مرة أخرى في اتِّفاق مع قبيلة

(١) سبق أن ذكر فيلبي في عدة مواضع هاملتون برتبة مقدَّم. لكنه هنا ذكره برتبة عقيد.

العجمان، ومنذ البداية بدت الترتيبات محكوماً عليها بالفشل.

أولاً: بعد توقيع الاتِّفاق لم يظهر العجمان أنفسهم بمظهر من هو في عجلة من أمره للتمشِّي مع الشرط المتمثِّل في استقرارهم حول الزبير، ولم يقم الشيخ سالم بجهود جادة لإجبارهم أو استعجالهم بالرحيل من الأراضي الكويتية. وقد قام ابن سعود بشكاوى متعدِّدة تجاه استمرار وجودهم في الكويت، كما قمت بإرسال إيضاحات إلى الوكيل السياسي هناك.

ومع مرور الوقت قامت قبيلة العجمان بنوع من الرحيل عن الأراضي الكويتية. لكنها، على أية حال، لم تكد تصل إلى مستقرِّها في موطنها الجديد قرب الزبير حتى راحت تجعل من أراضي الكويت منطلقاً لسلسلة من غزوات داخل نجد؛ وذلك في أوقات متقطِّعة خلال شهور الصيف. وكانت الغزوات الأولى ضد مخيَّمات سُبَيْع في الأحساء، وضد مخيَّمات مُطَيْر. وقرب نهاية الفترة التي يتناولها هذا التقرير بدأ الغزاة يصلون إلى أمكنة أكثر بعداً، كحفر العَتْك ومبايض وأمكنة أخرى غير بعيدة من عاصمة ابن سعود ذاتها[1].

ومن غير الضروري أن أتناول بالتفصيل تلك الغزوات التي لم تلق إلا قليلاً من النجاح الحقيقي، وأثارت غزوات مضادة من مُطَيْر وسُبَيْع وفئات أخرى، حتى أصبحت منطقة الصُمَّان كلها[2]، قرب

(١) حفر العتك: يقع بين العَرَمة والدَّهناء شمال الرياض بحوالى مئة كيل. ابن خميس، ج١، ص ص ٣٣٣-٣٣٤. أما مبايض فكانت مورداً، ثم أصبحت هجرة من هجر مُطَيْر. وهي قريبة من بلدة تُمَيْر في إقليم سُدَيْر. المرجع نفسه، ج١، ص ٣٢٧.

(٢) الصُمَّان: منطقة واسعة معروفة تقع شرق الدهناء. لمزيد من التفصيل انظر عنها المرجع نفسه، ج٢، ص ص ٧٨ - ٨٤.

نهاية الفترة التي يتناولها هذا التقرير، في هياج من عدم الاستقرار. وقد عبرت خلالها وأنا عائد إلى الساحل عندما وجدت فرصة طيبة لرؤية التناقض بين الأمن الموجود تقريباً في كل مكان من أراضي ابن سعود ذاتها، والخطر والهياج الموجودين على حدود الأراضي الكويتية.

وفي أثناء كل تلك الشهور كان ابن سعود ممنوعاً - بسبب اتِّفاقه معنا - من التعامل مع إزعاج العجمان. وكنت ألحُّ عليه أن يتغاضى عن كل الأمور الصغيرة لمصلحة الاستعداد النشط للهجوم على حائل. وقد ظل محافظاً على موقف يتَّسم بالشكوى الدائمة، التي ليست غير مُحقَّة بصفة عامة. وكنت أرسل تقارير مخلصة عن ذلك بانتظام، لكن بدون نجاح.

وكان من الواضح أن نائب المندوب المدني في البصرة، الذي كان مسؤولاً في نهاية المطاف عن تنفيذ الاتِّفاق الكئيب مع العجمان، لم يكن ميَّالاً إلى التعامل جدِّياً مع هذا الأمر (الذي يعدُّه جزءاً من الهواية العادية للغزوات والغزوات المضادة القبلية)، كما لم يكن في وضع يخوِّله أن ينفِّذ مثل تلك الأجزاء من الاتفاق التي اتَّضحت كراهية العجمان لها. وفي هذه الظروف وصلت الأمور بسرعة إلى طريق مسدود، واتَّضح أنه لا يبدو هناك أي حلٍّ معقول للمشكلة.

وفي هذه الأثناء كان ابن سعود يجهِّز لبدء هجوم ضدَّ حائل. فألححت عليه أن يأخذ رهائن من العجمان لمنع أية حركة عدائية يمكن

أن يقوموا بها. لكن حتى هذه برهنت على أنها غير عملية. وأخيراً سُلِّم بأنه لا شيء يمكن أن يُعْمَل لتنفيذ التزام العجمان بالشروط الموضوعه عليهم. وفي هذه الظروف تقرَّر ما يأتي:

١- يجب أن يُحذَّر العجمان بأن غزواتهم إذا استمرَّت فإن معوناتهم ستوقف، ووصولهم إلى الأسواق المحلية سيمنع.

٢- يجب أن يعطى ابن سعود الحرية في التعامل مع القبيلة، بشرط ألاَّ تُهدَّد سلامة خط سكة الحديد.

وقد أخبرت ابن سعود بشعور من الارتياح بهذه الأوامر. وكنت أعلم أنه لن يكون في وضع يمكِّنه من انتهاز فرصة الحرِّية التي حصل عليها حديثاً بشأن هذا الموضوع. لكن إزالة ضيم جوهري كان محلَّ الترحيب في وقت كانت المسألة الشريفية تهدِّد في أية لحظة أن تصبح حسَّاسة جداً.

لقد سبَّبت مشكلة العجمان كثيراً من الصعوبة والقلق غير الضروريين ربما نتيجة لرغبة خاطئة في الليونة مع عنصر لديه الإمكانية بأن يكون معادياً. لكن من الصعب - في ضوء التجربة - أن تطول مقاومة ما يستنتجه المرء وهو أنه يمكن تفادي المشكلات والاستفزازات بأن يُقبَل - دون ضجة زائدة - الإنذار الذي اقترحته البعثة منذ ديسمبر الماضي، وأخبِرت القبيلة به. ويجب أن تعود الحكومة إلى ذلك الإنذار بعد عشرة شهور من البحث غير المفيد عن خيار أفضل. وخلال تلك الشهور أدَّت رغبتها في خدمة مصالح قبيلة لا تستحقُّ

تلك الخدمة إلى فقدها كثيراً من سمعتها في وسط الجزيرة العربية، كما أدَّت إلى زيادة عدد الزعامات دون ضرورة. وعلى هذا فإن ابن سعود قد يطلق عنان شكواه بمظهر عادل من المنطق.

١٠- مشكلة العوازم:

تختلف مشكلة العوازم عن مشكلة العجمان في كونها ذات مصلحة عابرة، ولا تمثِّل صعوبة جدِّية. كان العوازم، منذ زمن طويل، يُعَدُّون ضمن القبائل المحلِّية في نطاق الحكم الكويتي. وقديماً، عندما كانت الصداقة بين مبارك وابن سعود تجعل تحديد الحدود غير ضروري، كانوا أحراراً في التجوال للرعي على أي جانب من الحدود مع دفعهم الزكاة إلى الكويت وحدها.

وعلى أية حال فإن الخلافات المؤسفة بين الشيخ سالم وابن سعود؛ خاصة منح الأول حماية لقبيلة العجمان المتمرِّدة، وضع نهاية لما جرت عليه الأمور في السابق. ورداً على استفزازات شيخ الكويت جدَّد ابن سعود - وأكَّد عملياً- مطالبته التي نادى بها منذ مدة بتزكية الرعاة من العوازم إذا دخلوا أراضيه، أينما حلُّوا فيها بحثاً عن المراعي، أو بعبارة أخرى تزكيتهم سنوياً. ذلك أن الحدود الضيِّقة للأراضي التابعة للكويت لا يمكن أن تلبِّي حاجات القبائل البدوية إلى مراعٍ كافية خلال العام كله.

وفي تنفيذ ابن سعود لمطالبته كان يتصرَّف داخل إطار حقوقه التي يضمنها له استقلاله السياسي. وفي الوقت نفسه لم تكن له ضغينة ضدَّ قبيلة العوازم أو رغبة في الضغط عليها. وهي قد وُضعت - دون خطأ منها - في وضع مؤسف أوجب عليها أن تدفع الزكاة مضاعفة. وكان ابن سعود مستعداً تماماً أن يرضى بأية ترتيبات معقولة. بل إنه

مستعدٌّ أن يتنازل كلِّية عن حقِّه في تزكية القبيلة، لكن بشروط.

وكان حلُّ مشكلة العجمان بترحيلهم الحقيقي من الأراضي الكويتية إجراء جوهرياً تمهيدياً لمثل تلك الترتيبات. أما بقية الأمور فإن ابن سعود - بعد نقاشه مع البعثة - أشار إلى الترتيب الوُدِّي الذي استثنى فيه العوازم، خلال وقت مضى، من دفع الزكاة إلى الخزينة النجدية، وطلب العودة إلى السياسة القديمة. وتعهَّد بأنه إذا كتب إليه الشيخ سالم بعبارات مناسبة فإنه سيردُّ عليه بعبارات مشابهة؛ مسقطاً رسمياً مطالبته بتزكية القبيلة بعد ذلك.

والواقع أنه لم يتمَّ تبادل الخطابات المقترحة، وأن الشيخ سالماً فشل في أن يردَّ على مشكلة العجمان في حين أن فئات من قبيلة العوازم - في أكثر من مناسبة - غطَّت حركات غزاة العجمان وشمَّر في تجوالهم بالأحساء. وبالرغم من ذلك فإن مشكلة العوازم حلَّت نفسها. ويعود الفضل إلى ابن سعود؛ إذ أوقف أخذه الزكاة على حيواناتها ودوابِّها دون أن يحصل على أي شيء مقابل ذلك.

١١- الحصار (الاقتصادي):

مع أن أعداءنا في هذه الحرب يتمتَّعون- بدون شك- بمزايا تكتيكية معيَّنة أكثر منا ومن حلفائنا بسبب التصاقهم الجغرافي فإن كونهم يقعون ضمن سياج محاط تقريباً بأعداء قد برهن - من ناحية أخرى - على عجز خطير. ذلك أنه حيل بينهم وبين أسواق العالم، وتوجَّب عليهم الاعتماد على حسن نوايا المحايدين وطمع الآخرين لإمدادهم، بكل حذر، بالحاجات الضرورية التي لا يستطيعون إنتاجها بكميات كافية في أراضيهم.

ولكي تجُعَل تلك الإمدادات معرَّضة للخطر أكثر فأكثر؛ بل ولقطعها كلِّية، فإن ذلك ما زال، بطبيعة الحال، أهم أهداف الحلفاء العسكرية. وكان الأداة المستعملة لتحقيق هذا الهدف هو الحصار.

وتُمثِّل مشكلة الحصار صعوبات خاصة في بلاد ما بين النهرين. ذلك أن جزءاً مهمّاً من سياستنا هو كسب تعاطف العرب لقضيتنا. ولهذا فإن من المهمِّ أن نقدِّم لهم كل التسهيلات المعقولة ليمدُّوا أنفسهم بضروريات الحياة، مع التأكيد بأن تلك الضروريات يجب ألاَّ تصل إلى العدو. لكن العرب أنفسهم، بفشلهم في التجاوب معنا بالروح التي نتجاوب بها معهم، يجعلون من واجب السلطات البريطانية أن تتَّخذ إجراءات معيَّنة لتنفيذ الحصار بدقة.

ولا حاجة إلى الحديث، هنا، عن الصعوبات التي واجهتنا في الأراضي المحتلَّة من العراق. ويكفي القول بأنه، في ضوء التجربة،

قد وُضعت للحصار خطَّة فعَّالة نوعاً ما، بحيث أصبح تأثيرها أكثر وضوحاً كل يوم بعد آخر.

وتشتمل خطَّة العراق على حصار محكم للجزء الشمالي من الجزيرة العربية؛ وذلك بإقامة نطاق عسكري على طول خط الفرات. وعلى أية حال فإن نجاحها الكامل يتطلَّب ألاَّ يحدث تسرُّب للإمدادات عبر الأقطار المجاورة المحايدة أو الصديقة التي ليست تحت سيطرتنا. وبهذا الخصوص فإن وسط الجزيرة العربية وشرقها، بخلجانها الصغيرة على ساحل الخليج، كانا محلَّ اعتبار جدِّي منذ فترة طويلة.

وكان سخيفاً جداً أن يُتوقَّع من العرب غير المنضبطين - سواء كانوا بادية أو حاضرة - ألاَّ ينتهزوا فرصة الحصول على فوائد كبيرة بتلبية طلبات العدوِّ من الإمدادات. وفي الوقت نفسه كان من غير الوارد أن تُتَّخذ الوسيلة اليسيرة المتَّخذة لحصار موانئ الخليج، ذلك أن اتخاذ مثلها سيجعل أصدقاءنا يلقون المصير نفسه الذي يلقاه أعداؤنا. ولذا كان الأسلوب المتَّبع هو أن نحصل على تعاون حلفائنا من الحكام العرب؛ وأعني ابن سعود وشيخ الكويت: الأول بمنعه تهريب البضائع عبر حدوده إلى العدو، والثاني برفضه إعطاء العدو مدخلاً إلى سوق الكويت ليبحث عن عملاء له. وقد تُركت الترتيبات، التي يمكن أن يُتَوصَّل بها إلى تحقيق هذه الأهداف كليةَ، إلى توجيه كل من الحاكمين نفسيهما وفقاً لسياستنا الثابتة في الابتعاد عن التدخلَ في الترتيبات الداخلية للدول الوطنية، إلا إذا حتَّمت الظروف ذلك

التدخل. ومن الموسف أنه قد تُنُبِّئ بفشل التجربة منذ البداية ففشلت. وكانت نتيجتها الجوهرية الوحيدة زيادة المرارة والكراهية الموجودتين فعلاً بين ابن سعود وابن صباح.

والحقيقة أنه قبل مغادرة البعثة بغداد كانت المعلومات الواردة من المصادر المحايدة وغير المحايدة تفيد بوضوح تام أن الكويت - في أعقاب تضييق حصار العراق - قد بدأت تتمتَّع باحتكار مربح، بصفتها مصدراً لإمداد العدو، وأن القصيم كانت مستفيدةً بتمتُّعها بفوائد مشابهة بصفتها مركز توزيع. وقد بلغ الأمر ذروته قرب نهاية سبتمبر سنة ١٩١٧م (منتصف ١٢/ ١٣٣٥هـ) عندما وصل إلى الكويت ثلاثة آلاف بعير للعدو عبر القصيم، ومعها جواز مرور موقَّع من أكبر أبناء ابن سعود، تركي، الذي كان حينذاك قائداً للقوات الموكول إليها اسمياً منع تهريب الإمدادات إلى العدو. وتعقَّدت المشكلة بالسماح للقافلة ذاتها بالمغادرة وهي تحمل الإمدادات من الكويت بموافقة ورضى من الشيخ نفسه، بالرغم من الأوامر المحدَّدة المرسلة برقياً من بغداد بأنها يجب أن تحجز بانتظار إعادة النظر في الموضوع.

ولقد تعقَّب العقيد هاملتون القافلة بدون نتيجة. ولا شك أن العدو رحَّب باستلامه مؤناً يضيفها إلى مستودعاته. على أن الأمور سرعان ما أصبحت خطيرة حقاً. وقد أظهر حلفاؤنا أنفسهم وكأنهم حزم حطب مكسَّرة. وبناء على ذلك وُجِّهت البعثة لتناقش مسألة الحصار مع ابن سعود، وتُقدِّم اقتراحات لتنفيذه بدقة، بينما بدأت تسترعي

الانتباه مسألة إمكانية إقامة مراكز حصار محكمة في الكويت مثل التي على الخطوط العراقية.

إن حادثة القافلة الشمَّرية المذكورة سابقاً برهنت على أنها بركة وإن بدت غير ذلك. فقد أمدَّتني بحقيقة مشهورة ثابتة أبني عليها شكاية حول ما مضى، كما أبني عليها إنذاراً بالنسبة للمستقبل. ومن الإنصاف لابن سعود القول بأنه عمل محاولة قليلة الجدِّية ليدافع عن موقفه الذي يصعب الدفاع عنه. أما بالنسبة لعمل تركي فإنه فسَّره بأن جواز المرور الذي أعطِي للقافلة لم يكن المراد به، بأية حال، إعطاء شمَّر تسهيلات للتصدير من الكويت. بل إنه كان مجرد حماية بالمرور عبر القبائل النجدية التي على الطريق. لكنه لم يستطع تفسير شمول رعايا العدو بامتياز كهذا. وكان تفسير الشيخ سالم لعدم حجز قافلة العدو مساوياً، بدون شك، لتفسير ابن سعود في الإقناع.

أما بالنسبة للقافلة ذاتها فإن ابن سعود قد اعترف أنها لم تذهب إلا إلى العدو. وأما بالنسبة لتجارة العدو عامة فإنه هاجم بقوة شيخ الكويت على كونه شخصياً وبعمق متورطاً في تجارة التهريب، التي جنى منها أرباحاً طائلة. وقد أكد أن معظم حركة التهريب أتت مباشرة من الكويت إلى حائل أو دمشق؛ متجنِّباً الحديث عن حدوده هو، لكنه اعترف أن تجار القصيم كانوا، أيضاً، متورِّطين بالتهريب إلى حدٍّ ما. وعلى أية حال فعند إشارتي إلى أن ذلك نادراً ما كان منسجماً مع تعهُّداته الرزينة اعترف بخرق الحصار ودافع عن موقفه

بأنه ما دام التهريب على مستوى كبير يمارس في الكويت لفائدة التجار المحلِّيين فإن من غير المنطق استثناءه ليعاقب التجار من بلاده. بل إنه لا يستطيع عمل ذلك دون المجازفة الخطرة بتنفير أهل القصيم من حكمه.

وفي نهاية الأمر اقترحت أنا والعقيد هاملتون نظاماً للمرور يكون فيه التصدير من الكويت ممنوحاً فقط للأشخاص الذين يحملون أوراقاً موقَّعاً عليها من قِبَل ابن سعود أو أميره المحلِّي، ويذكر فيها أن حاملها من رعايا ابن سعود وممن يوثق بهم بشرط أن يتحمَّل ابن سعود نفسه شخصياً المسؤولية بأن البضائع المصدَّرة بهذه الطريقة لن تخرج من حدود أراضيه.

وقد تردَّد ابن سعود قليلاً تجاه هذا الترتيب الجديد بالنسبة للتفكير العربي، وقدَّم لنا اقتراحاً بديلاً وهو أن يقوم بحراسة الحدود الكويتية. وعلى أية حال فإن ترتيباً كهذا يعني السماح له بأن يكون حرّاً في إغاظة شيخ الكويت وشعبه. وذلك ما لا يمكن أن يُفكَّر فيه لحظه واحدة. ولعدم وجود أي خيار مناسب آخر ألححنا على قبول اقتراحاتنا الأصلية. ولأن ابن سعود كان في ذلك الوقت قد أكِّد له حلُّ مشكلة العجمان حلاً مرضياً فإنه قبل أخيراً بالتعهُّد بأن الحكومة البريطانية ستتَّخذ خطوات جادة لمنع كل أنواع التهريب المباشر من الكويت ذاتها إلى العدو.

وبناء على ما سبق عُمِل الترتيب الآتي:

١- يتعهَّد ابن سعود بفرض حصار نشط على أراضي العدو بقبوله مسؤولية شخصية تامة بأن الإمدادات التي تدخل أراضيه لن تخرج منها إلى بلاد العدو.

٢- يجب أن ترتِّب الحكومة البريطانية لنظام حصار فعَّال في الكويت.

٣- لا يسمح بالتصدير من الكويت لأي فرد ليس معه تصريح موقَّع عليه من قِبَل أمير المكان الذي يسكن فيه.

٤- لا يعطى ذلك السماح، بأية حال، حتى للفئات الصديقة من شمَّر ما لم تكن مصحوبة بممثِّل مسؤول من قِبَل ابن سعود نفسه.

٥- تعمل استمارة المرور، التي اتُّفق عليها خلال مناقشاتنا، بدون تأخير، وتوزَّع على الأمراء المحلِّيين للاستعمال. وعلى حاملها أن يظهرها للسلطات البريطانية في الكويت لتصدِّق عليها مع كمِّية كل بضاعة ستُصدَّر. وعند وصوله إلى الجهة التي يريد عليه أن يمثل أمام الأمير المحلِّي، الذي سيصدِّق على استمارة المرور وكمِّيات كل بضاعة أحضرت إلى الجهة المقصودة. ثم تعاد الوثائق المصدَّق عليها في نهاية الأمر إلى السلطات البريطانية في الكويت لتسجيلها والاحتفاظ بها.

ولم نكن راضين عن اكتمال الترتيب الذي توصَّلنا إليه. لكننا لم نضع فرصة في توضيحنا لابن سعود أن مصالحه في خطر بدرجة لا تقلُّ عن مصالح الحكومة البريطانية، وأن أهمِّية منع وصول

الإمدادات إلى العدو أمر لا مبالغة فيه. وبناء على ذلك بعث رسائل إلى أمرائه؛ خاصة أمراء القصيم، يشرح فيها الضرورة العاجلة للطاعة التامة في تنفيذ أوامره بدقة؛ مضيفاً، عَرَضاً، أنه قد دخل في تعهُّد قانوني مع الحكومة البريطانية في هذا الشأن. وستكون منفعة هذا التعهُّد لرعاياه واضحة في المستقبل.

وعاد العقيد هاملتون إلى الكويت لعمل ترتيبات تُنَفَّذ بموجبها السياسة التي اتُّفق عليها. وقد حدث بعض التأخير في عمل التفصيلات الضرورية، وإزالة الصعوبات التي حدثت عَرَضاً عند إقامة مركز حصار في الكويت. لكن، في أثناء ذلك عُيِّن ضابط لذلك المركز، وأصبح كل شيء جاهزاً لتنفيذ الخطة التي أمِّل أن تُكمل الإطار الذي يغلق أمام العدو كل المداخل إلى أسواق العالَم الخارجية.

وهكذا كانت الحال عندما عدت إلى ابن سعود في أبريل سنة ١٩١٨م(رجب ١٣٣٦هـ). وكما جرت العادة فإن قوافل كبيرة من داخل البلاد انتهزت فرصة فصل الربيع لتذهب إلى الساحل لتحضر إمدادات لفصل الصيف. وقرب نهاية ذلك الشهر بدأت تأتي تقارير مزعجة تفيد بأن جميع القوافل رُدَّت على أعقابها خاوية الوفاض في ظلِّ ظروف يعتقد أن تكون نذير خطر. وليس من المبالغة القول بأن كل نجد، وقد فوجئت باحتمال قضائها فصل الصيف دون إمدادات، قد أصبحت في هياج. وقد اتُّخِذَتْ احتياطات عسكرية؛ منها وضع

مدافع فوق سطح منزل الوكيل السياسي في الشُّوَيْخ، ونزول فرقة من الجنود إلى الساحل، لتفادي حدوث مشاكل من جرَّاء صدِّ القوافل. وفُسِّر ذلك، بصفة عامة، بأنه تصرُّف عدائي موجَّه إلى أهل نجد. وتعرَّضت سياسة ابن سعود الوُدِّية تجاه الحكومة البريطانية لكثير من الانتقاد غير السار.

وقد فشلت السلطات في الكويت أن تدرك هذا الجانب من القضيَّة، أو تدرك ضرورة إخباري بما تعمل، مما جعلني في وضع لا يمكِّنني من تفسير التصرُّفات المتَّخذة، أو إعطاء أسبابها لابن سعود، الذي كانت الشكاوى تنهال عليه من أتباعه، ثم يحيلها إليَّ.

وكان واضحاً لي، على أية حال، أن خطأً ما قد حدث. وخوفاً من حدوث اضطرابات في التأخير شعرت أنه لم يعد أمامي إلا أن أعطي؛ نيابة عن السلطات في الكويت، ضمانات معيَّنة بالنسبة للمستقبل.

وبناء على ذلك رتَّبت مع ابن سعود أن كل القوافل النجدية يجب أن تُصحَب بمبعوثين خاصين منه، وأنه يجب أن يعيِّن وكيله في الكويت، عبد الله النفيسي، ممثِّلاً خاصاً بالنسبة للفئات القبلية، التي ليست في وضع يمكِّنها من القدوم لتدبِّر وفودها الخاصة؛ مثل قبائل شرق الجزيرة العربية كمُطَير وسُبَيْع، وأن جميع قوافل المدن العادية يجب أن تحمل تصريحات مرور موقّعاً عليها من الأمراء المحلِّيين. وقد أرسلت هذه الترتيبات فوراً إلى الوكيل السياسي في الكويت؛ مؤكِّداً لابن سعود، في الوقت نفسه، أن القوافل التي رُدَّت من قبل

يمكنها الآن أن تعود لتحضر إمداداتها، التي لن تُمْنَع منها، بشرط أن تراعى تماماً الترتيبات الخاصة بتصريحات المرور والمندوبين. وذكرت، في الوقت نفسه، للوكيل السياسي أنه:

أولاً: ليس من المنطق الصحيح تماماً أن تمنع الصادرات إلى داخل الجزيرة العربية من الكويت على أساس التجارة قبل الحرب لأن داخلها، في تلك الأيام، قد اعتاد جلب إمدادات من مكة ودمشق والبصرة؛ إضافة إلى أمكنة أخرى. لكن في ظلِّ الشروط الموجودة، ومع منع مجيء السفن إلى موانئ الأحساء، أصبحت الكويت المصدر الوحيد لإمداد نجد.

وثانياً: أنه في ضوء الترتيبات التي عملتها البعثة مع ابن سعود، بالتشاور مع العقيد هاملتون، فإن مسؤولية السلطات الكويتية كانت مقصورة فقط على منع التصدير غير المجاز قانونياً. أما ابن سعود فكان مسؤولاً عن ذهاب أية بضاعة مصدَّرة إلى نجد بمستند صحيح من أراضيه إلى جهة معادية.

ويكفي القول، هنا، بأن الترتيبات التي اقترحتها قد قُبلت فوراً، وأن التصريح المطلوب للقوافل النجدية التي سبق أن رُدَّت كان له ردُّ فعل مرض من المشاعر في جميع أراضي ابن سعود، وأن الحادثة التي سبَّبت كثيراً من الشعور غير الوُدِّي كانت مفيدة لتذكير أهل نجد بما تستطيع الحكومة البريطانية، وما تودُّ، أن تعمله في حالة إساءة استعمال الميزات التي شُمِلوا بها.

وبينما يجب أن أذكر، بالنسبة لهذا الموضوع، أن الكارثة الكويتية قد عُزيت في نجد، بصفة عامة، إلى مكائد الشيخ سالم، الذي كان قد استاء، بدون شك، من إيجاد تنظيم بريطاني فعّال للحصار. ولم يجد سلاحاً أفضل لمعارضته من أن يجعل عبء تلك الترتيبات الثقيل يقع على أهل نجد، الذين كان من المؤكَّد ألاَّ يظلُّوا صامتين أمام مثل هذه الإثارة. وقد أعطى البيان الذي أصدره - بطلب، فيما يبدو، من السلطات البريطانية- والطريقة غير الملائمة التي نُفِّذ بها، معنى لاتِّهامات النجديين له.

وإذا كان ذلك هو ما حدث فإن قبول اقتراحي أعاد الثقة في نجد. وانطلق ابن سعود يعمل لضمان التوقُّف الفعَّال للتهريب من القصيم. وكان أحد أعماله الأولى عزله العاجل لأمير الزلفي، الذي كان مشهوراً بتورُّطه في مسألة التهريب. ومن الصدف الغريبة أنه كان الشخص الوحيد - والشيخ سالم يعرف ذلك - الذي سُمِح له بتصدير البضائع من الكويت عندما صُدَّت بقية القوافل النجدية. وقد جرى أخيراً كل شيء على ما ينبغي لإقامة حصار فعَّال في كل اتجاه.

وكان الشيخ سالم هو الشخص الوحيد الذي لم يرض بما حدث. وأما بالنسبة لمكائده لإفشال الترتيبات الموصوفه أعلاه فليس، هنا، محلَّ الحديث عنها. وفي الثامن والعشرين من يونيو استطعت أن أكتب تقريراً بأن ابن سعود كان مقتنعاً تماماً أن مصالح شعبه في مسألة الحصار كانت مصونة، وعبَّرت، في الوقت نفسه، عن أن الأمل في

أن الحصار الرسمي سيُحافَظ عليه بصفته الأمل الوحيد في قطع الإمدادات عن الفئات المعادية. وباختصار بدا كل شيء على ما يرام بالنسبة لإيجاد حلٍّ مرضٍ بدرجة كافية لمشكلة الحصار. لكني استلمت أخباراً، قرب منتصف يوليو، تفيد بأن الحكومة قرَّرت مرة أخرى أن تضع ثقتها بالشيخ سالم وتترك تنفيذ الحصار كلية في يديه بشرط أن يقبل خدمات ضابط بريطاني لمساعدة موظفي الحصار التابعين له. وفي الوقت نفسه تقرَّر أن الواردات إلى الكويت من الهند وغيرها يجب أن تنظَّم على أساس المتطلبات الشهرية المعقولة للكويت والقبائل التابعة لها. وفي الرابع من يوليو بعث الوكيل السياسي في الكويت؛ نيابة عن حكومة صاحب الجلالة، رسالة يفيده فيها بمصادقة الحكومة على هذه الترتيبات.

وكانت أخبار تطوُّر الوضع بتلك الصفة بغيضة جداً، بطبيعة الحال، لدى ابن سعود. فقد رأى الشيخ سالماً يعطَى، مرة أخرى، مطلق الحرِّية لمزاولة التهريب للعدو، وإبقاء الحصار باستمرار مضايقاً لأهل نجد. ولقد كتبت تقريراً أنه، في أثناء عمل تلك الترتيبات، كانت توجد في الكويت فعلاً قوافل معيَّنة للعدو. وتنبَّأت- في ظلِّ تنصُّل ابن سعود من مسؤولية تسرُّب الإمدادات إلى العدو - بعودة الخلاف بين الحاكمين، وأن أوَّل من سيستغل الفرصة هم أهل نجد، الذين أدَّت القيود الجديدة المفروضة عليهم إلى شكاوى ورسائل لا نهاية لها. وقد انتقدت الخطة بالتفصيل، واقترحت أنه إذا كانت

أهمِّية إبقاء علاقات حسنة مع شيخ الكويت تجعل التمسُّك بالخطة لا يمكن تفاديه فيجب أن تغلق أسواق الكويت تماماً أمام جميع النجديين، وأن توضع ترتيبات لإمداد داخل البلاد بما يحتاج عبر موانئ الأحساء التي يسيطر عليها ابن سعود سيطرة كاملة.

وكنت، وأنا أعمل هذه الاقتراحات، قد أسأت الفهم بأن نظام تصريح المرور قد أُبطل. لكن ذلك لم يكن صحيحاً. ومع ذلك فإنه قد بقي مرفوضاً أن تقدِّم القوافل النجدية طلباً للمرور، لا إلى الضابط البريطاني المكلَّف بأمر الحصار كما هي الحال سابقاً لكن إلى ممثِّل الشيخ سالم. وبدا لي واضحاً أن احتمالات الخلاف التي لا تنتهي قد بقيت. وكنت - في ضوء تزايد حساسية القضية الشريفية - حريصاً على إزالة كل المصادر الصغيرة المحتملة لعدم الرضا، كي أحصل على مطلق الحرية في التعامل مع القضايا الكبرى عندما تحدث.

ويجب أن يُتذكَّر أنني في هذا الوقت - وبينما كان موضوع الخُرْمة يهدِّد جدياً سلام الجزيرة العربية وأنا أحاول صرف اهتمام ابن سعود عنه إلى الهجوم ضد حائل - وُجهت من كل جانب بسلسلة من صعوبات ذات طبيعة مضايقة جداً، مما جعل ابن سعود وشعبه دائمي الشكوى ضد السياسة العامة للحكومة البريطانية تجاه المشاعر النجدية. وكانت سياستنا تجاه شمَّر تسبِّب كثيراً من عدم الرضا، وتضعنا متَّهمين بأننا لسنا جادِّين في رغبتنا في القضاء عليها. وكانت

تعهُّداتنا بالنسبة لقضية العجمان قد أخفقت بسرعة ممَّا أدَّى إلى نتيجة حتمية من الانزعاج والاضطراب في نجد. والآن توضع المصالح التجارية لنجد، مرة أخرى، تحت رحمة الشيخ سالم، في حين تزداد الدلائل بسرعة بأن المهرِّبين الشمَّريين يتمتعون بفرصة جديدة لمزاولة نشاطهم.

وقد اعترف بقوة حجتي العامة أولاً الوكيل السياسي نفسه، الذي جادل بأن الترتيبات الجديدة مع الشيخ سالم مبنيَّة على سياسة حسن الثقة، وأنه يجب إعطاؤه فرصة أخرى لإظهار ولائه وتمسُّكه بالسياسة البريطانية، وأنه إذا فشل في هذا فإنه يمكن اللجوء إلى تحويل تجارة نجد إلى موانئ الأحساء كما اقترحت. واعترف بقوة حجَّتي العامة ثانياً السير بيرسي كوكس. وكان عند وصوله إلى الكويت في أغسطس عام ١٩١٨م؛ عائداً من إنجلترا، قد رتَّب - بالتشاور مع السلطات المحلِّية والشيخ سالم- أن تصريحات المرور لنجد يجب أن تصدر، كما كانت، من قبَل ضابط الحصار، وأن عمليات الشيخ في الحصار يجب أن تقتصر علَى الفئات الأخرى فقط.

وكان هذا الترتيب الأخير، في الواقع، عودة إلى الترتيب المبني على أساس شكاياتي في مايو الماضي. وفي الرابع من سبتمبر سنة ١٩١٨م كنت قادراً على أن أبيِّن أن ابن سعود عبَّر بنفسه، مرة أخرى، بأنه راضٍ تماماً عن الخطة المعدَّلة.

ومن هذه النقطة إلى آخر الفترة التي يشملها هذا التقرير عندما أنهي

الحصار لأغراض عملية ـ وذلك عقب إعلان السلم من قِبَل القائد الأعلى للقوات في بغداد ـ بقيت مشكلة الحصار هادئةً، مع أني استطعت أن أشير إلى عدد من حالات التهريب من الكويت حدثت في سبتمبر بعد قبول الشيخ سالم بتحمُّله مسؤولية الترتيبات الجديدة. لكنه بقي حتى النهاية يقف موقفاً مزدوجاً متمثِّلاً في تظاهره بتنفيذ الحصار، ومساعدته، في الواقع، للمهرِّبين إلى الأعداء.

ولكي ألخِّص نتائج هذه السنة أجد من الصعب عليَّ أن أقاوم ما توصَّلت إليه وهو أن ابن سعود، بصفة عامة، حرص بكل أمانة ونشاط على أن يغلق أراضيه أمام عمليات العدو الذي يبحث عن عملاء له مما أدَّى إلى أنه لم يرد إليَّ خبر حالات تهريب معيَّنة باستثناء حالة صغيرة كتبت تقريراً عنها في يوليو. ومن جهة أخرى فإنه قد أشير، من وقت إلى آخر، إلى حالات كثيرة من مرور قوافل من الكويت إلى حائل. وترد الأدلة على تجمُّع بضائع في البلدة الأخيرة، وحملها في نهاية الأمر على ألف بعير إلى دمشق. وقد بدا أن هناك أساساً قوياً لافتراض أن نوري بن شعلان، الذي لديه مدخل إلى العَقَبة، يستفيد من موقعه للحصول على أرباح من تجارة المهرَّبات.

وإذا كان من الممكن أن يُقترَح، بالنسبة للكويت، علاج فعَّال لوضعٍ لا يطاق فإني أجرؤ على الاعتقاد بأن هذا العلاج كان يوجد في تحويلٍ تجارة نجد إلى موانئ الأحساء، كما سبق أن اقترحت. لكن مما لا شك فيه أن ندرة السفن وقفت ضد قبول الاقتراح في الوقت الذي

قُدِّم فيه. وعلى أية حال فإن هذا الموضوع له جانب آخر أكثر استمراراً يستحقُّ أن يشرح بكلمات قليلة قبل أن أنتهي من هذا الموضوع.

يجب أن يُتَذَكَّر أن ابن سعود، منذ أن استعاد حكم أراضي أسلافه سنة ١٩٠٢م[١]، كان مشغولاً بمهمَّة التوحيد السياسي للبلاد، الذي انتهى إلى أخذ الأحساء من الأتراك في ربيع ١٩١٤م[٢]. ولذلك لم يكن لديه وقت للاهتمام بمسألة التطوُّر التجاري لبلده. وعندما وجد نفسه، عام ١٩١٤م، في وضع يحتِّم عليه أن يهتمَّ بهذا الموضوع، وأن حاجاته المالية تفرض عليه أن يبحث عن طرق ووسائل لتحسين دخله اتَّجه نظره إلى موانئ الأحساء، التي أصبح تطويرها، بصفتها المنافذ الطبيعية للتجارة النجدية، هدفه العاجل. وعند هذه النقطة خيَّب آماله اندلاع الحرب، وما نتج عنه من تقييد لحركة السفن. ومما يُحْمَد له أنه اعترف بأن الحكومة البريطانية غير قادرة مؤقتاً على مساندة خططه بتوفير الشحن.

وبالرغم من ذلك فإن هذا الأمر لم يغب عن بال ابن سعود أبداً. وعندما ظهرت صعوبات الحصار في الكويت رأى فيها سبباً معقولاً لتأكيد مطالبته للاعتراف بموانئه الخاصة. وفي أثناء ذلك كان يعاني من فقد دخل الجمارك، الذي يصعب عليه تحمُّله. وكانت البضائع،

---

(١) المراد استعادته الرياض؛ مبتدئاً استعادة كل ما تمكَّن من استعادته فيما بعد.

(٢) وهذا خطأ واضح. فقد انتزع الملك عبد العزيز الأحساء من الأتراك في ٢٨/ ٥/ ١٣٣١هـ/ ٤/ ٥/ ١٩١٣م.

التي تصل إلى البحرين لكي تصدَّر إلى نجد، عرضة لضريبة جمركية في ذلك الميناء دون حسم أو إعادة عند إظهار ما يثبت أنه قد أعيد تصديرها. ومع أن ابن سعود لا يأخذ إلا ٨٪ على البضائع التي ترد إلى موانئ الأحساء فإن جمركة البضائع مرّتين تشكل عائقاً خطراً لاستعمال طريق البحرين. ولا تزال الأمور في الكويت أسوأ بالنسبة لابن سعود. فما دامت تُدفع جمارك لشيخ الكويت عن جميع البضائع التي تصل إلى ذلك الميناء؛ سواء كانت للمرور فقط إلى الداخل أو لم تكن، فإن من المستحيل على ابن سعود - في ظلِّ الشروط الحالية أو تحت أية شروط أخرى - أن يضع إطاراً جمركياً على الجهات البرية لجميع الجمارك. وبالتالي فإنه لا يجمع شيئاً من الجمارك على البضائع المورَّدة إلى أراضيه عن طريق الكويت. ولأن هذه البضائع لا تجمرك إلا مرة واحدة فإن ميناء الكويت يتمتَّع بامتيازات تفوق كثيراً امتيازات موانئ الأحساء بالنسبة للتجارة البرِّية.

ومن الواضح، بعد الحرب، أن ابن سعود، الذي كان حينذاك قد ثبَّت حكمه في طول نجد وعرضها بما في ذلك القصيم، سوف لن يستمر في معاناة فَقْد مثل ذلك الدخل برباطة جأش. وسيكون الخيار المفتوح أمامه إما أن يعرض نسبة أقلَّ وتسهيلات أخرى بالنسبة للتوريد مباشرة إلى موانئ الأحساء، التي سيذهب دخلها إلى صندوقه الخاص، أو يدخل في ترتيبات تعريفة مرضية مع شيخي

الكويت والبحرين بحيث تُدفع إليه نسبة معقولة من دخل جمارك الميناءين.

ونظراً للارتفاع السريع جداً في مستوى المعيشة في وسط الجزيرة العربية في السنوات الأخيرة، التي تدفَّق فيها المال على البلاد؛ خاصة من الغرب، وللطلبات الكبيرة على البضائع والأطعمة والحاجات الأخرى التي يحتمل جداً أن تحدث خلال فترة السلم المقبلة، فإن قضية تجارة نجد، والتقسيم المعقول للفوائد الناتجة عنها، أحد الأمور التي تستحقُّ عناية جادة من حكومة صاحب الجلالة. ومن غير الممكن في هذا المكان أن أعمل أكثر من أن أوضِّح المشكلة في أسهل جوانبها.

١٢ ـ عمليات ابن سعود ضد حائل:

عند نهاية أكتوبر سنة ١٩١٧ م (١٥/ ١/ ١٣٣٦هـ) كان الوضع العسكري في وسط الجزيرة العربية غامضاً جداً. فقد فشل ابن سعود في مواصلة حملته التي أوقفت عند بدايتها منذ موت النقيب شكسبير في معركة جُرَاب سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ)، وتركه معتمداً على نفسه. وإن المحادثة التي أجريت معه سنة ١٩١٦م، وأعطت قوة دفع لحماسته الراهنة؛ مضافاً إليها مساعدته بمنحة منتظمة، وإضافة جوهرية إلى تسلُّحه، لم تؤد إلى أية نتيجة مهمَّة. وكان معلوماً بأن ابن رشيد قد ترك عاصمته، وأنه مع الأتراك في الحِجْر قرب مدائن صالح حيث سكة حديد الحجاز في حين ذهب وكيلَه الموثوق به، ابن ليلى[١]، إلى دمشق ليتشاور، فيما يبدو، مع القائد الأعلى للقوات التركية حول أوضاع سيِّده. وقد تُركت حائل في عناية حاميتها تحت قيادة أحد المماليك الثقات[٢]. وأَخيراً كان ابن سعود، طبقاً لما ذكره هو بنفسه، مستمراً في الضغط على جبل شمَّر؛ منتظراً فرصة للهجوم عليه، حتى بداية رمضان (سنة ١٣٣٦هـ) عندما ترك قيادة القوات الموجودة في القصيم لابنه تركي، وعاد إلى عاصمته. ولم يعمل تركي، ولا يحتمل أن يعمل، شيئاً في هذا المجال.

---

(١) اسمه رشيد بن ليلى. و هو من رجالات حائل المشهورين. وكان أحد اثنين بعثهما ابن رشيد إلى «مجلس المبعوثان» في القسطنطينية. ولما تمَّ توحيد جبل شمَّر تحت قيادة الملك عبد العزيز أصبح أثيراً لديه، وعُيِّن عضواً في مجلس الشورى بمكة، ثم مفوَّضاً للمملكة في سوريا. وقد توفي عام ١٣٥٧هـ.

(٢) لعلَّه سعيد المحمد، الذي اشتهر بإخلاصه وكفاءته.

وفي تلك الأثناء أصبحت اتِّهامات الشريف لابن سعود بالفتور عن العمل لقضية الحلفاء تزداد وضوحاً وصلابة. وأصبح الدفاع عن حليفنا (ابن سعود) بشأنها أكثر صعوبة. ولقد عبَّر المندوب السامي في مصر عن رأي جميع السلطات المعنيَّة بالأمر عندما قال: «إن الزمن والنهاية الناجحة لمهمَّة البعثة، التي يؤمّل أن تؤدي إلى قيام ابن سعود بهجوم نشط ضد الأتراك، سيبرهنان للملك (حسين) خطل سياسة الشك الحالية التي ينتهجها، وحكمة المصالحة الفعَّالة مع أقرب جار قوي له».

ولذلك كان الهدف الرئيسي للبعثة في نجد أن تدفع ابن سعود إلى حملة ذات طبيعة هجومية نشطة ضد الأتراك. وهذا يعني، بكل المقاييس، أنها حملة ضد ابن رشيد هدفها الأكبر الاستيلاء على حائل. وقد يُفتَرض أن الحكومة البريطانية ترغب أن يُجبَر ابن سعود على مجازفة كهذه وليس في حوزته إلا مصادر قليلة جداً. ولتفادي احتمال كهذا ضُمَّ إلى البعثة ضابط عسكري مسؤول كي يجعلها قادرة على الحديث عن الأمور العسكرية بمرجعية مؤهَّلة، ويقدِّر كمية المساعدة المطلوبة - إن كانت ضرورية - ليجعل مصادر ابن سعود كافية للقيام بالمهمَّة المشار إليها.

وهكذا لم تكن خيبة الأمل قليلة؛ إذ وجدنا في نهاية الأمر أنه عندما شُحن البارود وأصبح جاهزاً لإطلاق النار لم تكن الذخيرة المقترحة زائدَة عن المطلوب فحسب؛ وإنما قامت، أيضاً، شكوك بالنسبة لقيمة

الهدف ذاته. بل إنه كان واضحاً جداً أن تحقيق ابن سعود للهدف المنشود سوف يعزِّز الملك (الحسين) في حماقته، ويجعل التصالح بينه وبين أقرب جار قوي له مستحيلاً. وإذا كان هذا هو الواقع فإن الفوائد العسكرية المجرَّدة التي يمكن أن تحدث نتيجة الاستيلاء على حائل لم تكن بالقدر الذي يكفل أي جهد مهمٍّ من جانبنا.

ومهما يكن ذلك فإن جهود البعثة الأولى كانت موجَّهة إلى مهمَّة تكوين تقدير لقوة زعيمي وسط الجزيرة العربية من حيث الرجال والسلاح. أما بالنسبة لابن سعود فقد علمنا أنه استلم منا ـ قبل اثني عشر شهراً ـ أربعة مدافع جبلية تركية، وأربعة من طراز ماكسيم، وثلاثة آلاف بندقية مع ما يلزمها من ذخيرة، وأن أربعة من رجاله قد دُرِّبوا في البصرة لتشغيل المدافع.

وعند بداية رحلتنا في العُقَيْر لم تكن مفاجأتنا قليلة أن نجد أن كل أفراد الحامية المحلِّية كانوا خمسين رجلاً مسلَّحين ببنادق حديثة. وقد أُخبِرنا أن الحامية في القطيف مسلَّحة، أيضاً، من الأسلحة المهداة لغرض آخر. لكن الصدمة الأسوأ كانت تنتظرنا في الهفوف حيث سُمِح لنا أن نتفقَّد المعدَّات العسكرية المخزَّنة في القلعة بعد معارضة كبيرة من قِبَل الحاكم المحلِّي، عبد الله بن جلوي. وهنا وجدنا كل مدافع ماكسيم الأربعة ما تزال في صناديقها التي وصلت فيها قبل

عام، كما وجدنا اثنين من المدافع الجبلية ومجموعة كبيرة من البنادق والذخائر[١] .

ومما زاد من خيبة أملنا أننا أُخبرنا أن ثلاثة من الرجال الأربعة، الذين دُرِّبوا في البصرة على استعمال المدافع، قد تُوفوا. أما الرابع، الذي كان موجوداً، فقد اتَّضح بالعرض العملي أمامنا أنه قد نسي كل ما تعلَّمه[٢] .

ولم تكن المعلومات التي جُمعت في الهفوف ذات إرباك قليل بالنسبة لنا. فقد بدت أنها تشير إلى أن ابن سعود كان يقتصد في ثرواته العسكرية لمواجهة تطوُّرات ما بعد الحرب. لكنني أظن، بصفة عامة، أن هذه النظرة كانت غير عادلة إلى حدٍّ ما في حق ابن سعود، الذي كانت معلوماتنا عن الحالة الداخلية في أراضيه، حينذاك، أقرب إلى العدم. فسرعان ما أصبح واضحاً ـ مثلاً ـ أن الأحساء لا يمكن تركها بدون حماية في حين أن العجمان كانوا مستمرِّين في تهديدهم حُدودها الشمالية. وبالرغم من ذلك فإن تصرُّفات ابن سعود كانت، بإنصاف، محلَّ نقد. ذلك أنه، مهما كانت سياسته، لم يستفد استفادة كاملة من الأسلحة الإضافية التي استلمها منا. لقد كان واضحاً أن إعطاءه مثل تلك الهدايا دون ضمان استعمالها استعمالاً

---

(١) من المعلومات التي استطعت جمعها أقدِّر أن مجموع أعداد البنادق في الأحساء والقطيف والعُقَير بين ٦٠٠ و٧٠٠ . ومن المحتمل أنها تقرب من ١٠٠٠ . (فيلبي).

(٢) لقد استفاد هو وعدد قليل من الرجال، فيما بعد، بتوجيه من العقيد كنليف أوين، وأصبحوا مؤهَّلين لتشغيل المدافع (فيلبي).

مؤثراً يمثِّل هدراً للمصادر.

ولم أضع فرصة لوم ابن سعود على إهماله الموارد التي وُضعت تحت تصرُّفه من أجل تمكينه من القيام بهجوم ضدَّ العدوِّ المشترك. وقد أجاب بأن هديتنا له في السنة الماضية لم تكن مربوطة بشرط مثل هذا. وهو صادق في ذلك وفق ما استطعت تأكيده. لكنه اعترف بالتقصير العام، وقبل رأيي بأن المدافع ستكون - على أية حال - أكثر فاعلية في عمليات نشطة ضد العدو من بقائها مخزَّنة في قلعة الهفوف. وبناء على ذلك وافق أن يرسل للإتيان بها، فوصلت إلى الرياض، ثم أخذها معه إلى بريدة، لكنها لم تتجاوزها.

أما بالنسبة لأسلحة ابن سعود عموماً فقد تأكَّدنا منه ومن غيره أن لديه، بالإضافة إلى المدافع المذكورة سابقاً، عشرة، أو اثني عشر، من المدافع التركية الجبلية (نوع ٧ أرطال). لكن فعاليتها قليلة لعدم وجود مدرَّبين عليها. وهناك ستة منها في الأحساء أو القطيف. أما البنادق الحديثة فيعترف ابن سعود أن لديه منها حوالى ستة آلاف؛ متضمِّنة تلك التي استلمها منا، مع كمِّية مناسبة من الذخائر. لكني أظن أن الأرقام التي ذكرها أقلُّ من الواقع. ذلك أنه يكسب كل شيء، ولا يخسر شيئاً، في تقليله ما لديه ومبالغته فيما لدى عدوِّه. ولذلك جعلت تقديري ما عنده ثمانية آلاف بندقية حديثة؛ ناهيك عمَّا هو أقلُّ تأثيراً من الأسلحة الأخرى، التي ستظهر - بدون شك - بأعداد كبيرة عند الحاجة.

ولم تكن تأتي إلا معلومات موثوقة قليلة عن أسلحة ابن رشيد. وكان من المعلوم أنه يوجد في قلعة حائل عدد من المدافع في حين أن المعلومات التي استطعت جمعها والمؤيَّدة بالإمكانات الحقيقية لهذه المسألة تقودني إلى رفض التقارير المنبعثة، كما أظن، من مصر بأن دفاعات المدينة كانت في حالة متهدِّمة. أما ابن سعود نفسه فيقول: إن ابن رشيد لديه أربعة مدافع جبلية تركية أو خمسة، وما لا يقلُّ عن عشرين ألف بندقية حديثة. ويبدو بوضوح أن العدد الأخير مبالغ فيه في ضوء حقيقة أن ابن سعود نفسه يقدِّر مجموع القوة البشرية لحائل وقبائلها خمسة عشر ألفا فقط. وأظن أنه يمكن القول باطمئنان بأن قوة العدو اثنا عشر ألفاً، مسلَّحين ببنادق حديثة وخمسة مدافع.

وعلى هذا الأساس بدا للبعثة أنه في حين كان ابن سعود، دون شك، قادراً على قيادة رجال أكثر جداً مما يمكن أن يجمع العدو، فإنه كان أقلَّ منه بوضوح في عدد البنادق الحديثة ومساوياً له تقريباً في المدافع، إذا أُخذ بعين الاعتبار أنه لا يستطيع المجازفة بتعرية كل أراضيه من دفاعاتها. أما ابن رشيد فكانت كل قوة شمَّر وأسلحتها متوافرة للدفاع عن عاصمته، ناهيك عن أية زيادة في القوة التي قد يستطيع، في آخر الأمر، الحصول عليها من الأتراك إذا واجهت بلاده تهديدا خطيرا.

ولهذا فقد توصَّلنا، في مسألة الرجال والسلاح، إلى أن الهجوم على حائل، باحتمال نجاح معقول أو - على الأقل - بدون مجازفة خطرة تنتج عنها نكبة في حالة الفشل، يتطلَّب ألاَّ يتقدَّم ابن سعود إلى

الميدان بأقلَّ من خمسة عشر ألف رجل، وبمدفعية أكثر مما لديه الآن. وبناء على طلبي صاغ العقيد كنليف أوين تقريراً للوضع ضمَّنه - بعد ترتيب الأدلَّة المتوافرة أمامنا - ما يعدُّه متطلَّبات عسكرية معقولة لابن سعود ليقوم بالمهمَّة المتوقَّعة منه.

أما جوانب الوضع المالية وغيرها فلم تُدرَس بعد. ذلك أن ابن سعود قد أوضح منذ البداية أن مصادره المالية الموجودة - بما فيها المساعدة التي يتلقَّاها من الحكومة (البريطانية) - لم تكن كافية لتمكينه من الاحتفاظ بقوة كبيرة في الميدان لمدة طويلة؛ وذلك بسبب النقص في الشحن البحري وما نتج عنه من انخفاض في سعر التمر، الذي يشكِّل واحداً من موارد قليلة قابلة للتصدير من بلاده (الأحساء بصفة رئيسية)؛ إضافة إلى أسباب أخرى. وقد قدَّرت هذه المسألة بدون تردُّد لأنه من المعلوم أن أجرة الفرد وحدها من قوات الشريف؛ ناهيك عن الأمور الأخرى، تكلِّف خمسة جنيهات أو ستة شهرياً. وفي الوقت نفسه لاحظت بارتياح أن صعوباته المالية تبدو أكبر في نظره من النقص في سلاحه، وأنها في الحقيقة ذات طبيعة ملحَّة وخطيرة. ذلك أن الضيافة الملكية؛ سواء في العاصمة أو في المخيَّم، تتضمَّن إعاشة من يحتمل أن يصل عددهم إلى ما لايقلُّ عن ألف شخص مرتين في اليوم. وهذا ما وضعه تحت وطأة الالتزامات لدائنيه، وجعله قلقاً بشأن القيام بوفائها. وبالإضافة إلى هذا فإن معوناته للقبائل تكوِّن عبئاً ثقيلاً على موارده. وقد ازدادت وطأتها حديثاً للمنافسة التي يواجهها من الشريف.

وبقدر ما أستطيع أن أؤكِّد فإن جُلَّ موارد ابن سعود تتكوَّن من دخل ثلاثة مصادر هي :

١ ـ رسوم الجمارك في موانئ الجُبيل والقَطِيف والعُقَير ، التي تصل إلى أربع مئة ألف روبية سنوياً .

٢ ـ دخل زكوات النخيل والقمح والرُّز . . إلخ في الأحساء والقطيف ، الذي يصل إلى حوالى ست مئة ألف روبية سنوياً .

٣ ـ المساعدة البريطانية وقدرها خمسة آلاف جنيه شهرياً أو تسع مئة ألف روبية سنوياً .

وبالإضافة إلى مصادر الدخل هذه فإن ابن سعود يحصل على دخل من مزارع القصيم مما لا أتمكَّن من تأكيد تفصيلاته كاملة . ويقول هو : إن وارداته من الزكوات السنوية التي تؤخذ على الإبل والغنم أقلُّ مما ينفقه مساعداتٍ للقبائل . وقد قبلت ما قاله على أنه صحيح بدرجة كبيرة .

وقبل أن أغادر البصرة اتَّخذت احتياطات تمثَّلت في إمداد نفسي بكمية كبيرة من النقود . وقد أثبت وجودها ؛ سواء ما كان منها مودعاً في العُقَير وما كان موجوداً في الرياض ذاتها ، على أنه عامل قوي في المفاوضات التالية مع ابن سعود . ولتشوُّقه لما يتوقّع منا في حالة تعاونه النشط معنا في عمليات عسكرية أقرضته مبلغ عشرة آلاف جنيه على حساب أقساط معونته في المستقبل ؛ وذلك قبل مغادرتي الرياض متَّجهاً إلى الطائف .

وإذا أريد قيام ابن سعود بعمليات عسكرية جادة فمن الواضح أن مهمَّة تمويلها ستقع على كاهل الحكومة البريطانية، التي كانت تتحمَّل فعلاً نفقات الشريف ببذخ. ولهذا فإنه لكي يُعمل تقدير لكمية النقود المطلوبة فإني أفترض أن مبلغاً معيَّناً من المال سيكون مطلوباً لتوفير مبدئي لنقل الإبل والمعدَّات للمرحلة الأولى من عملياته، على الأقل، وأن مخصَّصاً شهرياً منتظماً سيكون ضرورياً لتمكينه من المحافظة على قواته في الميدان. وقد قدَّرت المبلغ الأول بعشرين ألف جنيه استرليني؛ نصفها لتوفير ألف من الإبل للنقل بمعدَّل عشرة جنيهات للبعير الواحد، ونصفها لتوفير الرز وغيره من الأطعمة الضرورية. أما المخصص الشهري فقدَّرته على أساس حدٍّ أدنى من القوة مقداره عشرة آلاف رجل. ولاستمرار وجود هؤلاء في الميدان فإن معدَّل احتياج الواحد منهم خمسة جنيهات استرلينية شهرياً؛ وذلك لتغطية:

١ - مخصَّص لأسرة الرجل؛ إذ بدونه لن يذهب إلى الميدان.

٢ - رواتب لأفراد الجيش.

٣ - تكاليف المؤن وغيرها.

وهكذا توصَّلت إلى فكرة واضحة تماماً لما كان مطلوباً حقاً في مسألة السلاح والتمويل للحملة المقترحة. وبقي فقط أن يؤخذ من ابن سعود تعهُّد واضح أنه سيقوم بالحرب إذا عملت المؤن على المستوى المشار إليه سابقاً. وهذا المستوى في الواقع، يقصر كثيراً عن توقُّعات ابن

سعود نفسه، لكني أكَّدت أنه سيكون مما لا فائدة فيه أن يعمل اقتراحات أكثر طموحاً في ضوء الآمال المعلَّقة على عمليات الشريف، وهجومنا نحن في فلسطين، وألححت عليه أن تردُّده في تلك المرحلة الحاسمة قد يؤدِّي إلى عدم حصوله على أي شيء.

ويكفي القول بأن ابن سعود، بعد تفكير تام في الموضوع، وافق أخيراً على أن يتعهَّد بالقيام بعمليات نشطة إذا زيدت موارده إلى المستوى الذي توصَّلنا إليه. وحينئذ أصبحت في وضع يمكِّنني من تقديم اقتراحاتي إلى السير بيرسي كوكس ليأخذها بعين الاعتبار. وهي كما يأتي:

١ ـ يُمَدُّ ابن سعود بمدفعي حصار ومدفعي ميدان مع كمية كافية من الذخيرة، ومن قد يكونون متوفِّرين لتشغيلها، ويفضَّل أن يكونوا من أسرى الحرب من العرب.

٢ ـ يُمَدُّ بعشرة آلاف بندقية حديثة مع ما تحتاج إليه من ذخيرة.

٣ ـ يعطى منحة مبدئية قدرها عشرون ألف جنيه استرليني لتأمين نقل الإبل، ومنحة شهرية مكوَّنة من خمسين ألف جنيه لمدة ثلاثة شهور؛ وهي المدة التي قُدِّر أن تستغرقها الحملة الفعلية.

وعند وصولي إلى جدة وجدت أن الوضع العسكري قد تغيَّر عملياً بتحطيم القوات التركية في غزة والاستيلاء على القدس، في حين أن الوضع السياسي المحلِّي كان معقَّداً بحسد الشريف، الذي كان ـ لخوفه من أن نصبح أداة لتقوية منافسه ـ يعمل ما في استطاعته للتقليل من

أهمِّية ابن سعود في عين الحكومة البريطانية، ومنع الأخذ بخطط البعثة لهجوم ضد حائل.

وقد قُضي وقت طويل في النقاش بين السلطات المختلفة المعنيَّة عندما كنا في القاهرة. وكان مما لا يقبل الجدل أن الهجوم ضد حائل، الذي كان في مقدَّمة برنامج البعثة في نوفمبر، قد صار أقلَّ أهمِّية بسبب الحوادث في فلسطين. وبالإضافة إلى ذلك فقد أثير تساؤل عمَّا إذا كان تطوير مثل ذلك الهجوم لن يؤدِّي إلى شرخ لا يمكن إصلاحه في العلاقات بين ابن سعود والشريف في ضوء الموقف المتصلِّب لهذا الأخير. وكان رأيي، بصفة عامة، أنه بينما قد لا يكون القضاء على ابن رشيد بالاستيلاء على حائل ضرورة عسكرية ملحَّة فإنه يكون ذا فائدة عسكرية كبيرة في إضعاف الوضع التركي على طول خط سكة حديد الحجاز. وقد يتطوَّر إلى حركة عربية مشتركة كبيرة ضد الجبهة السورية إذا تطلَّبت الحالة، في أي وقت، جهداً في ذلك الاتجاه. وفوق ذلك فقد كنت - في ضوء التنافر المتبادل الواضح لطموحات كل من الشريف وابن سعود - مدركاً للضرورة الملحَّة للعثور على توظيف نشط يصرف تفكير الأخير عن الوضع الشريفي.

وكان الخوف الذي لدى المندوب السامي البريطاني في مصر من يقظة وهابية محتملة يدفعه إلى استنكار أي عمل يمكن أن يقوِّي ابن سعود. وكانت حكومة صاحب الجلالة ميَّالة إلى هذا الرأي نفسه. ونتيجة لذلك قُرِّر - بعد نقاش مستفيض - أنه ليس ضرورياً ولا مرغوباً فيه أن يعطى ابن سعود معونة عسكرية بالقدر الذي اقترحته البعثة،

وأنه يجب أن يخوَّل السير بيرسي كوكس حق التوجيه الكامل بإجازة حصص المعونة بشكل يبقي ابن سعود في المسرح بانتظار تطوُّرات أخرى للوضع العسكري. وأضيف إلى ذلك أن السير بيرسى كوكس سيدرك أهمِّية عدم السماح لابن سعود أو غيره أن يشك في أن حكومة صاحب الجلالة أصبحت فاترة في عدائها لابن رشيد.

ولقد قوبلت الاقتراحات التي عملها السير بيرسي كوكس لإعادة النظر في هذا القرار، في ضوء معلومات جديدة، بإعادة التأكيد على الأوامر المعطاة سلفاً. وعبَّرت حكومة صاحب الجلالة عن نظرتها بأنه يجب ألاَّ يكون من الصعب أن يوضِّح لابن سعود أنه، مع كوننا راغبين في مساعدته في كل الطرق المناسبة، فإننا لسنا، في تلك الآونة بالذات، في وضع يمكِّننا من التعاون معه للقيام بعمليات عسكرية ذات طبيعة شاملة.

وأعترف بأني قد نظرت بشيء من الامتعاض والخوف غير القليل إلى المهمَّة التي وُكلَت إليَّ، لشرح الأمور لابن سعود بالمعنى المذكور أعلاه. ومع أنه لم تكن هناك حينئذ ضرورة عسكرية للقضاء على ابن رشيد فإنه لم يكن هناك، في الوقت نفسه، رفض عسكري لاستيلاء ابن سعود[1] على حائل. وكان من الصعب عدم قبول الاستنتاج بأن الميزان قد غُيِّر ضدَّ الأخير لاعتبارات متَّصلة بوضع الشريف: الخوف - كما أتخيَّل - من يقظة وهابية نشطة، وحرص الحكومة (البريطانية) على

(١) ورد في الأصل «ابن رشيد». ومن الواضح أن ذلك سبق قلم أو خطأ مطبعي.

تلافي إعطاء الشريف سبباً أو حجة للشكوى. وكان هذا، في رأيي، يمثِّل النظرة بأن ابن سعود سيفاجأ بالقرار الذي تُوصِّل إليه. وفي هذه النقطة لست مخطئاً. وقد أوضحت بكثير من الإشفاق النتيجة المحتملة لعدم رضاه في حالة عدم قدرتي على إبقائه نشطاً بالوسائل القليلة التي وُضعت تحت تصرُّفه.

وعلى أية حال فإن أوامر الحكومة كانت نهائية. ولعلمي بما عملتُه، بالنسبة لمتاعب ابن سعود المالية، أمَّلت أن أقوم بما أستطيع من خلال معالجة حكيمة في ضوء الحرية المالية المسموح بها لي. وطبقاً لهذا انطلقت في طريق عودتي إلى ابن سعود لأنقل أوامر الحكومة التي كانت كما يأتي:

١ ـ أن حكومة صاحب الجلالة كانت مسرورة أن توافق على أن تحوِّل إلى هدية مبلغ العشرة آلاف جنيه استرليني التي قُدِّمت قرضاً إلى ابن سعود عن طريقي قبل مغادرتي الرياض.

٢ ـ أن حكومة صاحب الجلالة، بينما هي غير قادرة على إمداد ابن سعود بالمدافع والأسلحة والمدرَّبين عليها في المستوى المقترح، فإنها مسرورة أن تهديه ألف بندقية ومئة ألف طلقة من الذخائر.

٣ ـ أن حكومة صاحب الجلالة، مع اعترافها بأن عمليات بالمقدار الذي فُكِّر فيه أساساً مستحيلة، فإنها كانت توَّاقة إلى وجوب إبقاء ابن سعود ضغطه على شمَّر ومحافظته على حصار (اقتصادي) صارم. ولذلك فإنها مستعدَّة أن تمدَّه بمبلغ كبير من

المال ـ المبلغ الذي قلته حقيقة لابن سعود كان خمسين ألف جنيه استرليني ـ ، وتضاعف مساعدته الحالية البالغة خمسة آلاف جنيه استرليني شهرياً في حالة استيلائه على حائل بالوسائل التي في حوزته .

ومن العبث التظاهر بأن ابن سعود لم يكن مستاء جداً بهذا التخفيض من البرنامج الأصلي . وقد عزا تغيُّر رأي الحكومة إلى مكائد الشريف ، التي لا بد أن حارسي الذي عاد من جدة إلى الرياض بدوني ، قد بالغ في تصويرها . وعلى أية حال فإن نقطته الأساسية كانت أن حالته المالية لا تسمح له بالمحافظة على أي شيء مثل العمليات النشطة في الميدان ضد ابن رشيد ، وبالتالي فإن قرار الحكومة مساو للتخلّي عن خططها الأصلية للتعاون النشط معه ضد العدو . وإن الوعد بمعاملة جميلة في حالة تحقيقه للمهمَّة ، التي لا يمكنه محاولة تحقيقها ، كان ذا فائدة عملية قليلة له . وقد أوضح أنه إذا كانت الإفادة التي نقلتها إليه تمثّل الأوامر النهائية المقرَّرة للحكومة البريطانية فإنه لا يستطيع إلا أن يخضع لقرارها ، ويأسف لعدم قدرته على أن يكون ذا مساعدة نشطة أبعد أثراً .

ولم يفاجئني موقف ابن سعود بالرغم من ذلك . وقد وُجهت باحتمال إنهاء بعثتي ؛ مدركاً أن ترك ابن سعود لرغباته الخاصة في جوٍّ من الرفض وعدم الرضى قد يؤدي إلى نتائج خطيرة ؛ خاصة أن علاقته بالشريف قد أصبحت متوتِّرة . ولذلك صمَّمت على أن أحافظ

على وضعي الذي كنت فيه مهما كلَّف الأمر. وبمراعاتي لهذا الهدف تحمَّلت مسؤولية عرض قرض على ابن سعود من النقود المخزونة في العُقَيْر، التي تبلغ عشرين ألف جنيه استرليني، بشرط أن يقوم باستعدادات لتجهيز حملة ضد ابن رشيد.

وقد ساعدت هذه الترتيبات في الشهور الأولى من الصيف، وجعلتني في وضع قوي. فبينما لم يكن حقي في البقاء مع ابن سعود موضع تساؤل ما دام غير قادر على تسديد القرض فإني استطعت أن أعارض تشكِّيه من استفزازات الشريف والعجمان وغيرهم؛ مبدياً أن علاج أمراضه يكمن في التنفيذ النشط للهجوم ضد حائل، الذي جعلته في وضع قابل للتنفيذ. ولقد ازداد الوضع السياسي سوءاً خلال الصيف، وازداد أهل نجد مللاً تحت وطأة هجومين للشريف على إخوانهم المتديِّنين في الخُرْمة، وغزوات العجمان المستمرة، وصعوبات الحصار وغير ذلك. لكن لأني كنت أقترب من نهاية مواردي فإني استطعت فقط أن أدعو إلى الهجوم على حائل علاجاً عاماً. وقد أدرك ابن سعود أنه يجب عليه أن يقدم على العمل إن كان يرغب أن يكون مؤهَّلاً لمزيد من المساعدة. وفي أثناء ذلك أفادت ترتيبات الهجوم، التي رمى بثقله إليها بكثير من الحماسة والنشاط، في صرف اهتمامه عن أمر الشريف.

وقد بدأ تركي، الابن الأكبر لابن سعود، الهجوم على شمَّر في

يوليو (١١/ ١٣٣٥ هـ) من آبار قبة[1] . لكن أمله خاب لأنه وجد أن رجال قبيلة شمَّر قد انسحبوا من هناك قبل تقدُّمه حتى أصبحوا بعيدين عن متناوله . وقد ساعد نكوص ضاري بن طُوالة عملياً أولئك الشمَّريين في هروبهم .

ولم يكن ابن سعود مستعداً للانطلاق بقوته الرئيسية قبل الخامس من أغسطس (٢٧/ ١٠/ ١٣٣٦هـ) . وكانت أول هبَّة له ضد حائل قرب نهاية سبتمبر وهو أول رجل من أسرته يصل إلى أسوار تلك المدينة معادياً .

ولأنه أضاع ، نتيجة تخطيط بطيء ، فرصة مواتية للقبض على ابن رشيد وحرسه الخاص في البرِّية ، غزا ضواحي تلك المدينة . ولعدم قدرته على التعامل مع ابن رشيد وهو في أعَيْوِج بَقْعاء[2] انقضَّ على رعاة شمَّر خارج حائل ، وقتل ثلاثين منهم ، ورجع بغنائم كبيرة تتضمَّن خمس مئة وألف بعير ، وعشرة آلاف طلقة من الذخائر ، وكثيراً من الغنم وأثاث الخيام .

وقد رفض ابن سعود صراحة أن يسمح لي بمرافقته في هذه الغزوة ، التي يكاد أفرادها كلهم يكونون من الإخوان ، على أساس التشدُّد لدى قومه ، وبسبب شكوكه الذاتية ، التي لم يستطع أن يعترف بها

---

(١) انظر ص ٨٣ ، هامش ٢ .

(٢) واد يفيض في بقعاء . وبقعاء بلدة تبعد عن حائل شرقاً بحوالى ٩٥ كيلاً . الجاسر ، **المعجم . . : شمَال المملكة** ، ج ١ ، ص ص ١٠٤ و ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

بالنسبة لموضوع المخاطرة، وتذكُّره مصير النقيب شكسبير في المناسبة الماضية عندما حاول الحسم مع ابن رشيد. وعلى أية حال فقد التحقت به في قُصَيْباء عند عودته من غزوته لحائل في الخامس والعشرين من سبتمبر (١٩/ ١٢/ ١٣٣٦هـ)، ووجدته واثقاً جداً من نتيجة غزوته لدرجة أنه أزال كل معارضة لبقائي معه. وفي أثناء ذلك حصلت على تفويض منكم[١] - في ضوء ضرورة إبقاء ابن سعود مشغولاً بنشاطه- وذلك بتمويله بمبالغ تصل إلى عشرة آلاف جنيه استرليني شهرياً. وكانت إفادته بهذه الأخبار ذات أثر طيب جداً لديه بحيث أن وصول أخبار محاولة ثالثة غير ناجحة للقوات الشريفية ضد الخُرْمة، تقريباً في اللحظة ذاتها، لم يوهن ابتهاجه. كان واثقاً جداً من تركيع ابن رشيد على ركبتيه بالجهود التي عزم على مواصلتها بكل قوة حتى يتحقق الهدف.

ولم يكن هو ولا أنا نعلم إلا قليلاً عن خيبة الأمل التي تنتظره. فحتى ونحن في طريقنا إلى الطُّرفية للتنسيق للجولة الثانية ضد حائل كانت قوات الأتراك العسكرية تنهار. وخلال الأيام الأولى من أكتوبر استلمت، بدون تفسير للتغيُّرات التي طرأت، تصريحاً بأن حكومة صاحب الجلالة ترغب أن يتوقَّف ابن سعود عن عملياته، وأنها في ظلِّ تلك الظروف غير مستعدةٍ أن تضع تحت تصرُّفه الألف بندقية التي

(١) الضمير يعود إلى من أرسل إليه التقرير، وهو المقدَّم ولسون، المندوب المدني لإدارة الأرضي المحتلة في العراق.

وعدته بها بدلاً من عدد مشابه لهذا العدد من أسلحة أقلّ مستوى من تلك التي سبق أن أُمدَّ بها.

ولمجيء هذه الأوامر بدون تفسير فإنها أدَّت إلى اهتياج قريب من الذعر. فقد ظن ابن سعود أن الشريف منغمس في تدبير مكائد ناجحة أخرى ضده، وعَبَّر بمرارة عن خيبة أمله للمعاملة التي تلقَّاها من الحكومة البريطانية. وبدأ الهجوم الأخير على الخُرْمة يظهر في منظار آخر. وأخيراً وصلت إليه رسائل من فخري باشا، قائد قوات المدينة، يهنئه بانتصار الإخوان على الشريف، ويعرض عليه أن يمدَّه بأسلحة وذخائر ليقوم بحملة ضد الشريف.

ويجب الاعتراف بأن الظروف التي تزامنت مع وصول تلك الأوامر كانت أسوأ ما يكون، وأن الأوامر نفسها بدت بدرجة كبيرة وكأنها قطع رسمي للعلاقات مع ابن سعود، الذي خاب أمله بشدَّة بحبس السلاح الذي سبق أن وُعد به، واحتار في تغيُّر خطط حكومة صاحب الجلالة تجاه حائل. وعبَّر عن نفسه بما يشبه عملياً الإنذار عندما قال: «من سيثق بكم بعد هذا؟ إن أهل نجد الذين انتقدوا دائماً سياستي بالتحالف معكم كانوا على حق في ذلك. ماذا سأقول لهم الآن؟ ليس هناك الآن إلا خياران يمكنني القبول بهما. دع رجال الحكومة البريطانية يختارون أيَّهما: إما أن تدع تحالفنا النشط ضد العدو يعاد تأكيده، وتقوم حكومة صاحب الجلالة بما عليها من مساعدة لي بالمال

والمعدَّات لتنفيذ العمل بنشاط، أو إذا كانت هذه الحكومة ترغب في أن أبقى بدون نشاط فإني مستعد تماماً أن استجيب لرغبتها، بشرط أن تضمن عدم الاعتداء عليَّ من أعدائي: الشريف، وابن رشيد، وشمَّر، والعجمان، وشيخ الكويت».

ولقد اعتقدت أنه من غير الملائم السماح لابن سعود أن يكتب هذا الإنذار، والأسباب التي دفعته إلى عمله، كتابة. ذلك أنه من المنصوح به، في نظري، ألاَّ يلزم نفسه بأية خطوة لا يمكن التراجع عنها أمام شعبه. وبناء على ذلك - وبعد نقاش طويل - اتُّفق على أن أذهب إلى الساحل فوراً لأعرض الوضع على الحكومة (البريطانية). وفي الوقت نفسه أفهمني ابن سعود أن الخيارين المذكورين أعلاه يمثِّلان أقلَّ مطالبه، وأنه إذا كانت الحكومة غير قادرة على تعديل قرارها فإنه سيعدُّ نفسه حراً في اتِّخاذ ما يراه من عمل وفقاً للظروف، وحماية لمصالحه، وأنه لا يتوقَّع عودتي إذا لم يُحقَّق مطلبه.

وتحطَّم عمل سنة أمام عيني. ولم يكن لديَّ إلا أمل قليل في أن الحكومة ستعدِّل، بأية درجة فعلية، قراراً بُلِّغ بعبارات مؤكدة جداً. وافترضت أنها قد رغبت في قطع العلاقات مع ابن سعود، أو كانت مستعدة لقطعها؛ سبيلاً وحيداً للخروج من مأزق وسط الجزيرة العربية. وتنبَّأت ببداية مبكِّرة للحرب بين القبائل الوهابية المغضبة بالصبر الطويل وقوات الشريف.

ولم تصلني، بعد وصولي إلى الكويت، أخبار التغيُّر العظيم، الذي حدث فجأة في الحرب في كل مكان؛ خاصة بالنسبة لتركيا،

وأصبحت قرارت الحكومة مفهومة لديَّ الآن. وتسلُّمي التفويض منكم ـ المصدَّر وفق قرار حكومة صاحب الجلالة ـ أن يفرج عن الألف بندقية لترسل إلى ابن سعود قد أزال مصدراً خصباً من مصادر الإثارة. وكنت قادراً على الكتابة إلى ابن سعود رسالة تأكيد شارحاً الأمور التي بدت تعطي معنى مختلفاً في المناطق الداخلية. وفوق كل ذلك كنت مقتنعاً أن ابن سعود أول من يعترف بأن أوامر حكومة صاحب الجلالة كانت النتيجة التي لا يمكن تفاديها لانتصارها على العدو، وأنها لا تحمل، بأي شكل من الأشكال، أية رغبة من جانبها لإنهاء علاقات الصداقة معه.

١٣ ـ الشريف وابن سعود: [١]

في القسم السابق من هذا التقرير كانت هناك مناسبة للإشارة، باختصار، إلى تضارب طموحات الشريف وابن سعود. ولم يكن الموضوع مقتصراً على كونه ذا أهمِّية من الدرجة الأولى بالنسبة لعمل البعثة النجدية خلال الفترة التي يغطِّيها هذا التقرير، لكنه يستحقُّ، أيضاً، تفكيراً جاداً بالنسبة لخطط حكومة صاحب الجلالة لمستقبل العالم العربي.

وعندما وصلت إلى الرياض، في ديسمبر عام ١٩١٧م، أصبح واضحاً على الفور أن ابن سعود كانت تحرِّكه غيرة شديدة من الشريف، وخوف حقيقي من ادِّعائه السافر بأن يُعدَّ السيِّد، إن لم يكن الحاكم الحقيقي، لجميع الأقطار العربية بفضل مكانته المتمثِّلة في كونه الرئيس الروحي للإسلام السّني. وقد اتخذ أسلوباً واضحاً لتوجُّهه ذلك باتخاذه لقب «ملك الأقطار العربية» أو «ملك ديار العرب»[٢]. ولم يخف ابن سعود شكوكه في أن اتِّخاذ هذا اللقب مبني على تفاهم سرِّي مع حكومة صاحب الجلالة، وعدم استعداده لقبول الوضع المترتِّب على هذا الادِّعاء، وقلقه من أن تكون تعهُّدات حكومة صاحب الجلالة تجاهه الواردة في المعاهدة التي وقعها السير بيرسي

---

(١) عن تاريخ العلاقات بين الطرفين، في هذه الفترة بالذات، يمكن الرجوع إلى ترولر، ص ص ٧٥ـ ٨٣ و ١٠٧ـ ١١٧؛ العثيمين؛ **تاريخ المملكة** . . ، ج٢، ص ص ١٥٤ـ ١٦٠ و ١٨٣ـ ١٨٦.

(٢) أوردها فيلبي بالإنجليزية King of the Arab Countries. لكنه أوردها بكلمات عربية مكتوبة بحروف لاتينية «ملك ديار العرب». والمعروف أن الحسين اتَّخذ لقب «ملك العرب».

كوكس، عام ١٩١٦م[1] ، ستتأثر سلبياً بترتيباتها مع الملك (حسين)، ولقد سارعت إلى التأكيد لابن سعود على أن حكومة صاحب الجلالة ليس لديها أية نيَّة مهما كانت للتخلِّي بأي شكل من الأشكال عن التزامات معاهداتها نحوه، وأن الشريف لم يكن مفوَّضاً من حكومة صاحب الجلالة في اتِّخاذ اللقب المشار إليه. وكانت مقدرتي، مرة أخرى، على التأكيد لابن سعود على تلك الأمور حين عودتي من مصر ـ حيث أتيحت لي فرصة فسيحة لمناقشة المسألة ـ قد أثَّرت بدرجة كبيرة في جعله ميَّالاً إلى أن يقبل بسهولة تعديل حكومة صاحب الجلالة للاقتراحات العسكرية التي كانت لديَّ أوامر بإبلاغه إيَّاها.

وخلال نقاشي مع الشريف، الذي تمَّ في جدة في يناير سنة ١٩١٨م (ربيع الثاني ١٣٣٦هـ)، خرجت بانطباع مفاده أن غيرة ابن سعود من الشريف وعدم ثقته به كانا مساويين لموقف الأخير المتصلِّب تجاه ابن سعود الذي يعدُّه العقبة الرئيسية أمام تحقيق طموحاته الخاصة للسيادة في كل جزيرة العرب. وكان هذا - وما زال وسيظل دائماً- هو موقفه. لكن من الجدير بالتفكير أنه كان من المحتمل، في المراحل الأولى من الحرب، أن يحصل الشريف على اعتراف رسمي، مهما كانت درجته، من ابن سعود بلقبه ذلك لو تبنَّى سياسة أكثر مرونة.

---

(١) من الواضح أن المقصود بتلك المعاهدة معاهدة دارين، أو القطيف، التي عُقدت سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٥م، وصُدِّق عليها بعد سبعة شهور من عقدها. وهي الملحق الثاني من هذا التقرير. انظر ص ص ١٩٨ـ٢٠٠.

وكان ابن سعود دائماً في حاجة إلى مساعدة مادية ومالية. وفي مقابل ذلك لم يكن من غير المتوقَّع أن يكون مستعداً لوضع إمكاناته تحت تصرُّف الشريف لتنفيذ عملياته ضدَّ العدو المشترك؛ وذلك كما فعل، أو حاول أن يفعل، أخيراً معنا خلال فترة نشاط البعثة. أما الشريف، على أية حال، فقد اتَّبع سياسة تجريد ابن سعود من الموارد وتقويض قوته؛ وذلك بإمداد رجال القبائل النجدية بالسلاح والمال رشوة لحثِّهم على ترك تحالفهم مع ابن سعود. وبهذا العمل أثار غيرة ابن سعود، وكسب عداوته الدائمة، وأضاف، في الوقت نفسه، قوة إلى قوته بتسليحه أناساً إذا ما سُلِّحوا سوف يتَّجهون، بطبيعة الحال، إلى ابن سعود ليقودهم.

وقد قضى ابن سعود كل فترة عهده في تثبيت سلطته في أراضيه الخاصة به، وحصل من حكومة صاحب الجلالة على اعتراف بسيادته واستقلاله التام داخل تلك الحدود القابلة للتحديد الدقيق مستقبلاً. ومرَّة أخرى كان حكيماً بما فيه الكفاية ليعترف أنه لم يكن ولن يكون أبداً قوياً في ظل الأوضاع الحديثة، بحيث يمدُّ حدوده. ولذلك انطلق يبني حكمه بثبات على أساس النظام الوهابي داخل حدود تمَّ توسيعها توسيعاً مرضياً. وقد شعر الشريف أن في سياسة التثبيت هذه خطراً على أمن وضعه الخاص. والواقع أن هذه السياسة لم تكن، في أسوأ الأحوال، أكثر من ضمان ضد الخطر على السيادة الوهابية. وبدلاً من أن يبدأ ذلك الشريف بالعمل للقضاء على الوهابية المتجدِّدة بالرفق مضى يلهب حماسة أهل نجد بالقضاء على الفئات الوهابية التي

يطولها. من ذلك مسلسل الحوادث في الخُرْمة، وممارسة الطغيان تجاه النجديين المستقرين في الحجاز، وإغلاق أسواق الحجاز أمام التجارة النجدية.

ومن الصعب مقاومة النتيجة التي مؤدَّاها أن الشريف قد أوضح، من خلال إدارة علاقاته بأقرب جار قوي له، فقدانه المؤسف للتكتيك والأسلوب اللذين هما الصفات الأولى للنبل؛ وذلك بالرغم من الميزات العظيمة التي كان يتمتَّع بها بفضل مكانته الروحية والموارد التي وضعت تحت تصرُّفه من قبَل قوة ميَّالة إلى مساعدته بكل طريقة لتحقيق حلم الوحدة العربية. وفي هذا الإطار، وفي ضوء الاتِّجاه العام للسياسة البريطانية بالنسبة للشؤون العربية - كما يمكنني أن أفهمها - لا أستطيع أن أوجز الصعوبات، التي يبدو لي أنها ستكتنف طريق حكومة صاحب الجلالة في مستقبل تعاملها مع جزيرة العرب، في كلمات أكثر إبداعاً وشاعرية من تلك التي بدت في الصفحة ٢٠٣ من كتاب السيد ج. وايمان بيري Wyman Burry : **جزيرة العرب غير السعيدة:**

«أحد المبادئ الأولى في مهارة الدولة في التعامل مع الشرق هو ألاَّ تقف أبداً وراء حاكم مفضِّلاً إياه على الآخرين ما لم يكن بصفاته الشخصية ومكانته وموارده مؤهَّلاً لاستخدام قوة عظيمة. وهذا يعني أن الزعيم إذا لم يكن قادراً على أن يحكم بدون مساعدة فإن مما لا يفيد كثيرا محاولة مساعدته بقوة علنية بين أجناس محاربة. ذلك أن مجرَّد

المساعدة الأجنبية ستخلق أعداء له حتى يصبح نوعاً من الموصِّل السَّريع للعواصف السياسية، وتتلقَّى سلطاته الصدمة».

وبنوع من عدم الثقة أجازف بعرض خطة الشريف للأمور لأني مدرك أني أنظر إليه من خلال منظور نجدي وكأنه تجسيد لمثالية خيالية، لكنني أملك ميزة السماع من شفتيه خططه لإعادة بناء العالم العربي، والحد الأدنى المتعذِّر إنقاصه من المتطلَّبات للوضع، وبعض الشيء من الأساليب التي يأمل أن يعمل بها لتخليص الجنس العربي. وفي الوقت نفسه رأيته، من الجانب الآخر للمسرح، مقيماً ضدَّ نفسه؛ ربما بإرادته، أو بسبب نقص تجربته السياسية والإدارية، عقبة كأداء دون تحقيق أهدافه. وأستطيع أن أقول فوراً إني لا أشارك الرأي بأنه مدفوع برغبة صادقة غير أنانية لرفاه الجنس العربي وعقيدة الإسلام أكثر من كونه مدفوعاً بطموح شخصي لذاته وأسرته. لكن ذلك أمر قليل الأهمية.

وفي مناقشة الشريف تاريخياً لأصول ثورته والدوافع التي أوحت بها تحدَّث بحرية عن وثائق خطِّية معيَّنة في حوزته. ولم أستطع أبداً أن أحصل على معلومات من أي مصدر آخر عن بعض ما تضمَّنته. بل إن مجرد وجودها، أو صدقها، يبدو محلَّ شك. وقد أعلن أن تلك الوثائق تشكِّل صكاً بحقوقه. وسوف يظهرها في اللحظة النفسية المناسبة. وهو واثق أن الحكومة البريطانية سوف لن ترجع عن كلمتها التي تعهَّدت بها أبداً.

وقد ادَّعى ضمنياً أن تلك الوثائق قد اشتملت على اعتراف بمطلبه بأن يكون ملك الأمم العربية. وسيعطى لهذا المطلب أثر عندما تتحرَّر جميع الأمم العربية من السيادة التركية، التي وقفت ضد وجود الوحدة العربية. ولقب «ملك الحجاز»، الذي ألزمت الحكومة البريطانية علناً نفسها به وحده ما هو إلا سراب لا معنى له، وغير مقبول لديه. ولكنه يعترف بأن تعديلات طفيفة في السياسة يمكن التغاضي عنها؛ بل لا يمكن تفاديها - كما في مسألة فلسطين - التي احتُلَّت حديثاً. وبالرغم من ذلك فإنه لن يرضى بأي شيء أقلَّ من الاعتراف التام بطموحه الأساسي. وفي حالة فشله في ضمان ذلك فإنه سيفضِّل تقاعداً شريفاً تحت رعاية الحكومة البريطانية على سيادة محدودة. وفي أثناء ذلك ألحَّ على أمرين: الأول أنه يجب علينا أن نمتنع، ما أمكن، عن مغازلة غيره من الفئات العربية لأن أي تعامل مع حكام عرب مستقلين؛ مثل الإدريسي وابن سعود، يعدُّ من الأمور التي تجعل جني ثمار خططه أكثر صعوبة؛ مؤكِّداً أنه قد جعل خطَّته جاهزة لإزالة كل العقبات من طريقه وطريقنا عندما تجعله نهاية الحرب مع تركيا حراً ليوجِّه اهتمامه إلى جهات أخرى. والثاني لكونه من الضروري أن توجد لدى الأجناس العربية المتعدِّدة فكرة ملموسة للوحدة يثقِّفون أنفسهم لها، ويركِّزون اهتمامهم عليها فإنه يجب أن يُعترف له رسمياً باللقب الذي اتَّخذه بنفسه وهو «ملك الأقطار العربية». وكانت الحلقة المفرغة، التي أشار الرائد هوجارث بذكاء إلى أنها تكمن في هذا التسلسل من النقاش، قد تركته خالي الوفاض. فقد ظنَّ أنه سيصبح ملك العرب

لأنه يلقَّب بذلك، تماماً كما لو حصل على حق التلقُّب بهذا إذا أصبح ملكاً للعرب فعلاً.

ومهما كان ذلك فإن حكومة صاحب الجلالة، بالرغم من عرض الملك المتكرر، وجدت نفسها غير قادرة على أن توافق على مسألة اللقب. على أنها- حسبما أعرف- لم تبد رفضاً رسمياً لاستعماله المستمر للقب، الذي لم توافق عليه، في مراسلاته الرسمية. ولم تكن لمسألة اللقب إلا أهمِّية قليلة. غير أن ابن سعود، الذي كان فيما يبدو مستعداً للاعتراف بلقب «ملك الحجاز»، قد عمل إشارة خاصة- بالرغم من عرضي للموضوع- ؛ وذلك بإجابته: «إلى شريف مكة» عندما ترد إليه رسالة من الحسين تحمل لقب «ملك الأقطار العربية». أما بالنسبة للنقطة الأولى فإن تعديل حكومة صاحب الجلالة لخططها المتَّصلة بعمليات حائل كان إذعاناً واضحاً لمطالبة الملك بأن يكون الزعيم الوحيد الذي يحظى من الحكومة بالاعتبار العالي والهبات السخيَّة.

وكان أكثر تركيز نشاط الملك على محاولته الحصول على اعتراف بمكانته الزمنية، أو السياسية، كما أذكر، ولم يقل في محادثات جدة إلا شيئاً قليلاً عن موضوع الخلافة. فتلك بالنسبة له لا تمثّل صعوبة، إذ سيأخذها في طريقه. فادِّعاؤه الروحي بأنه أعظم الأحياء من ذرية النبي (صلى الله عليه وسلم) لا جدال فيه. ومهما يكن فإن المؤمنين لن يرفضوا خلافة من سيخلف سلطان تركيا في دور القوة الإسلامية

المستقلة العظمى. والواقع أن اسم «حسين بن علي» قد بدأ، فعلاً، في أجزاء متعدِّدة من العالم، يملأ الفجوة التي كانت في زمن ما مملوءة بالحاكم العثماني في الخطبة الرسمية لصلاة الجمعة. وعلى أية حال فإن الحذر ضروري في هذا الموضوع؛ وذلك فيما يتَّصل بالفئة الوهابية في وسط الجزيرة العربية. فقد عبَّر السير بيرسي كوكس، في مؤتمر عُقد في القاهرة في مارس سنة ١٩١٨م، واطَّلعت حديثاً على تفصيلاته، عن رأيه في أن ابن سعود في الوقت الذي لن يعترف فيه أبداً بسيادة الشريف السياسية عليه، أو تبعيته له، فإنه من المحتمل أن يكون مستعداً أن يقبل مطالبته بالخلافة. وهذا صحيح، لكن مع تحفُّظ مهم؛ وهو أني - بخلاف رأي السير بيرسي كوكس - أحسب من الضروري القول: إن ابن سعود يرى أن الشريف مؤهَّل ليكون خليفة للإسلام السُّني مثل غيره، أو أكثر من غيره بمن فيهم سلطان تركيا، بفضل انتمائه النسبي المباشر إلى النبي (صلى الله عليه وسلم). لكني أشك في أنه ما زال متمسِّكاً باستعداده لقبول مطالبة الشريف بلقب الخليفة؛ وذلك لأنه يَعدُّ ما يُسمَّى بالإسلام السُّني تحريفاً لتعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم)، التي يمثِّلها المذهب الحنبلي، أو الوهابي، وحده[1]. وبينما لا يعارض كون الشريف، أوغيره، خليفة فإنه لن يقبل، بأية حال، سيادته الروحية عليه وعلى شعبه.

---

(١) انظر ص ١١٧، هامش ١، حيث أشير إلى حقيقة موقف الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، وأنهم من أحرص الناس على التمسُّك بكتاب الله وسنَّة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم.

ويبدو لي مؤكَّداً، كأي شيء إنساني، أن الشريف ما لم يستعمل القوة فلن يحصل أبداً على السيادة أو السيطرة على نجد. ولقد أشرت أعلاه كيف كان من المحتمل أن يغيِّر تبنِّيه لسياسة مختلفة عما تبنَّى تاريخ ذلك القطر بالنسبة له. وربما قلت ما هو كاف لإيضاح أن الأمل الأخير في الوحدة العربية اختفى بأول هجوم شريفي على الخُرمة إن لم يكن قبله.

وعلى أية حال فإني أفهم أن حلم الوحدة العربية تحت حاكم واحد، الذي اشتهر في المراحل الأولى من المفاوضات مع الشريف، قد أقلع عنه كل الدارسين الجادين لتلك القضيَّة. وبالرغم من ذلك فما زالت هناك ضرورة للعثور على حلٍّ للقضيَّة العربية إذا كنا حتماً غير مستعدين لترك جزيرة العرب لمشكلاتها مع احتمال استمرار النزاع وسفك الدماء فيها. وتشير المراسلات الحديثة إلى إحياء الهدف القديم بطريقة معدَّلة تتمثل في الصيغة الآتية: «الأولوية للملك حسين بدون إجحاف بالحقوق الوطنية للزعماء العرب الآخرين»، والتي وردت في برقية المندوب السامي في مصر، بتاريخ الثاني عشر من أغسطس عام ١٩١٨م (٥/ ١١/ ١٣٣٦هـ).

ولست متأكِّداً مما إذا كان يقصد بهذه السياسة أن تكون مرادفة لما يسمِّيه المندوب السامي «السياسة المهيمنة» في خطاب كُتب في مايو ومعه مفكِّرة مطوَّلة للعقيد سي. إي. ولسون، الوكيل البَريطاني في جدة، موجَّهة إلى حكومة صاحب الجلالة للدراسة. وقد بُسِطت فيه

بالتفصيل فكرة إقامة الملك حسين سيداً لكل الحكام العرب، وتهيئتهم لقبول مثل هذه الفكرة.

ومفهوم الأولوية والسيادة في الواقع واحد. ومهما يحدث فإن مما لا شك فيه أن الملك حسيناً سيكون دائماً أعظم واحد في العالم العربي؛ وذلك بفضل نشاطه خلال الحرب، والأراضي التي يعتقد أن يسيطر عليها، والموارد الكبيرة التي تحت تصرُّفه، ومكانته العالمية في المسائل الروحية. ومن الواضح، على أية حال، أن المندوب السامي قصد شيئا أكثر من هذا ـ وذلك ما رغب فيه وما رغب الملك حسين بدون شك ـ وهو أن سيادته العامة يجب أن تفرض على كل الحكام الآخرين الذين في إمكاننا التأثير عليهم، سواء بالضغط السياسي أو بغيره.

وأعترف أني اعتبرت هذا الهدف خيالياً تماماً مهما كان مرغوباً فيه من وجهة نظر الملك حسين وحكومة صاحب الجلالة. ويجب أن يكون قول السيد بيري، المقتبس سابقاً، تحذيراً كافياً ضد أية محاولة لفرض حلٍّ للمشكلة على جزيرة العرب. وذلك - على الأقل - لئلا نثير معارضة للشريف نفسه لدرجة أن وضعه سيصبح مزعزعاً، وأن الحكومة البريطانية ستجد نفسها مدعوَّة للتدخُّل لحفظ السلام؛ بل لحماية مكة.

ويجب على الشريف ألاَّ يلوم إلا نفسه على التوتُّر الذي يوجد بينه وبين ابن سعود. فهجماته على الخُرْمة ستبقى ملتهبة طويلاً في صدور

أهل نجد مثالاً على أسلوبه في الاسترضاء. وقد كفَّ ابن سعود يده طويلاً بالرغم من استفزازات الشريف؛ وذلك مراعاة لمصالحه الذاتية في الاحتفاظ بعلاقات صداقة معه على أساس مكانته الخاصة لدينا. بل إنه قدَّم غصن الزيتون في شكل رسالة ودية كُتبت، بناء على اقتراح مني، ضدَّ نظرته الصائبة، لكنها في النهاية، كانت تلقائية. وقد أعيدت إليه تلك الرسالة دون أن تُفْتَح، وعُومل حاملها نفسه بإذلال؛ بل وهُدِّد، وألقى الملك نفسه تعليقات قاسية قَوية ضدَّ ابن سعود.

وأمام تصرُّف الشريف هذا يبدو لي أنه من العبث الادِّعاء بأن لديه أدنى رغبة في المحافظة على أي رمز من علاقات الصداقة مع ابن سعود. وسيكون من الصعب تحمُّل مزيد من الإهانة والوقاحة العلنيتين . واعتقاد أن ابن سعود سيقبل بإرادة سيادة الملك أو الاعتراف بعلوِّ مكانته بأية طريقة قد يكون ضرباً من الخيال.

ولهذه الأسباب فإني أعدُّ الهدف المعدَّل «للسياسة المهيمنة» غير قابل للتحقيق، وأرفض أي تغيير ممكن آخر لقوة مهيمنة على كل الأراضي العربية سوى نجد لكون ذلك حتماً سيوجد صعوبات مشابهة تماماً للصعوبات الحاضرة. فبالرغم من كل جهود الشريف وأبنائه لاسترضاء ابن رشيد خلال الشهور القليلة الماضية فإن ارتباطه بابن سعود لتكوين حماية مشتركة بينهما ضد طموحات الشريف أكثر احتمالاً من قبوله سيادة هذا الأخير عليه. ومسقط والبحرين ودول الساحل المتصالحة أقلُّ احتمالاً أن تختار دمج استقلالها في وحدة

جزيرة العرب. والإدريسي وإمام اليمن لن يكسبا شيئاً باتباع الشريف. وأبعد من هذا ليس هناك ـ حسب تجربتي الشخصية ـ إلا أساس ضعيف لافتراض أن أهل بلاد ما بين النهرين سينقادون للسيادة الشريفية إلا بالقوة وبمقاومة شديدة جداً.

وإني لأعلم تماماً حقيقة أن انتقاداتي ذات طبيعة هدَّامة، وأنها لا تحتوي على بذور سياسة بنَّاءة. وأقول فقط إن مصالح الدول العربية المختلفة، التي تكوِّن العالم العربي، مختلفة اختلاف مصالح مناطق الهند وولاياتها المتعددة، وعاجزة مثلها عن أن تنصهر في كيان سياسي منسجم إلا تحت تأثير نفوذ أجنبي قوي قادر، في أقل الأحوال، على حفظ السلام العام بين الفئات المتنافرة والمصالح المتعارضة[1].

والوحدة العربية، بصفتها مثلاً أعلى في المعنى العريض للمصطلح، من المعتقد أن تتلاشى في فراغ. وسمعتنا ونفوذنا في وسط الجزيرة العربية قد واجها بُعْداً خطيراً، وإن لم يكن متعذّر التغيير خلال محاولاتنا بثَّ الحياة فيها. ولا أرى أمامنا حلاً معقولاً للمشكلة إلا بالاعتراف بمثل تلك الدول العربية التي نجدها تتمتَّع باستقلال سياسي، كما لا أرى في المستقبل دوراً أكثر تشريفاً وإرضاء للآمال البريطانية من ضبط مصائر دول جزيرة العرب المستقلة تحت سيطرة سياسية غير محكمة الرباط، مسؤولة فقط عن مَرْكَزة النزاع وحفظ

(١) ليس غريباً أن تكون نظرة فيلبي إلى هذه القضيَّة خاطئة متعالية؛ خاصة في ذلك الوقت الذي كانت دولته، بريطانيا، تتمتَّع خلاله بنفوذ عالمي كبير.

السلام، حيث تتعرَّض مصالح الأغلبية للخطر، وذلك باستثناء المسؤولية المعنوية لنا وللدول نفسها عن تطوير مواردها.

ولقد اعتادت حكومة صاحب الجلالة، خلال السنوات القليلة الماضية، أن تعدَّ الشريف أقوى سلطة في جزيرة العرب. واتَّجهت ـ ربما بخجلها غير الواعي ـ إلى تقليل الدور الذي لعبته في عملياته العسكرية بما وضع تحت تصرُّفه من القوَّات والموارد؛ إضافة إلى خدمات الضبَّاط البريطانيين. ولذلك فإنه ليس من غير الضروري تماماً لفت النظر إلى قوَّة نجد المتنامية المؤسسة على تأثير عامل موحِّد معتمد على عقيدة متشدِّدة صلبة، ومثبَّتة ـ بعد سنوات من العمل الدؤوب ـ على يد عاهل يشغل اليوم في تقدير العرب المكان الذي كان يحتلُّه بالأمس محمد بن رشيد[1]. وعلى أية حال فإن من واجب حكومة صاحب الجلالة أن تتفادى إثارة تلك القوَّة لئلاَّ تقدم على العمل. وإن المرء لايستطيع إلا أن يرجو أن تبنِّي مثل هذه السياسة لن يثبت أنه يتناقض كلية مع الاعتراف بالدور العظيم الذي لعبه الشريف خلال سنوات الحرب.

---

(١) لا شكَّ أن الملك عبد العزيز قد بلغ ـ في الفترة التي يكتب فيها فيلبي تقريره ـ مكانة أعظم من تلك التي بلغها الأمير محمد بن رشيد؛ خاصة أنه قد وحَّد المنطقة الشرقية من البلاد، التي لم تدخل ضمن إمارة ابن رشيد، وأنه نجح في تكوين حركة الإخوان.

١٤ ـ اليقظة الوهابية:[١]

لقد وجد العقيد هاملتون ، في رحلته إلى الرياض في أكتوبر سنة ١٩١٧م، فرصة للعبور مع طريق لا يبعد إلا مسافة يوم واحد عن الأرطاوية أحد مراكز الحركة الوهابية الجديدة التي تسمَّى بالإخوان[٢] . وأعجب بما سمعه عن تعاليم هذه الفئة المتشدِّدة، وقَبل ـ دون تثبُّت ـ تقديراً مَحلِّياً لسكان تلك المدينة على أنهم خمسة وثلاثون ألفاً . وإني لمقتنع أن تفكيراً قليلاً كان سيمنعه من كتابة تقرير عما سمع من معلومات دون استقصاء . وليس من غير المحتمل أنه لم يتوقَّع أن يؤخذ تقريره مأخذ الجد . أولاً أنه من غير المحتمل أن تبرز مدينة ، خلال سنوات قليلة، لتكون ضعف أكبر مدينة في وسط الجزيرة العربية . وثانياً ـ وهذه النقطة في اعتقادي حاسمة ـ أن التقدير المحلِّي للسكان مشهور بأنه لا يُعتَمَد عليه . وقد يكون من الأسلم أن يُعتَمَد في هذه الحالة على نهج دوتي ، الذي كان يُخفِّض مثل هذه التقديرات

---

(١) المراد بذلك ما عُرف بحركة الإخوان، وهي حركة تمثِّل منعطفاً تاريخياً في حياة بادية وسط الجزيرة العربية ؛ وعياً دينياً، واستقراراً اجتماعياً، وتوطُّداً أمنياً. ذلك أنها حركة تحضُّر واستقرار قائم على نهج قوامه تعلُّم الفرد ما هو ضروري من أحكام دينه، وتطبيقه لما تعلَّمه. ومن أوفى الكتابات عنها رسالة جون حبيب للدكتوراه، التي ظهرت في كتاب ترجمة عنوانه **محاربو ابن سعود في سبيل الإسلام،** لايدن، ١٩٧٨م. وهناك لمحة موجزة عن نشأة تلك الحركة في كتاب **تاريخ المملكة ،** لكاتب هذه السطور، ج٢ ، ص ص ١٦١ ـ ١٦٤ .

(٢) الأرطاوية : كانت في طليعة المستقرَّات (الهجر) التي اتَّخذها الإخوان عند بداية حركتهم . وتقع شمال شرقي الزلفي بحوالي ٣٠ كيلاً . وقد بلغت شأواً عظيماً تحت قيادة فيصل الدويش زعيم قبيلة مُطَير وأحد قادة الإخوان الكبار . وقد نال مكانة رفيعة لدى الملك عبد العزيز ، لكنه أصبح في نهاية الأمر من المنشقِّين عليه . وكان أحد كبيري قادة هؤلاء المنشقِّين في معركة السبلة سنة ١٣٤٧ هـ.

كلها بنسبة ٩٠٪ . وقد رأيت المدينة، من مسافة قريبة، في أكتوبر سنة ١٩١٨م (محرَّم ١٣٣٧هـ). وإني لمقتنع بأن سكانها يتراوحون بين عشرة آلاف واثني عشر ألفا.

وإذا كان هذا هو الواقع فقد وجدت، عند وصولي إلى جدة والقاهرة، أن تقرير العقيد هاملتون قد نال شهرة رسمية وقدراً مقلقاً من التصديق؛ مسبِّباً إنذاراً غير قليل ودافعاً السلطات المسؤولة عن الشؤون العربية إلى وضع أهمِّية للتقارير الواردة من مصادر منحازة أكثر من تلك المدعَّمة بالحقائق عن نموِّ اليقظة الوهابية وأهدافها. وقد ظهر في «النشرة العربية» Arab Bulleten رقم ٧٤ سنة ١٩١٧ م تقرير كتبه المقدَّم تي. إي. لورانس؛ ممثِّلا لوجهة نظر الشريف فيصل. وقد لقيت آراء الشريف عبداللَّه، في أثناء ذلك، شهرة في الدائرة ذاتها. وشعرت أن الموضوع كان قد حُكم فيه مسبقاً على معلومات ليست كافية إطلاقاً. واستنكرت وضع أَهمِّية كبرى لوجهات نظر أفراد من الواضح تحيُّزهم، وعملت ما استطعت لإغفال الآراء الخطيرة، التي أخذتها الأوساط العليا عن الأوضاع السائدة. لكن الدوائر الشريفية عملت أكثر ما يُتَخيَّل من التهديد. وصوَّرت اليقظة الوهابية على أنها تهديد مباشر للسلام والأمن في جزيرة العرب.

وقد حدثت واقعة فريدة في ذلك الوقت تقريباً لتعطي لوناً للقصص التي يوزِّعها أبناء الملك (حسين). وكانت تلك هي الحادثة الوحيدة خلال اثني عشر شهراً، كما أعلم، لغليان نشط من قِبَل الحركة

الوهابية المحاربة المخيفة في ذلك الوقت تقريباً. فقد اشتبك فريق غير وهابي من رجال قبيلة عُتَيبة، ومعهم شيخ من مشائخهم، مع إخوان من الغطغط[1]. وكان من الواضح أن أولئك الرجال اجتمعوا للغزو أو النهب، وقد دفعوا من حياتهم ثمناً لتهوُّرهم. وسارع أقاربهم الجرحى إلى الشريف ليثأر لهم. فرسم هذا الأخير صورة مخوِّفة لهيمنة الدعاة الوهابيين، وضرورة خضد شوكة الحركة في مراحلها الأولى. واتَّهم ابن سعود بتغذية الحركة لمدِّ طموحاته السياسية الخاصة.

ويكفي أن يقال: إنه، من ذلك الوقت فما بعده، كان للخوف من النموِّ الوهابي دور غير قليل في جعل حكومة صاحب الجلالة تنظر سلبياً إلى أي اقتراح يمكن أن يزيد في قوَّة ابن سعود العسكرية. وكانت الأزمة التي سبَّبتها هجمات الشريف على قبائل الخُرْمة الوهابية، والاحتمال المتنامي لحدوث عداء سافر بين ابن سعود والملك (حسين)؛ وهما الأمران اللذان خيَّما على الجزء الأخير من الفترة التي يتناولها هذا التقرير، مما ثبَّت تردُّد الحكومة تجاه تسليح ابن سعود بالرغم من الاعتراف بضرورة إبقاء اهتمامه مصروفاً عن الشؤون الشريفية بإشغاله النشط ضد العدو.

وقد مالت دراسة لاحقة للوضع في وسط الجزيرة العربية إلى تأييد وجهة نظري بأن الخطر الوهابي، كما يُسمَّى، كان تخيُّلا من عقول

---

(١) تقع الغطغط غرب الرياض في الطريق إلى الحجاز. وكان رئيسها في ذلك الوقت سلطان بن بجاد، أحد كبار زعماء الإخوان قاطبة، والقائد الذي كانت له جهود كبيرة في معركة تربة وتوحيد الحجاز. ثم أصبح أحد كبيري قادة المنشقِّين على الملك عبدالعزيز في معركة السبلة.

متحيِّزة. وأصبحت مقتنعاً أن ابن سعود يملك السيطرة الكاملة على الحركة. وأصبح يزداد وضوحاً، في الوقت نفسه، أن أكبر عامل ينذر بخطورة الوضع تصميم الشريف الواضح على إثارة ابن سعود ليضع قوّات الوهابية في حركة ضدّه هو؛ إما لإقناع حكومة صاحب الجلالة بصدق تحذيره، أو، في أسوء الأحوال، ليجبرها على أن تختار بينه وبين ابن سعود: مأزق من الواضح أنه لا يمكن تجاوزه إلا باتّجاه واحد. ولعلَّ هذه الحقيقة لم يتمَّ إدراكها بشكل كاف. ولم يكن إصرار الشريف في مسألة الخُرْمة، التي لم تكن مهمَّة فيً حدٍّ ذاتها، ليحقِّق هدفاً أكثر من إثارة ابن سعود ليقدم على حرب مكشوفة. وكان هذا واضحاً لابن سعود الذي لم يكن أعمى عن النتائج المحتومة لعمل يقوم به لتأكيد حقوقه بالقوَّة. وكان تصميمه على تفادي سحبه إلى صراع في مسألة ليس لديه شعور قوي تجاهها، بحدٍّ ذاتها، مساوياً للصعوبات التي عرفها في إقناع رعاياه على الصبر. ومن حسن حظِّه أن أهل الخُرْمة كانوا قادرين على تدبير أمورهم بأنفسهم. ومن المؤكَّد أن هزيمة قوَّات الشريف لهم كانت ستعجِّل بالصراع.

ومنذ أزمان سحيقة اكتنفت طريق من حاولوا أن يحكموا جزيرة العرب صعوبتان كبيرتان: العادات البدوية لرجال قبائلها، والافتقار إلى هدف واحد يلمُّ شملها. وقد استطاع آل رشيد، إلى حدٍّ ما أن ينتصروا على هاتين الصعوبتين بسبب التكوين الخاص لقبيلة شمَّر، التي تأكَّد تضامنها بامتلاكها عاصمة مشتركة وحاكماً منها. لكن الوضع يختلف بالنسبة لآل سعود، الذين هم سلسلة من الحكَّام لا

يقوم حكمهم على أساس قبلي، ويسكنون في مركز من صنعهم، ويحكمون اتِّحاد قبائل لم تكن أبداً غير مستعدَّة لفسخ ولائها إذا ما أصبح غير مريح لها[1].

وتمثِّل الحرب الأهلية - إذا صحَّت تسميتها بهذا الاسم - خلال العقدين اللذين أعقبا وفاة فيصل (بن تركي) هذه المسألة أدقَّ تمثيل. وما كاد حاكم نجد الحالي يأتي إلى عرش الرياض حتى وجد نفسه مضطراً لمواجهة الصعوبات ذاتها. فالمنافسون من أسرته هو لم يرفعوا راية الثورة ضدَّه فحسب؛ بل حظوا بمساعدة قوية بين قبائل نجد وسكان مدنها[2].

وعلى أية حال فإن عبدالعزيز بن سعود أثبت أنه رجل من طراز غير عادي. فقد قضى السنوات الأولى من عهده في طرد الغزاة الأجانب من حدوده القصوى. ثم تلت ذلك فترة كان عليه أن يواجه خلالها

(١) نظرة فيلبي هذه من الواضح عدم صحَّتها. فحكم آل رشيد القائم على أساس قبلي، أو إقليمي، لم ينجح ذلك النجاح المؤقَّت إلا لظروف سياسية معروفة، ثم زال بزوال تلك الظروف. والحكم السعودي قام على أساس عقدي. ولذلك كان جديراً بأن يلقى التأييد العام من سكان البلاد. ولعلَّ مما يوضِّح ذلك تجاوب سكان نجد مع الإمام تركي بن عبدالله؛ إذ لم يمرَّ عامان على إخراجه قوَّات محمد علي من نجد حتى دخل تحت لوائه جميع الأقاليم النجدية بدون حرب. ومما يوضِّحه، أيضاً، أن النجديين وقفوا مع الملك عبدالعزيز، بصفة عامة، بحماسة واضحة. فلم يمرَّ عامان وثلاثة شهور على استعادته الرياض إلا وقد دخلت في طاعته جميع أقاليم نجد باستثناء جبل شمَّر، مركز إمارة آل رشيد.

(٢) ورأي فيلبي هذا ليس من المسلَّم بصحته. فالخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة على الحكم حدث لدى آل رشيد كما حدث لدى آل سعود. غير أن الفرق الواضح بينهما أن الخلاف في أسرة آل رشيد أدَّى إلى قتل بعضهم للبعض الآخر في حين لم يؤدِّ الخلاف في أسرة آل سعود إلى ذلك. وقول فيلبي إن المنافسين للملك عبدالعزيز من أسرته حظوا بمساعدة قوية من النجديين قول غير صحيح. فلم يساعدهم إلا قلَّة من السكان.

مصاعب المنافسين له على الحكم. وبعد هذا قام بجهد خاطف ناجح عبر حدوده على حساب الإمبراطورية العثمانية. وأخيراً جاءت فترة إعادة البناء، التي ـ وإن تعثَّرت بسبب الحرب ـ ظلَّت تُتَابَع باطِّراد. وقد أصبحت نجد الآن ـ كما لم يحدث من قبل ـ وحدة سياسية متناغمة تعترف بحكم ابن سعود لها.

وفي انطلاقة عبدالعزيز لتحقيق المهمَّة التي واجهته في سبيل تثبيت الحكم لم يفشل في إظهار إعجابه بنمطين من تاريخ وسط الجزيرة العربية. فمحمد بن رشيد يدين بقوَّته للميزات الخاصة، التي جعلت شمَّر تكون على ما كانت عليه قبيلة بدوية قائمة على مدينة بدوية- بينما حمل جد عبدالعزيز الأول، سعود بن سعود، سلاحه المنتصر إلى أقصى أركان الجزيرة العربية بسبب امتزاج حكمه بين الدين والسياسة، الذي له الفضل في قوته.

ولم يتبع ابن سعود النمط الأول ولا الثاني بكليَّتهما. بل مضى ليمزج بينهما، وكانت النتيجة حركة الإخوان التي تتلخَّص صفاتها الرئيسية كما يأتي:

١ ـ أنها مقصورة على البدو، الذين كانوا ـ مع أنهم اسمياً وبدرجة كبيرة أتباع للمذهب الحنبلي أو ما أصبح يسمى أخيراً المبادئ الوهابية ـ منقسمي الولاء عملياً بين تلك المبادئ وقواعد القانون العرفي غير المكتوب، الذي ينظِّم حياتهم. أما سكان مدن نجد، الذين يسود تصرُّفاتهم الرأي العام بقوَّة في مسائل الدين وتسير

حياتهم بانتظام جيّد ، فإنه يفترض ضمنياً أن يكونوا وهابيين مخلصين . ولذلك لا داعي للحديث عنهم هنا .

٢ـ هناك مطوّعون ـ أو كما يميل بالجريف إلى تسميتهم بالمتعصّبين Zelators [١] ـ معيَّنون من بين علماء المدن ليشرفوا على أمور البدو الدينية، ويعلّموهم أصول العقيدة الوهابية اليسيرة، ويمجّدوا فضائل الحياة التي تتَّخذ حياة النبي (صلى اللَّه عليه وسلم) قدوة لها، ويذمُّوا رذائل عادات مجتمع الصحراء، ويدعوا إلى كرامات الفردوس، ويغرسوا في أذهانهم واجب الاستشهاد في سبيل العقيدة باعتباره آكد الوسائل للفوز بدخول جنَّة الخلد والنعيم . وفي بداية الأمر عمل المطوّعون بين البدو الرُّحل ، لكنهم ثابروا على تمجيد الفضائل العالية لحياة الاستيطان الجماعي في سبيل اللَّه .

٣ـ وهكذا أصبح القطار جاهزاً للابتعاد عن الصفات الرئيسية للمجتمع البدوي، وأُعدَّت مواقع مناسبة لإيجاد مستوطنات دائمة، وبرزت أعداد من القرى أو المدن خلال السنوات الخمس أو الست الماضية في أجزاء متعدِّدة من نجد . وكان من ملامحها إحلال الرابطة الدينية الأخوية محلَّ العلاقات الأسرية . وبينما حافظ الإخوان من مطير، مثلاً، في علاقتهم بالإخوان من قبيلتهم على حقوق ومزايا المجتمع القبلي فإنهم حصلوا مع الإخوان، الذين هم من قبائل كانت معادية لهم على جميع حقوق مزايا

(١) هكذا وردت . ولعلَّها كانت تكتب كذلك قديماً بدلاً من Zealots التي تستعمل الآن .

الأخوَّة الدينية.

٤ ـ سرعان ما نمت لدى الإخوان، الذين تجمَّعوا في مراكز مناسبة، وأصبحوا متحمِّسين لعقيدتهم الجديدة، رغبة في قطع روابطهم القديمة برجال قبائلهم الذين لم يعتنقوا حركة الإخوان. لكن ابن سعود، بفطنة سياسية نادرة، لم يشجِّع هذه الرغبة. وبذلك صيغت رابطة قويِّة من المصلحة الجماعية بين مجموعات مهمَّة من جميع القبائل الكبيرة في نجد. وعلى هذا الأساس بنى ابن سعود صرح قوته السياسية؛ معتمداً على الفئات البدوية من مستوطناته الجديدة بقدر مساو على اعتماده على المستقرِّين الأولين من أهل المدن، الذين أصبحً الآن قادراً على إعفائهم، بدرجة كبيرة، من الالتزام المضجر الذي خاضوا بموجبه معارك حكامهم.

٥ ـ ولما تأكَّد السلام والأمن في أراضي ابن سعود بالتزام الأخوَّة الجديدة، ونُبذت الممارسة القديمة في الغزو، أصبح قادراً على استعمال القوَّة الاحتياطية للإخوان ، الذين نذروا أنفسهم ليقاتلوا في سبيل العقيدة أو دفاعاً عن النفس، نواة لجيشه الدائم. فعليهم وحدهم وزَّع السلاح والذخيرة التي لديه، وعليهم اعتمد ليكوِّن العمود الفقري لجيشه في الحرب. وقد جمعوا بين صلابة البدو وثبات الحضر، فخُدمت مصالح الاقتصاد بدون فقدان الكفاءة.

ولإيجاز ما سبق يمكن القول: إن هدف ابن سعود في احتضان حركة الإخوان هو أن يزيد قوته العسكرية بنشر عبء الخدمة العسكرية على

عدد أكبر من رعاياه، ويقلّل عناصر الضعف المتأصِّلة في دولة بدوية وجيش بدوي[1]، وليوفِّر موارده بإحلال الأمل في الجزاء الأخروي محلَّ الاعتبارات الارتزاقية.

قد يتساءل متسائل عن الهدف النهائي في نظر ابن سعود عندما أنشأ هذه المنظَّمة، وعما إذا كان هناك أي ضمان في قدرته على ضبط الحركة. وللإجابة عن الشق الأول من التساؤل يمكن أن أقول: إنه لم يكن مدفوعاً بأي هدف غير رغبته في إنشاء ترس دائم قوي ضدَّ العدوان الخارجي في المستقبل، وطموح غير واضح إلى إدخال جبل شمَّر مرَّة أخرى تحت حكم أسرته. أما بالنِّسبة لطموحاته في اتِّجاهات أخرى - ولا يمكن ألاَّ يكون قد فكَّر في احتمال مدِّ الحدود الوهابية مرَّة أخرى إلى أقاصي الجزيرة العربية - فإن من المستحيل أن يقال أكثر من أنه يَعدُّ الحكومة البريطانية عقبة دائمة لا تقهر أمام تحقيق مثل تلك الأحلام، وأنه مستعدٌّ لقبول هذا الوضع.

أما الإجابة عن الشقِّ الثاني من التساؤل السابق فأكثر صعوبة. وأظنُّ أنه يمكن أن يجاب عنه بثقة بالإيجاب؛ وذلك بالنسبة لأية سياسة مستقبلية محتملة. لكن من المبالغة أن يُتَوقَّع أن نظاماً مؤسَّساً على تشدُّد يمكن أن يُسيطَر عليه متى أريد في حالة ما إذا أثير ذلك التشدُّد جدياً بعمل عدائي. وإن هذا الاحتمال هو الذي يجعل من

---

(١) قد يفهم من العبارة أن الدولة السعودية؛ خاصة قبل حركة الإخوان، دولة بدوية وجيشها جيش بدوي. ومن المعروف أن قادة تلك الدولة كانوا حاضرة، وأنها قامت في بلدة واعتمدت في نشاطها العسكري على سكان الحاضرة بدرجة كبيرة. بل إن الإخوان أنفسهم لم يصبحوا قوة ضاربة في كفِّ الملك عبدالعزيز إلاَّ بعد أن تركوا البداوة واستقرُّوا على الأسس الدينية المعروفة.

المرغوب فيه، لمصلحة مستقبل السلام في جزيرة العرب، ألاَّ يشجِّع أي عمل عدائي من قِبَل الشريف، أوغيره من العناصر التي تحت سيطرتنا. إن عش زنبور الوهابية يمكن أن ينظر إليه برباطة جأش ما دام متروكاً بدون مضايقة. لكن آخر النصائح من الجزيرة العربية، التي استلمت متأخِّرة جداً في الأيام القليلة الماضية، تشير إلى أن الشريف يجهِّز، أيضاً، هجوماً آخر على الخُرْمة.

إن إمكانية الحرب بين ابن سعود والشريف، في الظروف المتغيِّرة، لا داعي لأن تسبِّب لنا أي قلق. لكن يجب أن يُدرك، قبل فوات الأوان، أن الخُرْمة ليست إلا حادثة في صراع أكبر لا محالة من حدوثه[1]. وإن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تقرِّر ما إذا كانت مستعدِّة، أو غير مستعدِّة، أن ترى الوهابيين يهاجمون مكة ويأخذونها مرَّة أخرى. وعلى العموم فإني أميل إلى الرأي القائل بأنه ما دامت الخُرْمة تدافع عن نفسها ـ وهناك سبب قوي لاعتقاد أنها قادرة على ذلك ـ فإن هناك خطراً قليلاً من توسُّع بعيد المدى للنشاط الوهابي. لكني مقتنع أن هزيمة خالد بن لؤي ستكون إشارة لهبوب العاصفة.

---

(١) حدث ما توقَّعه فيلبي. فقد هاجم الشريف تُرَبة والخُرْمة، وأدَّى هجومه إلى معركة تُرَبة المشهورة في شعبان سنة ١٣٣٧ هـ/ مايو ١٩١٩ م. ثم تطوَّرت الأوضاع، وانتهت بدخول الإخوان مكة سلماً عام ١٣٤٣ هـ. ثم استكمل الملك عبدالعزيز توحيد الحجاز في العام التالي لذلك الدخول.

١٥ ـ مأساة الخُرْمة:

عندما مررت بقرية الخُرْمة الصغيرة، التي تقع في أسفل وادي سُبَيْع، في ديسمبر عام ١٩١٧ م (ربيع الأول ١٣٣٦هـ)، وأنا في طريقي إلى الطائف، أصبحت أعرف وجود مشكلة هناك. لكن تحرّكات قبيلتي سُبَيْع والبُقوم لم يكن فيها إلاّ القليل مما يشير إلى أنَّ عاصفة كانت تتشكَّل في ذلك المكان، الذي قُدِّر له أن يشكِّل، كما كان، العامل المحرِّك لسياسات وسط الجزيرة العربية. ولقد ميَّزت الظروف، التي كان فيها البُقوم يتصرَّفون تحت قيادة أمير تربة الممثِّل الرسمي لملك الحجاز، العمليَّات التي رأيت عن عمليَّات عُتَيْبَة وحرب وقحطان المتفوِّقة دائماً في السهول الشاسعة غرباً.

وطبقاً للمعلومات التي تمكَّنت من جمعها في وسط الجزيرة العربية فإن الخُرْمة كانت ـ مثل غيرها من جزيرة العرب - جزءاً من الإمبراطورية الوهَّابية العظيمة.[1] وقد حصلت من سعود نفسه على إعفاء من واجب

---

(١) كانت الخُرْمة وما حولها مكان مواجهة عسكرية بين قوات الشريف غالب وقوات الدولة السعودية الأولى سنتي ١٢١٠ هـ و ١٢١١ هـ. وكان سكَّانها أميل إلى الجانب السعودي. وفي عام ١٢١٢ هـ أقبل إليها الشَّريف ومعه أتباع كثيرون من الحاضرة والبادية والمصريين والمغاربة، ومدافع وآلات حرب عظيمة. فتصدَّى له السعوديون، وفي طليعتهم هادي بن قَرْملة بأتباعه من قحطان، وربيع بن زيد بأتباعه من الدواسر. ودارت بين الجانبين معركة في الخُرْمة هُزم فيها الشَّريف وأتباعه هزيمة ساحقة؛ إذ قُتل منهم ما يزيد على ١٢٠٠ رجل بينهم عدد من الأشراف، الذين قال شاعرهم:

جونا الدواسر مع فريق القحاطين ... كلْنا لهم بالمدِّ واوفوا لنا الصاع

الاشراف لانوا عقب ماهم قاسين ... وَالشَّق ما يرفاه خمسة عشر باع

و«لم تقم للشريف بعد هذه الوقعة العظمى قائمة»، على حدِّ قول ابن بشر (ج١، ص ١٥٢). وكان من نتائجها أن اضطر ذلك الشَّريف إلى مصالحة قادة الدولة السعودية الأولى والسماح لأتباعهم بالحج. وكان هؤلاء الأتباع محرومين من أدائه من سنة ١١٦٢ هـ إلى سنة ١٢١٢ هـ باستثناء سنتي ١١٨٣ هـ و ١١٩٧ هـ. ابن غنَّام، ج٢ ص ص ٧٩ و ١٢٠.

دفع الزكاة إلى الخزينة المركزية. وظلَّت تحت رؤسائها من الأشراف، الذين مارسوا سيادة شرفية عليا على مالكي مزارع النخيل في القرية من سُبَيْع وفلاَّحيها من الزنوج. وكانت متمتِّعة باستقلال ذاتي عملي تحت السِّيادة النجديَّة غير الواضحة. وفي فترة لاحقة عاشت تحت سيادة تركيِّة مشابهة. وكان شريف مكة يمارس، بدون شكٍّ، سلطة عليها؛ نيابة عن السُّلطان العثماني. وعلى أيّة حال فخلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر (الميلادي)، عندما كانت نجد كلُّها تعترف بسيادة ابن رشيد عليها، كان هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنَّ محمد بن رشيد حصل من السُّلطات التركية على اعتراف كاف بسلطته عليها وقبول خطّ وادي العقيق حداًّ بين أراضيه والمنطقة الَّتي تحت السيادة التُّركِّية الحقيقيَّة؛ وهي الحجاز. وبهذا الترتيب لا بدَّ أنَّ الخُرْمة كانت داخلة ضمناً في أراضي ابن رشيد، الذي استعاد ابن سعود - في أوائل القرن الحالي - حكم أراضي أسلافه منه.

والعوامل المهمَّة في القضيَّة هي: أولا أنَّ الخُرْمة، كما أستطيع أن أؤكِّد، لم تكن في الماضي ذات شأن كبير، بحيث تكون أساساً للجدال بين السُّلطات المعنيَّة، أو جديرة بالذكر في أيِّ اتِّفاق عام. ثانيا أنَّها ظلَّت دائماً تتمتع باستقلال، أو شبه استقلال، عملي. وأخيراً أنَّها كانت، بطبيعة الحال، معتمدة على نجد بفضل تحالفها مع العقيدة الوهَّابيَّة. وبذلك التحالف لا يبدو أنه قد بذلت محاولة أبداً للتدخل في شؤونها. ولا أرى سبباً للتساؤل عن صحة قول ابن سعود: إن الشَّريعة ظلَّت دائماً تُطبَّق في الخُرْمة لمصلحة سكانها عن طريق قضاة

رسميين على المذهب الوهّابي. ومن هؤلاء، في الواقع، القاضي الحالي، الذي خلف أباه، وكان والده بدوره يدين لفيصل بن سعود بتعيينه قاضياً لها قبل خمسين سنة على الأقل.

وكان أساس الشر ـ وهذا ما لديَّ بناء على رسائل معيَّنة كتبها الشَّريف عبداللَّه نفسه إلى زعماء قبيلة سُبَيْع ـ محاولة الشريف، في صيف ١٩١٧م، أن يفرض قاضياً سنّيّاً على أهل الخُرْمة مكان القاضي الوهّابي الذي ظلّ قاضياً لهم منذ مدَّة طويلة، أو بعبارة أخرى، ليتدخل في الحريَّة الدينيَّة للمجتمع[1]. وقد امتعض أهل الخُرْمة، بقيادة أميرهم الشَّريف خالد بن لؤي، من هذه المحاولة، وعارضوها بشدة، ومنعوا القاضي المعيَّن حديثاً من دخول بيت القضاء. فوُضعت قوّات الشَّريف على أهبة الاستعداد لتفرض الخضوع لأوامره على الجماعة الثائرة. ولقد اتَّهم الشَّريف ابن سعود بالقيام بأعمال غير محدَّدة؛ بل من المؤكد أنها خياليَّة، ترمي إلى زعزعة سلطته في منطقة الخُرْمة. وأعلن للسُّلطات البريطانيَّة عزمه على إرسال قوات لإخضاع سُبَيْع. وبدأت المأساة، الدراما، تقريباً في مستهل يونيو عام ١٩١٨م (رمضان ١٣٣٦هـ) بهجوم على مخيَّم لسُبَيْع أدَّى إلى هزيمة القوّات الشَّريفيَّة، وفقدها مدفعين وبندقيتين آليتين.

---

(١) كان أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ كما سبق أن ذُكِر في مواضع عدة – من أكثر المسلمين تمسُّكاً بالسُّنَّة.

وقد أخبر ابن لؤي ابن سعود بانتصاره بالطريقة البدوية المألوفة، وأنا حينذاك في الرياض، حيث كنت في وضع ممتاز لتقدير أثر إخباره المتباهي بانتصار العقيدة الحق على الشِّرك في المعنويّات الصَّارمة للوهَّابيِّين المتشدِّدين الذابلة وجوههم نتيجة شدَّة حرارة الصيف وسط نهار رمضان.

وقد مرَّ المرسلون من الخُرْمة، في طريقهم، بالمستوطنة (الهجرة) الوهابية المهمَّة، الغُطْغُط، التي هبَّ سكَّانها للمساعدة بإرسال فرقة قويَّة إلى مسرح الأحداث. وضجَّت الرياض مطالبة بالحرب مع الشريف. وبناء على الموقف الذي كنت فيه، والذي كان يمكِّنني من أن أحكم على سير الأمور، فإن المطالبة نالت تأييد الإمام عبدالرحمن نفسه، كما نالت تأييد المفتي الوهابِّي الأعلى[1]. لكن ابن سعود، الذي لم يخف خطورة الوضع في محادثتي معه، قاوم الضغط الذي وُجِّه إليه، واستدعى فرقة الغطغط، فأرسلها لتنضمَّ إلى ابنه تركي ضد شمَّر. وكتب، بناء على طلب منِّي، إلى خالد بن لؤي مؤكداً له أنه بصدد عرض المسألة على الحكومة البريطانية، وموجهاً له أن يتوقَّف عن القيام بأيٍّ عمل آخر لثقته بقدرته وتصميمه على حماية حدوده ضد أي اعتداء.

وقد برَّر الشَّريف عمله، في أثناء المناقشات التي تلت، على أساس أنَّ خالد بن لؤي يدين له بتعيينه أميراً للخُرْمة. وهذا الادِّعاء بناء على

(١) من المحتمل أن يكون المشار إليه الشيخ عبدالله بن عبداللطيف، رحمه الله.

ما لديَّ من معلومات، مشكوك فيه جداً لأنَّ خالداً خلف ابن عمِّه غالباً بالطريقة المعتادة في وراثة الإمارة عند وفاة الأخير قبل أربع سنوات تقريباً. وبرَّر الشريف عمله، أيضاً، بحجة أن الخُرْمة نفسها تقع ضمن حدود أراضيه. وفي أثناء ذلك لم ير من الضروري إيقاف عمليَّاته ضدَّ المتمرِّدين، فسارع إلى القيام بتجهيزات لتجديد الغزو. وهُوجمت الخُرْمة مرَّة ثانية في يوليو. فقُضي على قوَّات الشَّريف مرَّة أخرى، وفقدت مدفعين وبندقيتين آليتين، وكتب خالد إلى ابن سعود رسالة أخبره فيها عما حدث، وألحَّ على طلب المساعدة، وهدَّد بأنه سيتصرَّف بنفسه إذا وجد ابن سعود نفسه غير قادر على مساعدته؛ وذلك بإرسال نسائه وأطفاله ليستنهضوا أهل نجد إلى العمل. وخلال ذلك لم يكن هناك أدنى شكٍّ في أن قبائل الجنوب كانت تتجمَّع للدفاع عن الخُرْمة، وأن السُّلطات التُّركيَّة كانت تراقب تطوُّر الوضع باهتمام. فقد دلَّت رسائل زعماء عسير وفخري باشا، التي أشير إليها في موضع آخر من هذا التقرير، على تأكيد كافٍ لما قلته.

وكانت جهودي مكرَّسة لإشغال ابن سعود بحرب مع شمَّر، على الأقلِّ لصرف اهتمامه عن مشكلة الخُرْمة، وضمان استعمال أكبر ما يمكن استعماله من قوَّته المتاحة. ولقد أكَّد، بطبيعة الحال، دقَّة الوضع، وقدَّم احتجاجاً على عدوان الشَّريف غير المبرَّر، وكتب إلى ابن لؤي مؤكِّداً له أنَّه - في حين لم تجد الحكومة البريطانيِّة وقتاً للنظر

في مقترحاتي قبل أن يحدث الهجوم الثاني - سوف يهب لنجدته، بدون شكٍّ، إذا ما أصبح مؤكَّداً حدوث هجوم ثالث عليه.

ولم أكن في وضع يتيح لي أن أعمل أكثر من أن أضمن لابن سعود أنَّ الحكومة البريطانيَّة لن تتحمَّل اعتداء على سيادة أراضيه. لكنَّ مجرى الحوادث، التي تلت، أوضح أن مثل هذا الضمان كان بدون معنى. وفي الوقت الذي أكَّد فيه ابن سعود لي بأنَّ أهل الخُرْمة لن يتَّبعوا سياسة عدائيَّة حذَّرني أنه مضطر إلى الذهاب لنجدتهم إذا ما حدث عليهم هجوم آخر، وأنَّه يتنصَّل من كل مسؤوليَّة عمَّا ينتج إذا استمرَّ الشَّريف على مسلكه. وفي الوقت نفسه عرض أن يقدِّم الخلاف الحدودي المشار إليه، بدون تحفُّظ، إلى تحكيم الحكومة البريطانيَّة مع التأكيد على أنَّه سيقبل قرارها مهما كان. وفي تقريري عن هذه المحادثات ألححت على حلٍّ لمسألة الحدود، وإذا كان هذا مستحيلاً لظروف الحرب فليفرض على الطرفين حدّ مؤقت من مرَّان إلى تُرَبَة على طول خط شعيب شابة، أو شعبة، shaba، الذي يكوِّن الحدَّ الطبيعي بين قبيلتي سُبَيْع والبُقوم.

ويكُّمن أعظم أمل لي في أنه من الضروري أن يمرَّ بعض الوقت قبل تمكُّن الشَّريف من تجديد عمليَّاته. وكنت على ثقة من أنَّ حكومة صاحب الجلالة ستصرُّ على كفِّ يده خلال النَّظر في الموضوع المختلف عليه. وفي هذا كنت مخطئاً. فقد عارض الشَّريف التحكيم في قضية كان لا يشكُّ في حقوقه فيها. وفي رسالة وُدِّية من حكومة صاحب

الجلالة إلى ابن سعود - لم تلزم نفسها فيها بأي قرار محدَّد في مسألة الخلاف - تبنَّت صيغة الشريف بأنه لا نيَّة له في السماح لعملياته، التي كانت موجَّهة فقط إلى أمير الخُرْمة المتمرِّد، أن تتطوَّر إلى حرب شرق الخُرْمة ضدّ أراضي ابن سعود.

وكانت تلك الرسالة، التي تجاهلت كلَّ مسألة الخلاف، بعيدة عن تهدئة ابن سعود، الذي احتجَّ بقوَّة على كلمات عبارات رسالة الحكومة المتَّصلة بالقضيَّة، وكرَّر إبداء عدم قدرته على قبول المسؤولية عمَّا ينتج عن عمل عدواني آخر يقوم به الشَّريف. وهكذا اتجهت الأمور، بشكل محتوم، إلى الحرب. أما حكومة صاحب الجلالة فجدَّدت طمأنتها لابن سعود بالنسبة لتوقُّعاته في حالة اتِّخاذه إجراءات نشطة ضدّ ابن رشيد. ولقد عملتُ ما يمكن عمله من هذه الرسالة لأدفعه إلى العمل؛ مدركاً أنَّنا أشبه ما نكون في سباق مع (الشَّريف) شاكر، الذي كان معروفاً أنَّه يجهِّز لهجوم آخر على الخُرْمة.

والواقع أن أخبار هجوم (الشَّريف) شاكر الثالث على الخُرْمة، الذي قام به - طبقاً للمعلومات التي استقيت ممن انفصلوا عن قوَّته - إثر تسلُّمه أوامر حاسمة من الشَّريف، على أن يقوم بالهجوم أو يتخلَّى عن القيادة، وصلت في اليوم الذي انضممت فيه ثانية إلى ابن سعود في قُصَيْباء بعد نجاح غزوه ضد حائل. وقد انتهى الهجوم الشريفي الثالث بالهزيمة، وفقْد مدفعين وبندقيتين آليتين.

وكان ابن سعود مسروراً بنجاحه، كما كان مسروراً بالعرض الذي كنت قادراً على تقديمه له، بتفويض منكم[1]؛ وذلك بإمداده بمعونة منتظمة قدرها عشرة آلاف جنيه استرليني شهرياً، ما دام مستمراً في عمليَّاته النشطة ضد جبل شمَّر. وفوق ذلك كان مقتنعاً، بسبب نتيجة الهجوم الثالث على الخُرْمة، بقدرة ابن لؤي على الصمود وحده. ولذلك كلِّه استقبل أخبار حوادث الخُرْمة بهدوء. وبدون أن يفقد مثل تلك الفرصة الجيدة في الاحتجاج مرة أخرى على عداوة الشَّريف النَّشطة السافرة أوضح أنه الآن أصبح مشغولاً جداً بعمليَّاته الخاصة ضد حائل بحيث لا يقدر أن يهتمَّ بالقضايا الأخرى.

وهكذا كان الموقف عندما وصلت الحرب ضدَّ تركيا إلى نهاية مفاجئة أراحت الحكومة البريطانية من كل قلق حالي بالنسبة لتطوُّر الوضع في وسط الجزيرة العربية. وكما ذكر في الفصل الأخير كان الشَّريف شاكر ما يزال مبقياً تهديده ضد الخُرْمة. لكن الإدانة الأخيرة للمأساة - مهما كانت ومهما كانت نتائجها للسلام في الجزيرة العربية - تقع خارج نطاق هذا التقرير.

ولقد قيل ما فيه الكفاية لإيضاح أن قضيَّة الخُرْمة مثَّلت في الواقع حالة اختبار لقرار ادِّعاء الشَّريف بالسيادة على نجد أو عدم سيادته على جزء صغير منها. والحكومة البريطانية ملزمة، وفق المعاهدة التي

(١) الضمير يعود إلى من أرسِل إليه التقرير؛ وهو المقدَّم ولسون، المندوب لإدارة الأراضي المحتلَّة في العراق.

عقدتها مع ابن سعود، أن تعيِّن حدود الأراضي التي اعترفت به حاكماً مستقلاً لها. ويجب أن تجد هذه المشكلة اهتمام حكومة صاحب الجلالة لإعادة البناء في فترة ما بعد الحرب، التي أصبحت وشيكة الوقوع الآن. ولن يكون في غير محلِّه أن نفكِّر باختصار في بعض النقط الأساسية للمشكلة، وأن نقترح، بأي شكل، الخطوط التي يمكن أن نتناولها بموجبها.

والمشكلة، في أبسط صورة لها، تكمن في أنَّ ابن سعود يدَّعي استقلاله التام وسيادته على جميع نجد، وأنَّ الشِّريف قد قدَّم دعاوى بسيادته على كل قبيلتي عُتَيبة وحرب والقسم الغربي من سُبَيْع.

ويجب على المرء أن يعلم بحقيقة أن عُتَيبة تحتل عالية نجد والسهوب الغربية من خطٍّ دلقان ونفود السِّر إلى داخل خطٍّ جبال الحجاز، وأن قبيلة حرب تمتد من تخوم الباطن إلى المدينة (المنوَّرة) فوق كل الصحراء في عالية القصيم، وأن القسم الغربي من سُبَيْع يسير مع البُقوم على خط وادي الشعبة في الغرب ومع عُتَيبة على طول وادي النعيم في الشرق. وإذا عُلم ذلك اتَّضح أن الشريف، في الحقيقة، يدَّعي سيادة على وسط الجَزيرة العربية غرب الخط المرسوم من الثُّمامي في النهاية الغربية من الباطن، على طول وادي الرُّمة، ومن هناك تقريباً جنوباً على وسط الحدود الشرقية لإقليمي المذْنب والسِّر إلى نفود السِّر جنوب عالية نجد، وغرباً إلى ما يجاور وَادي رَنْية. وبهذا فإن الشَّريف يدَّعي بكل منطقتي القصيم والسِّر، اللتين تمتد حدودهما الشرقية تقريباً إلى حدود الأراضي الكويتية.

ولا حاجة إلى القول بأن ادِّعاء كهذا سيفنِّده ابن سعود بحزم . ذلك أنَّه يدَّعي السيادة على كل نجد وعلى الفئات الساكنة فيها من القبائل المذكورة سابقاً . وهو يرفض إمكانية حلٍّ بموجب خطوط قبلية، والتاريخ يؤيِّد ما يحتج به؛ إذ لم يذكر أبداً، حسبما أعرف، تضامن قبيلتي عُتَيبة وحرب في ولاء لحاكم واحد .

وعلى أية حال فإن من الواضح أن أي ادِّعاء للشَّريف يتضمَّن تبعيَّة القصيم والسِّر له ادِّعاء ظاهر السخف، وأن هذه الحقيقة وحدها تجعل حلَّ المشكلة على قاعدة قبلية مستحيلاً . وإن الحل الوحيد المتاح هو الحدود الإقليمية، والاعتراف بسيادة كل حاكم على جميع القبائل والأفراد الساكنين في جانبه من مثل هذه الحدود .

ومهمَّة العثور على حدٍّ إقليمي ليست سهلة، لكنها ليست بالصعوبة التي تبدو فيها . ذلك أن وسط الجزيرة العربية فيه ميزة متمثِّلة في وجود ظواهر طبيعية واضحة المعالم تمتدُّ من الشمال إلى الجنوب بين خطِّ الشرق والغرب من نفود السِّر، الذي يقطع منطقة وادي الدواسر، وحدود جبل شمَّر . ويمكن أن يرفض الخطَّ الحدودي المشار إليه أعلاه على أنهّ غير عملي : فجزؤه الجنوبي، على طول نفود دلقان المستمر باتِّجاه الشمال بمحاذاة الحد الغربي للسِّر والقصيم مساو في كونه غير عملي لما قبله لأنه يضع كل عالية نجد الحقيقية، التي كانت دائماً وما زالت تحت حكم ابن سعود الفعلي، داخل سيادة الشَّريف . والخطُّ الممكن التالي هو وادي نعيم، الذي يجري تقريباً باتِّجاه

الجنوب من سجا. وخلف ذلك من الناحية الجنوبية حد وادي شعبة. وخلف هذا مرَّة أخرى حدّ وادي العقيق.

وبين تلك الحدود الثلاثة - ولا يبدو أن هناك حدوداً ممكنة غيرها - يجب أن يتمَّ القرار النهائي. ومع أن الأخير منها يتمتَّع بدرجة معيَّنة من الموافقة التاريخية فإنه يمكن رفضه على أساس أنه يعطي ابن سعود أكثر مما يدَّعيه. أما الأول فليس أمامه إلا الرفض: أولاً: أنه يضع القسم الغربي من قبيلة سُبَيْع وعاصمته الخُرْمة داخل سيادة الشريف. وبذلك يقضي على مبدأ امتلاك الحقِّ في تقرير المصير للجماعات الضعيفة، التي أقلُّ ما يقال عنها: إنها تستحقُّ الاحترام. ثانياً: أنه يترك جزيرة وهابية في محيط سُنِّي[1]. وبذلك يبقى الباب مفتوحاً أمام الخلاف الديني في جزيرة العرب. وأما الخيار الأوسط فهو، في نظري، الأفضل مناسبة لمتطلَّبات الأوضاع المحلِّية، والأكثر قبولاً لدى الناس الذين يمسُّهم الأمر أكثر من غيرهم، وهو الأقرب إلى الإمداد بخط دقيق للحدود بين المصطلحين الجغرافيين: نجد والحجاز، والوحيد الذي يتبع حدّاً قبليّاً معترفاً به في جزء لا بأس به من طوله. ومع تعديلات بسيطة في التفاصيل فإن سيره الدقيق سيكون محاذياً لمجرى وادي الرُّمة في حرَّة خيبر إلى الحناكية - التي يبدو لي أنها تكوِّن موضعاً مناسباً لالتقاء حدود الحجاز ونجد وجبل شمَّر - ومن ثَم يمتدُّ مستقيماً عبر سهوب مرَّان، ثم إلى النقطة التي على وادي شعبة، حيث تلتقي حدود عُتَيبة وسُبَيْع والبُقوم، ثم يتبع الخط وادي تُرَبة.

---

(١) سبقت الإشارة إلى أنّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأتباعه من أكثر الناس تمسُّكاً بالسنَّة.

ولست في وضع يمكِّنني من إعطاء رأي حول ما إذا كان الخطُّ سيتجه من تُرَبة إلى بيْشَة شرق طريق رَنْية أو غربه. ويمكن ترك ذلك للظروف.

والنقطة التي لا يمكن، في رأيي ـ وقد سبق أن عبَّرتم[1] عن مثل هذا الرأي نفسه ـ أن تؤخذ في الاعتبار في تقرير مجالي السِّيادة المتحدث عنهما لكلٍّ من الشَّريف وابن سعود، هي الخدمة العسكرية التي قدَّمها الأول بدرجة لا تقارن بما قدَّمه الثاني لقضيَّة الحلفاء في مسيرة الحرب. وإن رغبات الناس الذين يتأثَّرون بالقرار، والرغبة في عدم ترك نافذة لحدوث خلاف ديني في المستقبل، اعتباران عمليان لهما أهمِّية رئيسية. أما الجوانب الجغرافية والتاريخية للمسألة فلها مكانة مهمَّة، لكنها ثانوية ومساعدة.

وحين يضاف إلى هذه الاعتبارات ـ مهما كانت الخصائص النظرية للخلاف بين الشَّريف وابن سعود حول الحدود ـ فكرة أن أعمال الشَّريف خلال السنة الماضية قد صرفت عنه عواطف أهل الخُرْمة إلى درجة أنهم لن يخضعوا لحكمه في أية ظروف مهما كانت فإنه يمكن تصوُّر حساسية المهمَّة التي ستواجه حكومة صاحب الجلالة في المستقبل القريب. ومن ناحية أخرى فإنها إذا تخلَّت عن المسؤولية الثقيلة في اتِّخاذ قرار حول الخلاف وتنفيذه فستجد نفسها على الطرف الآخر من المشكلة العويصة بين الشريف وابن سعود، التي يبدو لي أنه

(١) المخاطب هو المرسل إليه التقرير المقدَّم ولسون، المندوب المدني لإدارة الأراضي المحتلَّة في العراق.

لا مناص منها، والمشحونة بعواقب بعيدة المدى.

١٦ ـ ابن سعود والأتراك:

من وقت إلى آخر؛ خاصة في مناسبة معيَّنة تأكد فيها أن بضاعة من النقود انطلقت من المدينة (المنوَّرة) إلى القوَّات التركية في اليمن ـ وأظنُّ أن ذلك كان في صيف عام ١٩١٧م ـ قيل إن ابن سعود لم يكن بريئاً تماماً من التستُّر على الأتراك. ولم يملَّ الشَّريف أبداً من التأكيد على هذه النقطة. ومهما كانت الوقائع المتَّصلة بالبضاعة النقدية المشار إليها فإنِّي مقتنع أنها، إن كانت قد عبرت أراضي ابن سعود، فعبورها كان بدون معرفته، لأنها ربما فعلت ذلك بيسر عبر سهوب عتيبة الواسعة. أما القول بأنه قد أعطى الجماعة التي قامت بذلك العمل حماية.. الخ، فإني لا أتردَّد في رفضه لأنه سخيف ولا أساس له من الصحة. وربما لم يكن قد أُدرك أبداً بشكل كاف، أنه مهما كانت تعقيدات سياسة وسط الجزيرة العربية فإن التركيَّ هو العدو الطبيعي لابن سعود، ليس لأنه كافر في نظر الوهابي فحسب، لكن لأنه من المستحيل أن يقبل بفقدانه الدائم للأحساء إذا بقي بعد الحرب في وضع يمكِّنه من محاولة إحالة مصيرها إلى التحكيم.

وعندما كنت في جدَّة أكَّد لي الشريف بكثير من الشدة أن لديه برهاناً لا جدال فيه على أن ابن سعود كان، منذ مدَّة طويلة، يتراسل سرّاً مع فخري باشا، القائد التركي لحامية المدينة (المنوَّرة). والواقع أن ابن سعود لم يخبرني، عندما كنت في الرياض، باستلامه رسائل من

فخري باشا فحسب، بل إنه سلَّم إليَّ ثلاثاً أصلية منها. وكانت إحداها، على أية حال، توضِّح بشكل حاسم أنه لم يردَّ أبداً على الرسالتين الأخريين. وبعد أن انتهى الشريف من اتِّهامه لابن سعود، وعرض عليَّ أن يبدي دليله - وأظنُّه رجلاً شاهداً - أوضحت له طبيعة الأدلَّة التي لديَّ والتي تبرهن على أنَّ كلامه لا أساس له من الصحة. وعندما أطلعته، في اليوم التالي، على الرسائل ذاتها، وأخذت أقرأها عليه، رفض بعناد أن يستمع إليَّ، وأعلن أنه كان محقّاً في نظرته إلى ابن سعود، لكنه لم يقل شيئاً أكثر عن إبدائه حجَّته المقنعة.

وإني أذكر المسألة، هنا، لغرضين: أولهما لإيضاح موقف الشريف من ابن سعود، وثانيهما: لإعطاء برهان كاف ومرض على أن ابن سعود لم يعط السلطات التركية أبداً أقلَّ تشجيعٍ رغم أنها كانت واعية لمزايا فصله عن قضيَّتنا. ولأن تجارب فخري باشا، على أية حال، لم تشجِّعه على استمرار محاولته فإنه أوقف بعث الرسائل إلى ابن سعود حتى أصبحت الأمور حساسة بينه وبين الشَّريف حول موضوع الخُرْمة. فحينذاك انتهز فخري الفرصة، وكتب إليه في سبتمبر سنة ١٩١٨م (ذي الحجة ١٣٣٦هـ)؛ متظاهراً أنه يمدُّه بالأخبار المتأخِّرة نسبيّاً عن وفاة السلطان الراحل، لكنه في الواقع يريد أن يهنِّئه، بشكل خاص، على انتصارات الإخوان في الخُرْمة على الغزوات الشريفية، ويعرض عليه - بالمناسبة - أن يمدَّه بأيِّ شيء قد يطلبه فيما يتعلَّق بالأسلحة والذخائر والتمويل لتنفيذ حملة ضدِّ الشَّريف. وقد أعطاني ابن سعود، أيضاً، أصول هذه الرسائل. ومع أن ذلك العرض بتقديم

الأسلحة وغيرها قد أتى في وقت حرج عندما كانت علاقته بالشريف متوتِّرة جداً، وحكومة صاحب الجلالة قد عبَّرت عن عدم قدرتها على توفير الأسلحة للحملة على حائل، فإن مما يعدُّ فضيلة له أنه قاوم الإغراء لإجابة فخري باشا.

ثم حدث اتِّصال تركي آخر بابن سعود؛ وذلك عندما وصلت إليه في أغسطس رسالة وقَّعها أربعة من قادة قبائل عسير، لكنَّ من الواضح أنها - في ضوء أسلوبها ومضمونها - قد أمليت من قبَل محيي الدين بك، القائد التركي ومتصرِّف عسير. وتضمَّنت الرسالة تذكيره بالفوائد التي جنتها منطقة عسير من الحكم التركي، ودعوته إلى وضع يده في يد الموقِّعين عليها للدفاع عن العقيدة الصحيحة. لكنَّه عامل ذلك الاتِّصال كما عامل اتِّصالات فخري باشا السابقة.

وقد عُلم الشيء الكثير عن مثل تلك المراسلات التي وُجِّهت إلى ابن سعود منَ السُّلطات التركية أو نيابة عنها. فقد أشار تقرير مرسل من عدن في يونيو؛ معتمداً فيما يتَّضح على مصدر ثقة، إلى توصُّل ابن سعود مع الأتراك إلى ترتيبات يسمح بموجبها لضباط معيَّنين أن يعبروا أراضيه إلى اليمن لدفع مرتَّبات الجنود الموجودين هناك. لكن هذا التقرير لم يبدُ لي في أي وقت إلا خيالاً من ذهن متحيِّز. وعلى أية حال، فقد كان ذلك فعلياً غير محتمل، ولم أسمع أبداً أي شيء عن نتائج لتلك الترتيبات المزعومة. والمناسبة الوحيدة التي حاول فيها - حسب علمي - ضباط أتراك أن يمرُّوا عبر نجد حدثت في أبريل. وقد أخبرني ابن سعود، عند عودتي إلى الرياض، أنه عندما تسلَّم

معلومات عن مرور درويش بالرياض أوقفه وقبض عليه. فتبين أنَّ اسمه قول أقاسي قدسي أفندي Gol - Agasi Gudsi Elkendi ، أحد ضبَّاط القوات في اليمن، وأنه كان يحاول أن يشقَّ طريقه من صنعاء وأبها عبر الرياض إلى المدينة واستنبول ومعه كمِّية من النقود قدرها ٣٤١ جنيه تركي ورقية، ورسائل خاصة ليس لها من القيمة والأهمِّية أكثر من أنها تشير إلى ضابط آخر غادر أبها قبل ثلاثة أسابيع تقريباً من مغادرة قدسي أفندي لها وهو متّجه إلى اتِّجاه هذا الأخير نفسه. ومن المستحيل القول: ما إذا كان ذلك الضابط قد عبر ونجا أو هلك في طريقه، لكن ابن سعود لم يتعقَّبه.

أما بالنسبة لقدسي أفندي، الذي بقي موقوفاً في الرياض حتى نهاية الفترة التي يتناولها هذا التقرير، فقد عبَّرت عن رغبتي في رؤيته عند عودتي من وادي الدواسر على أساس أن أرتِّب لإرساله إلى الساحل لتسجنه السلطات البريطانية هناك. ولما بلغته أخبار رغبتي في زيارته أوضح أنه لا يستطيع أن يرفض رؤيتي إذا أصرَّ ابن سعود عليه أن يراني، لكن كرهه واحتقاره للكفار من العمق بحيث يفضِّل إعفاءه من تلك المحنة. ولهذه الظروف احترمت رغباته ولم أره أبداً. ومع ذلك فإني عندما سمعت من مصدر آخر أن الظروف المحيطة به في موضع توقيفه شديدة الصعوبة والتعب رجوت ابن سعود أن يحسِّن أوضاع سجنه. فكان لديه، بالرغم من تعصُّبه غير المبرَّر، سبب ليكون مديناً بالفضل لأحد الكفَّار على إزالة الكثير من الأوضاع السيئة التي كان يعيشها في زنزانة قلعة الرياض حوالى شهرين.

١٧ ـ الأسلحة في نجد:

لقد تكرَّرت معارضة حكومة صاحب الجلالة لإمداد ابن سعود بالأسلحة، كما تكرَّر إصرار المندوب السامي (في مصر) على عدم استحسان تعزيز قواته خوفاً من تطوُّر محتمل للخطر الوهابي. وفي ضوء ذلك من المهمّ أن يذكر أن سياسة الحكومة في هذه المسألة نتج عنها فقد تعاطف ابن سعود، إلى حدٍّ ما، معها، وأنها فشلت في هدفها الأساسي بسبب توزيع الشريف المسرف للأسلحة والذخائر على فئات غير قادرة على تحمُّل المسؤولية من سكان نجد نتيجة اعتقاده الخاطئ بأن يضمن ولاءها بذلك. ويمكن أن يضاف إلى هذا تلك التجارة غير القانونية للأسلحة والذخائر، التي يبدو أن أناساً من موظفي الشريف المسؤولين عن خزن المعدَّات العسكرية قد حصلوا على فوائد كبيرة منها.

واستمرَّت الحركة التجارية بالسلاح والذخائر في نجد على نطاق واسع. وقد بلغني مرور أسلحة وذخائر عبر الأراضي النجدية إلى ساحل الخليج. وكان ابن سعود مضطراً إلى منع تصدير الذخائر من أراضيه، واتِّخاذ خطوات لشراء مثل تلك الكمِّيات الزائدة متى وُجدت، لاستعماله الخاص. وقد نتج عن ذلك أنه اشترى ـ خلال الشهور الأخيرة من الفترة التي يتناولها هذا التقرير ـ ما لا يقلُّ عن ثلاث مئة ألف طلقة. وإني لأقدِّر أن لدى الأفراد كمِّية لا تقلُّ عن ذلك العدد. وكان ابن سعود راضياً عن ترك البنادق لدى أولئك الذي يملكونها؛ عالماً أنهم سيكونون دائماً مستعدِّين لخدمته. ولم يكن ممكناً

الحصول على أي تقدير للعدد المستلم من المصادر الشريفية ، لكن من المعلوم أن المتطوعين النجديين كانوا يُمَدُّون مجاناً بالأسلحة ، ويذهبون بانتظام بالمعدَّات التي أمدُّوا بها بصفتهم هاربين من الجيش . وفي ظلِّ هذه الظروف يمكن أن يَفترض أن نجداً ، بطريقة ما ، لديها كمِّية كبيرة من الأسلحة يحتمل أنها لا تقلُّ كثيراً عن خمسة آلاف إذا افترضنا نسبة بندقية لكل مئة طلقة من الذخائر .

وكانت نتيجة سياسة الشريف ؛ بل وسياستنا ، إضعاف ابن سعود لدى رعاياه أنفسهم ، وتركه في وضع أسوأ من قبل فيما يتعلَّق بضبط الحركة الوهابية ، بينما زادت ، في الوقت نفسه ، من قوة القبائل .

وبينما كان ابن سعود يدرك أن ذلك كان يعني ، في الحالات العادية ، ازدياداً في قوَّته ، فإنه لم يكن غافلاً عن تاريخ أسرته ذاتها ، أو عن المعارضين للتسليح العشوائي لقبائله . وكان هذا هو السبب الأكبر في إلحاحه القوي على إمداده بالأسلحة ، وليست متطلَّباته العاجلة للهجوم على ابن رشيد . وكانت كل بندقية في ترسانته تعني تسليح واحد من الإخوان ؛ أي إضافة جندي نظامي إلى جيشه . وإني لأميل إلى الاعتقاد بأن من السياسة الخاطئة إبقاءه ضعيفاً في ا التسلُّح ما لم تتَّخذ خطوات واضحة لمنع التسلُّح لقبائله .

وكما تبدو الأمور الآن فإن من المحتمل أن ابن سعود ، حتى إذا ضممنا إليه رجال القبائل التي سلَّحها الشريف ، أضعف تسليحاً من ابن رشيد ، الذي تسلَّم ، قرب نهاية الفترة التي يتناولها هذا التقرير ،

جزءاً، على الأقل، من كمِّية أسلحة وعده بها حلفاؤه. ويضاف إلى ذلك ما تسلَّمه من الأتراك في المراحل الأولى من الحرب. أما الشريف فتفوُّقه في التسلُّح لا يقاس، بطبيعة الحال، بكلٍ من منافسيه في وسط الجزيرة العربية. لكن استمرار وسائله الحاضرة في التدقيق والضبطِ ستغيِّر ميزان القوة لصالحهما على مدى الأيام.

١٨ ـ زيارة الأمكنة المقدَّسة لدى الشيعة:

لقد ذكرت في الفصل الرابع من هذا التقرير أن البعثة كانت مكلَّفة أن تناقش ابن سعود، من بين أشياء أخرى، في مسألة القيود، التي فرضتها أوضاع الحرب، على زيارة الأمكنة المقدَّسة لدى الشيعة.

وعلى أية حال فإني أدركت، في مرحلة مبكِّرة من عملي، أن هذا الجزء من تفويض البعثة لا بدَّ أن يكون مبنياً على سوء فهم. ذلك أنه إذا كان هناك موضوع لا يوجد لدى ابن سعود شعور قوي تجاهه فهو البدعة الشيعية وكل ما يتعلَّق بها. ولذلك فإني حاولت جهدي أن أتلافى كل إشارة إلى هذا الموضوع بالنسبة لعملي، مع أن الموضوع كان واحداً من الموضوعات التي لم يملَّ ابن سعود أبداً من إبداء رأيه حولها في الأحاديث العامة.

ويبدو أن أصل سوء الفهم كان تقريراً عمله النقيب لوخ Loch في أغسطس عام ١٩١٧م (شوال ١٣٣٥هـ)، وكان ذا صلة بزيار الدكتور هاريسون إلى الرياض المشار إليها سابقاً[١]. فقد ذكر الدكتور هاريسون في تعليقه على موقف ابن سعود تجاهنا أن فشلنا في فتح حركة نهرية عامة إلى بغداد أدَّى إلى نقده لنا، وأضاف النقيب لوخ ـ نتيجة تأمُّلاته في القطيف[٢] والبحرين ـ أن القيود الموضوعة على الزيارة الشيعيَّة أثارت، أيضاً، نقداً مماثلاً. وخلص السير بيرسي كوكس، بطبيعة الحال، إلى أن كلاً من هذين الموضوعين يهمَّان ابن

(١) لم يسبق أن ذكر شيء عن ذلك الأمر في هذا التقرير. ولعلَّه قد ذكره لولسون في رسالة مستقلة.

(٢) ورد في الأصل Galif. ومن الواضع أن هذا خطأ مطبعي.

سعود. على أني الآن مقتنع أنه لم يشعر أبداً بأيٍّ منهما. ولذلك فإن من المحتمل أنه لم يعبِّر أبداً عن أي اهتمام بهما. وعلى أية حال فإن كليهما كانا من المسائل ذات الأهمِّية بالنسبة للتجار والجماعات الشيعيَّة في الساحل العربي للخليج. وإن التقارير المحلِّية، طبقاً لذلك، موجهة في ظروف قابلة لأن تكون سبباً لسوء الفهم.

وابن سعود، الذي هو نفسه وهابي ملتزم، والذي تقوم سلطته في وسط الجزيرة العربية على أساس العقيدة الوهابية التي أعاد نشاطها هو، يجد نفسه في وضع حسَّاس إلى حدٍّ ما بالنسبة للفئات السُّنَّيَّة والشيعيَّة التابعة له في القصيم والأحساء على التوالي[١]. والاعتراف الرسمي بصحة إحداهما وضلال الأخرى سيجعله متَّهماً بالتراخي غير المحتمل لدى أتباع العقيدة الصحيحة. ولذلك فهو غير عملي. وإن اضطهاد إحداهما سيؤدِّي بالتأكيد إلى فقد أغنى منطقتين من مناطق حكمه، ولذلك فهو غير ملائم. وبحكمة سياسية نادرة اتَّبع سياسة ترضي العنصر الوهابي؛ وذلك بتحريمه التظَّاهر العلنيِّ بالعقائد غير المقبولة، وترضي بشكل كاف أتباع مثل تلك العقائد بسبب تسامحه تجاه الاحتفال الخاص بأعيادهم بدون عائق أو عرقلة.

وكان عليه، في مناسبات نادرة، أن يتدخَّل في حالات مجابهة حقيقية. والمثل الذي وصل إلى علمي يوضِّح أنه كان يملك الشجاعة ليوقف التدخُّل الذي لا داعي له في مسائل الدين من قبل المتحمِّسين

(١) قد يفهم من عبارة فيلبي، هنا، أن أهل القصيم يختلفون عن بقية أهل نجد في موقفهم من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وهذا بعيد عن الصواب. فهم لا يختلفون عن غيرهم من النجديين حماسة لتلك الدعوة المباركة.

الوهابيين. من ذلك أن جماعة من عنيزة كانوا يدخِّنون حول نار مخيَّمهم، فمرَّ بهم خمسة من الإخوان ورأوهم يدخِّنون، فأخذوا على عاتقهم عقاب المذنبين. ولم يتجاوزوا أكثر من الشجب عندما نهض رجال عنيزة وقتلوا موبِّخيهم، الذين شكا أقاربهم إلى ديوان ابن سعود، فأخبروا بجفاء أن من حقه هو، لا من حقهم هم، إدارة تأديب المخطئين من رعاياه[1].

ويتطلَّع ابن سعود، بسياسة التسامح التي ينتهجها، إلى اعتناق رعاياه للعقيدة الصحيحة في نهاية المطاف. لكنه لا يذهب ـ ولا يمكنه أن يذهب ـ إلى أكثر من هذا. وزيارة الأمكنة المقدَّسة لدى الشيعة لا تحظى بتشجيعه، لكن الزوَّار العائدين لا يتعرَّضون لمساءلته. وبالرغم من ذلك فإنه لا أحد أكثر ابتهاجاً منه لو أن زيارة كربلاء والنجف جعلت مستحيلاً بصفة دائمة، ولا أحد أكثر سروراً منه بالعقاب الذي وقع حديثاً للضالين من النجف.

أما الحج إلى مكة، الذي شرعه القرآن ذاته، فيختلف عما سبق، ولا يعدُّ مسموحاً به فحسب؛ بل هو واجب كل الوهابيين[2]. وضمُّ السفر

(١) من المعلوم أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تركِّز على التوحيد، الذي هو أهم شيء في الدين الإسلامي. ومسألة التدخين مسألة ثانوية كان مختلفاً فيها بين العلماء. وهناك من حرَّمه من علماء تركيا وغيرها من الأقطار الإسلامية. وأما الحادثة التي أشار إلى أنها وقعت بين عدد من الإخوان ورجال من عنيزة فمن المحتمل أن شجاراً وقع بين الطرفين، لكن أن يكون رجال عنيزة قتلوا أولئك النفر من الإخوان فأمر مشكوك في صحته. ولم تذكره المصادر المحلِّية، لا الكتابية ولا الشفهية. ولو حدث لكان من المستبعد جداً أن يحجم أولياء المقتولين عن الثأر لهم. وأكثر من ذلك استبعاداً أن يترك الملك عبدالعزيز من قاموا بالقتل دون إنزال العقوبة الشرعية بهم.

(٢) الحج أحد أركان الإسلام الخمسة على كل مسلم مستطيع إلى بيت اللّه الحرام سبيلا.

لزيارة قبر النبي في المدينة إليه إثم منهي عنه بشدَّة(١). ويعدّ تقديس الأولياء السنِّيين الآخرين وقبورهم؛ مثل الرحلة لزيارة قبر عبدالله بن عباس في الطائف، الذي تقصده في الغالب النساء اللاتي لا يحملن. يعدّ نوعاً من الشرك. على أن ابن سعود لا يكلُّ أبداً عن التنديد بالشريف لسماحه بالانحلال الأخلاقي، الذي جعل مكة ذاتها موضع سخرية.

وفي سنة ١٩١٧م (١٣٣٥هـ) رتَّب ابن سعود حجاً رسمياً من نجد على مستوى كبير. وكان فيه أبوه وأخوه محمد. لكن عودة الأول بسبب مرضه قبل أن يصل إلى مكة فسرَّتها الدوائر الشريفية، دون سبب، على أنها إشارة لخوف أو كراهية، في حين أن تجارب محمد وأتباعه من الحجاج، وتنامي حساسية الوضع السياسي جعلت ابن سعود لا يسمح بحج رسمي من نجد خلال السنة التي يتناولها هذا التقرير. وليس لدي داع لتصديق التقارير الواردة من مكة بأن ابن سعود قد هدَّد بأن يعاقبَ المخالفين في هذه المسألة عقاباً شديداً. وكانت أوامره بحدِّ ذاتها كافية في حين عمل هو كل ما هو ممكن، بصفة معقولة، ليسهِّل رحلة حجاج الكويت، التي مرَّت عبر بريدة عندما كنت هناك في نهاية أغسطس.

وعلى العموم فإني أرى أن قرار ابن سعود بألاَّ يرسل حجاجاً من نجد هذه السنة كان احتياطاً حكيماً ضدَّ أية مشكلات. ولم يكن يقصد بأعمال الشريف وتهجُّماته في تلك الفترة، على أية حال، جعل حج نجد خالياً من المجازفة الخطرة والمتاعب.

---

(١) شدُّ الرحال لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، غير جائز. لكن السفر لزيارة المسجد النبوي سنة. ومتى أصبح المرء في المدينة سُنَّ له زيارة قبر النبي، صلى الله عليه وسلم.

١٩ ـ مكان الوكيل السياسي في نجد:

كان قد طُلب مني أخذ رأي ابن سعود حول إيجاد مكان دائم لوكيل سياسي بريطَاني لدى بلاطه. لكن طرح هذه المسألة كان حسَّاساً جداً؛ خاصة مع ازدياد عدم رضاه بمعاملة حكومة صاحب الجلالة له. وإني لآسف إذا قلت: إني لم أجد فرصة مناسبة لتقديم اقتراح كهذا عندما انتهت بعثتي في ظروف لم تدع شكاً في أن ابن سعود لن يقبل به بدون تحفُّظ.

وكان ابن سعود تجاهي أنا صريحاً ووُدِّياً باستمرار. وكنت أراه في الغالب يومياً؛ بل أكثر من مرَّة في اليوم. وقد بدا لي أنه كان مسروراً في إيضاح آرائه لي ومناقشتي في السياسة والتاريخ وشؤون العالم بصفة عامة. وبالرغم من ذلك فقد كان من الواضح لي أن وجودي معه كان مسألة تحتاج إلى شرح طويل للحضور من شعبه الناقد العدائي. وطبقاً لما يقوله هو فإنه ردَّ على التعليقات العدائية من الفئة الوهابية المتشدِّدة بإيضاح أن إقامتي، مع إطالتها، كانت مؤقَّتة وضرورية فقط بسبب الحالة الشريفية والحصار، بحيث وجد من الضروري أن يكون على اتصال مباشر مع الحكومة البريطانية. ولم يسمح قطُّ أن يفترض علناً أني كنت، بأية حال، مهتماً بعملياته ضدَّ حائل.

وفي الوقت نفسه أوضح ابن سعود لي أنه يَعدُّ حضوري ضرورياً جداً؛ بل ومفيداً له. ولم يقترح أبداً أنه يجب علي أن أذهب حتى

أخبرني بصراحة ، في الظروف المشار إليها سابقاً، أنه إذا كانت حكومة صاحب الجلالة غير مستعدَّة لتعديل سياستها الحديثة تجاهه فإنه لن يتوقَّع عودتي أو إحلال غيري محلِّي .

ومن المؤكد أن الرأي العام سيكون معادياً لإقامة مكان دائم لوكيل بريطاني في نجد . لكن ابن سعود، كما أعتقد، سيكون مستعداً أن يسير ضدَّ آراء رعاياه إذا كان مرجَّحاً أن وجود مثل هذا الوكيل سيكون لمصلحته السياسية . وهذا سيعتمد على توجُّه السياسة التي تقرِّرها حكومة صاحب الجلالة فيما بعد .

وعلى أية حال فإننا إذا افترضنا أن سياستنا في المستقبل ستكون على نهج يقنع ابن سعود بأن يوافق على وجود وكيل دائم لحكومة صاحب الجلالة في بلاطه فإن طبيعة الوكالة التي ستقام سوف تكون مسألة تحتاج إلى دراسة جادة . فغيرة أهل نجد وانغلاقهم يجعلان من غير الوارد، في نظري، إنشاء وكالة وفق الخطوط العادية الدارجة في موانئ ساحل الخليج، بكل ممتلكات مكاتب المنشئات والحرَّاس والأعلام . فإبراز قوة غريبة سيكون غير مرحَّب به من الوهابيين، تماماً مثل تدفق الشخصيات الغريبة . بل إن وجود موظفين وخدم مسلمين من الخارج سيكون أساساً للريبة والقلق لدى ابن سعود، وعامل مضايقة لاتِّجاه علاقاتنا معه .

لهذه الأسباب فإني مقتنع، على أية حال، بأن حكومة صاحب الجلالة يجب أن تسعى، لعدة سنوات قادمة، إلى جعل تمثيلها لدى البلاط الوهابي غير ملفت للنظر ومتَّصفاً بالكفاءة ، ويجب أن يكون

الوكيل البريطاني في الرياض راضياً بأن يعيش عيشة الناس هناك، ويتبنَّى عاداتهم ولباسهم، وفوق ذلك أن يقبل القيود المضايقة المفروضة على الاندماج الاجتماعي سواء بتعصُّب الناس أو بغيرة حاكمهم. وربما كان من السياسة في البداية أن تُرَتَّب الأمور على أساس أن يكون وجود الضابط البريطاني في الرياض متقطِّعاً لا دائماً، وعلى شكل زيارات في فترات أكثر من إقامة مستمرَّة.

٢٠ ـ شكر وعرفان:

لا يمكن أن يكتمل هذا التقرير بدون محاولتي أن أعبِّر عن تقديري للمساعدة والعون الكريمين اللذين حظيت بهما من عدة جهات.

فلا أستطيع أن أعبِّر على نحو كاف، عن شعوري بالامتنان للنقيب بي. جي. لوخ[١]، الوكيل السياسي أولاً في البحرين، ثم في الكويت، الذي وقع عليه عبء ثقيل من العمل من كل نوع فيما يتعلّق بالبعثة. وكنت أعتمد عليه دائماً في الترتيب الفوري للعمل العاجل، وفي التعاون المتحمِّس بطرق مختلفة.

وأنا مدين بتقدير مشابه للتقدير السابق للسيد مونجافن Mungavin والملازم ماككولم Mac Collum، اللذين خلفا على التوالي النقيب لوخ في البحرين والكويت. وأشعر بالفضل الكبير للمقدَّم باست Basset، الوكيل البريطاني في جدة، والضباط في مكتبه؛ خاصة النقيب ديكسون والملازم جري Grey، للتعاون الكريم في مسألة الشفرات؛ إذ كنت مضطراً إلى طلبات ثقيلة خلال إقامتي في جدة، وأشكرهم على ضيافتهم السخيَّة ومساعدتهم السبَّاقة لي في عملي.

وأخيراً، إذا كان لي الحق، أنتهز هذه الفرصة لإبداء الشكر على ما لقيته من ضيافة وعطف واعتبار ثابت خلال إقامتي في مصر وفلسطين على يد معالي المندوب السامي في مصر والضباط في مكتبه والرائد

---

(١) بعد اسمه رمزان: .I.A ويعنيان: Indian Army؛ أي: أنه تابع للجيش الهندي.

هوجارث والضبَّاط والموظفين في المكتب العربي في القاهرة، والعميد كلايتون والضبَّاط في الإدارة الفلسطينية، الذين قُدِّر لي أن أتَّصل بهم.

إتش. سانت. ج. فيلبي، آي. سي. إس.[1]

المسؤول عن بعثة نجد

(١) لعلّها ترمز إلى Indian Civil Service: أي: أنه تابع للإدارة المدنية في الهند.



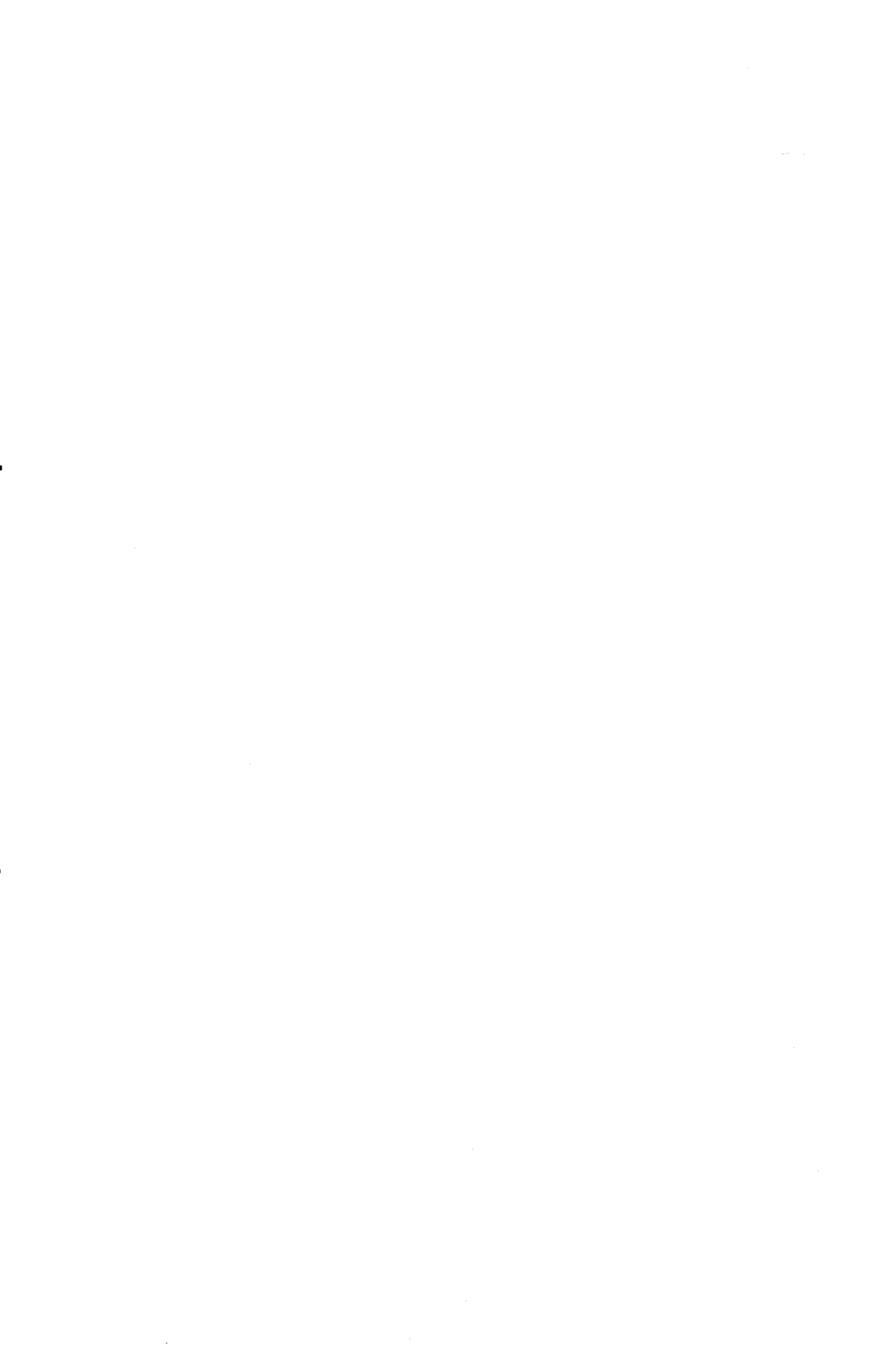
قائمة بالملاحق

الملحق الأول: ملخَّص العلاقات مع ابن سعود.

الملحق الثاني: المعاهدة مع ابن سعود.

الملحق الثالث: إحصاء للأسلحة والذخائر المعطاة لابن سعود.

الملحق الرابع: إحصاء يوضِّح كل المبالغ النقدية التي دفعت إلى ابن سعود منذ اندلاع الحرب.



الملحق الأول

موجز عن العلاقات مع ابن سعود [إضبارة ٢ من التقرير]

يمكن أن يقال: إن عبد العزيز بن سعود، الحاكم الحالي لنجد، بدأ عهده في سنة ١٩٠١م عندما نادى به والده حاكماً للرياض[١]. وكانت الأسرة السعودية حينذاك في المنفى بعد أن أبعدت عن السلطة عام ١٨٩١ م على يد عدوِّها التاريخي ابن رشيد. وفي عام ١٩٠٢ م استعاد عبد العزيز الرياض بمساعدة مبارك بن صباح، شيخ الكويت[٢]، وذلك في هجوم جريء قاده شخصياً. وفي سنة ١٩٠٦م كان قد استعاد السِّيادة القديمة لآل سعود بحيث أصبح يقوم بالحروب إلى أبواب حائل. وخلال السنوات التي تلت عودته إلى الرياض عمل بتحالف مباشر مع شيخ الكويت، الذي كان لديه كل سبب للرغبة في تخفيض نفوذ ابن رشيد. ذلك أن آل رشيد كانوا حلفاء، وإلى حدٍّ ما تابعين للإمبراطورية العثمانية، مموَّلين ومدعومين من القسطنطينية، ويمثِّلون في الجزيرة العربية السياسة التركية الهادفة إلى المركزية التي كان الشيخ يعارضها بقوّة في أراضيه هو. وقد وضعه موقع بلاده

---

(١) كان امتناع الإمام عبد الرحمن عن تولِّي الحكم وتركه مهمَّته لابنه عبدالعزيز بعد استعادة الرياض عام ١٣١٩ هـ/ ١٩٠٢ م.

(٢) أما أن مبارك بن صباح قد أمدَّه ببعض الإبل والأسلحة عند خروجه من الكويت فصحيح. لكن عملية استعادة الرياض تمَّت بقيادة عبدالعزيز ومعه رفاقه من أفراد أسرته وغيرهم.

الجغرافي على سواحل الخليج في علاقات مع الحكومة البريطانية. ومنذ عام ١٨٩٩م أصبح لنا تفاهم ووُدّي معه، ووعدناه بأن نساعده ضد العدوان العثماني. لكن وجود هذه العلاقة جعلنا غير مستعدين أن نراه يغرق في عداوات مربكة غير واضحة في المناطق الداخلية من الجزيرة العربية، كما جعلنا نتصرَّف وفق المبادئ التي وُضعت سنة ١٨٩٧م؛ وهي أننا «لن نكون ميَّالين إلى التدخل أكثر مما هو ضروري للمحافظة على السلام العام في الخليج». ولذلك ثبَّطناه عن رمي نفسه في شؤون وسط الجزيرة العربية. وكان ابن سعود، كما حدَّدته تلك السياسة، خارج حدود اهتمامنا بالرغم من أهمِّيته المتزايدة. ولم يُولَ أهمِّية خاصة في تقاريرنا الرسمية قبل سنة ١٩١١م. ففي تلك السنة صادفه النقيب شكسبير، الوكيل السياسي في الكويت، عندما كان يتجوَّل في الصحراء، وضيَّفه ابن سعود ضيافة كريمة في مخيَّمه، وعبَّر له عن رغبته في أن يدخل في علاقات معترف بها رسمياً مع بريطانيا العظمى[1]. وقد أشار إلى زيارة العقيد بيلي للرياض سنة ١٨٦٥م (١٣٨١هـ)، والعرض الذي قدَّمه والده، عبدالرحمن، عام ١٩٠٤م عندما عُيِّن وكيل بريطاني في الكويت لأول مرَّة. وتكلَّم

---

(١) قد يفهم من العبارة أن تلك الحادثة كانت أول لقاء بين الملك عبدالعزيز وشكسبير. بل إن فيلبي نصَّ على ذلك في كتابه **العربية السعودية**، ص ٢٧٠. وقد بيَّن المؤرخ جورج رنتز في بحثه المشار إليه سابقاً أن ذلك خطأ، وأن أول لقاء بينهما كان في قصر الشيخ مبارك بن صباح بالكويت سنة ١٩١٠م. وقد أخذ للملك عبد العزيز ومن معه من أفراد عائلته والشيخ مبارك صورة من المحتمل أنها أوَّل صورة فوتوغرافية للملك.

بعبارات قوية عن الكراهية التي يكنُّها العرب للأتراك ، واستيائه الخاص من احتلالهم للأحساء؛ وهي المنطقة التي كان حريصاً على استعادتها، ليس لأنها تكوِّن جزءاً من أراضي أسلافه فحسب؛ بل لأنها ستمنحه، أيضاً، ممراً إلى البحر وسيطرة على القبائل من الرياض إلى الساحل . وإنه لينظر بخشية مميتة إلى السياسة العدوانية للنظام الجديد في تركيا، وسيرحِّب، إذا استردَّ الأحساء، بوكيل بريطاني في أحد موانئها. ويضيف أن تجارتنا ستفيد من الأمن الإضافي، الذي سيحافظ هو عليه في طرق القوافل. ولم يستطع النقيب شكسبير أن يجيب بأكثر من قوله: إن الحكومة البريطانية تقصر اهتمامها على الساحل ، ولم تتحدَّ أبداً المطالبات التركية في إدارة أمور وسط الجزيرة العربية، التي لا تهمُّنا، وإننا ـ فوق ذلك ـ في علاقات طيبة مع تركيا، ويجب أن نبتعد عن أي شيء من طبيعته الكيد ضدَّ الحكومة العثمانية. لكن السير بيرسي كوكس قال في تعليقه على التقرير عن ذلك اللقاء: بما أن الباب العالي يبدو ميَّالاً إلى أن يكون عنيداً في تعديل الأمور المتَّصلة بالمصالح البريطانية في الخليج فإننا لا نستطيع تجاهل موقف ابن سعود. فسلطته الشخصية ازدادت كثيراً، وسيكون من الأفضل إقامة علاقات وُدِّية معه، وإن كانت عن بُعْد. وعلى أية حال، فإن وزارة الخارجية قرَّرت أنه من المستحيل في ذلك الوقت أن نحيد عن سياستنا في التشديد على عدم التدخُّل.

وبعد سنتين من ذلك اللقاء استولى ابن سعود على الأحساء ، بدون المساعدة التي حاول الحصول عليها منا ـ مع أنه اشتهر في الجزيرة

العربية بأنه حصل عليها ـ ، وأخرج الحامية التركية الصغيرة منها بدون صعوبة، وثبَّت حكمه في ساحلي القطيف والعُقَير[1]. وعند عودة النقيب شكسبير إلى إنجلترا في يونيو عام ١٩١٤م (شعبان ١٣٣٢هـ) من رحلة طويلة مخطَّط لها عبر الجزيرة العربية ، زار خلالها الرياض، حمل معه شهادة بالسيادة الذاتية القويَّة، التي أسَّستها شخصية ابن سعود القيادية المتوثِّبة. وكان واضحاً من تقارير أخرى أنه يُعدُّ ، خارج حدوده الخاصة، رجل المستقبل. وقد أثبت أنه أكبر من ندٍّ لمحاولات الأتراك غير الفعَّالة لاستعادتهم الأحساء. فلجأوا إلى الدبلوماسية، وبدأوا مفاوضات معه عن طريق السيد طالب النقيب من البصرة. وفي أوائل مايو لخَّص طلعت بك في محادثة خاصة في السفارة البريطانية توقُّعات الحكومة العثمانية في نقط بدت لسامعيه قليلة التوافق مع شروط حقيقية. واقترح إقامة حدود معلَّمة بدقة بين ابن سعود وابن رشيد ، ووضع ممثِّلين للسلطان في الرياض وحائل، والاعتماد على دهاء هذين الموظفين في ضبط تصرُّفات الأميرين بدون اللجوء إلى القوة. أما بالنسبة للأحساء فإن ابن سعود سيعيَّن متصرِّفاً لها ، لكن جمع الجمارك سيبقى في أيدي الأتراك، وسيعاد وضع الحاميات التركية في الموانئ.

(١) من الكتابات عن تلك الحادثة وظروفها ما دوَّنه كاتب هذه السطور في **معارك الملك عبدالعزيز . . .**، ص ص ١٢٩ـ١٤٧ .

ولم يكن هناك شيء أكثر تأكُّداً من أن ظهور ابن سعود على الشاطئ سيجعله حتماً في اتصال مباشر معنا؛ سواء رحَّبنا بذلك أو حاولنا تفاديه. وكان هذا من الأمور التي دفعت الباب العالي إلى العمل أو عجَّلت عمله. لكن المخاوف التركية حينذاك لم يكن لها أساس. فقد كنا مهتمِّين تماماً بنتيجة المفاوضات المطوَّلة مع القسطنطينية حول المصالح في بلاد ما بين النهرين والخليج، التي كانت ذات أهمِّية قصوى. وكنا أقلَّ ميلاً، إذا كان هذا ممكناً، من ذي قبل إلى مجازفات داخل الجزيرة العربية. لقد قمنا بعرض وُدِّي للقيام بوساطة، لكن ذلك العرض رُفض. وعندما قابل الأمير ابن سعود - في أبريل سنة ١٩١٤م (جمادى الأولى ١٣٣٢هـ) - العقيد البريطاني، جري، خارج الكويت أفهمه أننا توصَّلنا حديثاً إلى اتِّفاق شامل مع تركيا، ونستطيع أن نوقف أي أمل له في مساعدته. ونُبذَ ابن سعود ظهريّاً إلى إمكاناته الخاصة، لكن هذه الإمكانيَّات كانت جيدة. أما المعاهدة السريَّة بينه وبين والي البصرة فقصرت كثيراً عن توقُّعات طلعت بك. فقد قبل ابن سعود لقب والي نجد وقائدها العسكري، الذي عُرض عليه وعلى ذريته ما داموا موالين ورافعين للعلم التركي، مقابل أن يدير الجمارك؛ نيابة عن الحكومة العثمانية، ويفرض ضرائبه الخاصة، ويمدَّ حاميتي القطيف والعُقَير. وتقرَّر أن يسدِّد عجز ميزانية نجد من الجمارك، وألاَّ يدفع إلى القسطنطينية من أي دخل محلِّي حتى يأتي وقت يكون فيه وفر في الميزانية. وهذا احتمال يشكُّ في حدوثه. لكن بينما كان لابن سعود أن يمارس في أراضيه سلطة كانت في كل مدلولاتها

-لا بالاسم- سلطة حاكم مستقل كانت مراسلاته مع القوى الخارجية لابدَّ أن تتمَّ عن طريق الباب العالي. وفي حالة الحرب عليه أن يهبَّ لمساعدة السلطان.

وإن من المشكوك فيه أن ينتج شيء ذو أهمِّية عن اتِّفاقية يصوِّر نقصها الكبير اقتناعات الطرفين المتفقين. إن السمة الأولى في شخصية ابن سعود هي ما تجب تسميته الوطنية العرقية أكثر من الوطنية القومية. لكن هذا الشعور من المرجَّح أنه لن ينال اعتباراً وُدِّياً من قادة جمعية الاتِّحاد والترقِّي، الذين كانوا مصمِّمين بشكل عمياني على تتريك العرب. وبصفته وهابياً ملتزماً نظر والي نجد الجديد باشمئزاز إلى انحلال المبادئ الدينية لدى الأتراك، وكان بعيداً عن قبول ادِّعاءاتهم بأنهم يمثِّلون الإسلام ويقودونه. ولقد تكلَّم، في محادثة مع النقيب شكسبير، عن هذه النقطة بشدة غير متوقَّعة، قائلاً: إن الكافر في نظره أفضل من التركي. ذلك أن الأخير حطَّم القاعدة التي يعترف أنه يتَّبعها في حين أن الأول يعمل وفق نظامه هو. وأعلن للسامع نفسه أنه قبل بنود الاتِّفاقية فقط لأنه قد أكِّد له، بصفة خاصة، أنه حتى الدرجة الصغرى من السيادة المعطاة لتركيا لن يُطالَب بها أبداً.

ولقد أدَّى موقف تركيا المزعج عند اندلاع الحرب بين ألمانيا ودول الحلفاء إلى تغيير في سياستنا تجاه الباب العالي. فقد أصبح ضرورياً أن نقدِّر موجوداتنا في الجزيرة العربية. وفي أوائل أكتوبر أمر النقيب شكسبير، الذي كان في إنجلترا، أن يعود إلى الخليج ويتَّصل بابن

سـعـود؛ أمـلاً في أن يمنع، إذا كـان ممكناً، اندلاع اضطراب داخل الجزيرة العربية، ويضمن، في حالة الحرب مع تركيا، ألاَّ تصل إليها مساعدة من ذلك الجزء من الجزيرة. وقبل أن يصل إلى المكان الذي كان متَّجهاً إليه أعلنت الحرب. فبُعثت رسالة إلى ابن سعود لإخباره بزيارة النقيب شكسبير المنْوية، والاعتراف بوضعه في نجد والأحساء، وإعطائه ضماناً ضدَّ أي اعتداء عليه من البحر أو البر إذا تعهَّد أن يدخل ضمن القائمة المعادية لتركيا. ولم يضع الأتراك، من جانبهم، وقتاً؛ إذ اتَّصلوا بأمراء وسط الجزيرة العربية. وقد أوضحت خطَّتهم، التي كانت ترمي إلى أن يقوم ابن رشيد بمساعدة الحملة ضد مصر ويقوم ابن سعود بالوقوف أمام التقدُّم البريطاني في بلاد ما بين النهرين، أنهم غير مدركين للمشاعر التي تكوَّنت تجاههم بين العرب؛ تماماً كجهلهم بأوضاع الصحراء حيث لا تسمح شبكة العداء القبلي لإنسان أن يسحب قواته لغزوة بعيدة دون خوف من هجوم على ممتلكاته غير المحميَّة. ولكي يكسب ابن سعود وقتاً، فيما يبدو، انتهز فرصة عداوته الدائمة مع ابن رشيد، وقاد حرباً سافرة ضدَّه. وعبثاً حثَّه انفير Enver باشا على أن يترك النزاع الخاص، وأرسل إليه، هدية، مبلغاً من المال لمصاريف تعاونه مع جيوش السلطان، ثم وُكل أخيراً إلى السيد طالب مهمَّة إنجاز التصافي بين الطرفين. وفي هذا الظرف كان السيد طالب مشغولاً جداً بمحاولته، عن طريق وساطة الشيخ خزعل وقنصل صاحب الجلالة في المحمَّرة، أن يعمل صفقة مع الحكومة البريطانية تقضي بتبعيَّته لنا في حالة الحرب مع تركيا. لكن الشروط

التي وضعها كانت مبالغاً فيها بحيث يستحيل قبولها. وكان لا يزال متردِّداً حول نصيحة الشيخ خزعل له بأن يخفِّض تلك الشروط، أو يلغيها، عندما جعله إعلان الحرب مشلول الحركة. وقد رأى حينئذ في بعثته المقترحة إلى نجد، وسيلة سعيدة للهروب من البصرة حيث أصبح موقفه الآن خطراً جداً، وغادر بسرعة إلى مخيَّم ابن سعود عن طريق الزبير[1]. وفي أثناء ذلك كان الزعيم الوهابي قد ردَّ على الحث التركي له بأنه لن يتمكَّن من توفير جنود للعراق حتى يعيد ابن رشيد إلى وضعه الصحيح في خضوعه له. وردَّ على الرسالة البريطانية بأنه لم يتزحزح عن رغبته المبداة منذ زمن في علاقات حميمة معنا. لكنه لم يكن غير طبيعي أن يمتنع عن المشاركة السافرة معنا حتى يقتنع بأن تغيير موقفنا تجاهه يُرَجَّح أن يكون دائماً. وبالرغم من ثقته الشخصية في النقيب شكسبير فقد رضي بزيارته بنوع من الريبة. وقد تمَّ الاجتماع في الحادي والثلاثين من ديسمبر (١٤/ ٢/ ١٣٣٣هـ) في الخَفْس قرب المَجْمَعة في سُدَير. وتحدَّث ابن سعود بصراحة عظيمة. وقبل أن يرتبط كلِّية بالأتراك طلب أن تكون تأكيداتنا على مساعدته مجسَّدة في معاهدة رسمية وُضعت بنودها سلفاً. وتشتمل هذه البنود على ضمان من جانبنا باستقلالَ ابن سعود التام، وتعهّد من جانبه بأنه لن يتعامل مع قوى أخرى إلا بعد إعلام الحكومة البريطانية. وقد أخبر النقيب

---

(١) من أحسن الكتابات عن هذا الموضوع ما كتبه الدكتور خالد السعدون، بعنوان «سرُّ رحلة السيد طالب النقيب إلى نجد في محرَّم ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤ م» **مجلة الخليج العربي**، جامعة البصرة، المجلَّد ١٩، عدد ١، ١٩٨٧ م، ص ص ٩٧-١١٢.

شكسبير أنه كان على صلة بالشريف ورؤساء اتِّحاد عنزة الشماليين، وأنهم كانوا مستعدِّين للوقوف معاً، وأنه قبض على جماعة مكوَّنة من أربعة مبعوثين من الأتراك لحثِّه على الوقوف مع ابن رشيد في جهاد ضدنا. لكنه، بعد تشاور مع النقيب شكسبير، أطلق البعثة التركية مع إجابة بأن قوات ابن رشيد كانت مخيِّمة على بعد يومين منه، وأنه لا مجال الآن للسلم بينهما. وفي السابع عشر من يناير(٢/ ٣/ ١٣٣٣ هـ) وصل إليه مندوب من مكة، يحمل رسالة من الشريف عبد الله (ابن الحسين)، ورد فيها أن أباه قد دُعي إلى إعلان الجهاد، وأنه كان منتظراً حتى يسمع منه ماذا يقترح أن يعمل، وقد أجابه ابن سعود: أنه لا يرى مصلحة للعرب في الوقوف مع الحكومة العثمانية، وأنه ردَّ بعثة تركية صفر اليدين.

وبناء على التقرير الذي أرسله النقيب شكسبير من مخيَّم ابن سعود خُوِّل السير بيرسي كوكس أن يمضي في المفاوضات لعمل معاهدة. لكن في الرابع والعشرين من يناير دارت معركة بين ابن سعود وابن رشيد. وكان النقيب شكسبير قد حضرها مشاهداً فقط غير مسلَّح، فقُتل خلالها. ورواية ابن سعود لتلك المصيبة أنه قُتل برصاصة من بندَقية شمَّري، لكن هذه الرواية، على أية حال، مَبنية فقط على معلومات ثانوية المصدر. ذلك أن مما لا جدال فيه أن النقيب شكسبير كان في موضع من ميدان المعركة غير الموضع الذي كان فيه مضيِّفه. ومنذ ذلك الوقت تردَّدت عدَّة روايات مختلفة عما حدث؛ بعضها أقلُّ قيمة من الأخرى. لكن مقارنة الأدلة توضِّح أنه كان قد جُرِح أولاً

في رجله وأُعجز عن الحركة. وبعد ذلك بقليل قُتل برصاصة من فرسان ابن رشيد الذين سحقوا الجناح الذي كان فيه. وفي دوامة الفوضى التي حدثت يُخشَى أنه تُرك أو نُسي. لكن من المحتمل أن ظروف موته الدقيقة لن يُتَحقَّق منها أبداً[1]. وقد عبَّر ابن سعود عن أسفه العميق لفقد رجل يعدُّه أخاً، وهو يشير إليه دائماً بالتقدير والمودَّة.

ولم تكن تلك المعركة حاسمة. فكل من الطرفين يدَّعي النصر. وكل منهما أصبح، مؤقتاً، عاجزاً ومضطراً إلى التراجع. وكانت نتيجتها غير متوقَّعة، ومربكة إلى حدٍّ ما. ذلك أن استعدادات ابن سعود قد عُملت على مستوى استثنائي، وأن قواته، كما قيل، تفوق عدداً قوَّات ابن رشيد، مع أنه كان أقلَّ فرساناً. ويعزو العرب هزيمته إلى انسحاب العجمان. وشجاعة ابن سعود ليست مجال سؤال، لكنه ليس استثنائياً أن يقصر عن بلوغ الهدف في التخطيط للحرب.

وقد أكَّد شيخ الكويت أنه قائد ضعيف في المعركة[2]. لكن إذا كان

(١) تؤكِّد كثير من المصادر أن الذي أصابه رجل من جيش ابن رشيد يقال له: إبراهيم النودلي. ومن تلك المصادر موزل في كتابه الذي ترجمة عنوانه: **شمال نجد**، نيويورك، ١٩٢٨م، ص ٢٤٩. وقد أصبح إبراهيم، فيما بعد، مدافعياً في جيش الملك عبدالعزيز خلال حصار جدة. وقد تسلَّل إليه صالح السعد، أحد خدم آل رشيد البارزين سابقاً، الذي كان مع جيش الشريف في تلك المدينة المحاصرة، وقتله.

(٢) وهل يؤخذ رأي الشيخ مبارك في هذا الأمر بالذات مأخذ الجد؟ إن سيرة الملك عبدالعزيز في معاركه لتوحيد البلاد ثبتت أنه كان مخططاً حربياً ناجحاً.

لم ينزل بابن رشيد هزيمة ساحقة فإنه ـ على الأقلِّ ـ أعجزه عن العمل ومنعه من الانضمام إلى الأتراك، الذين كان سينضمُّ إليهم بدون شك. وكان من المحتمل أن يضيف تدخُّل ابن رشيد، في الفترة الأولى من حملة بلاد ما بين النهرين، مصاعب ذات خطورة لنا. وبالرغم من ذلك فإن موت النقيب شكسبير كان ثمناً غالياً مقابل الفائدة من شلِّ حركة ابن رشيد.

وتفرَّق الزعيمان بدون قتال آخر حتى الصيف عندما عُقدت اتِّفاقية بينهما في العاشر من يونيو (٢٨/ ٧/ ١٣٣٣هـ). وقد اعترف ابن رشيد بمطالب ابن سعود ما عدا سيادته عليه، التي لم يكن متوقَّعاً أن يعترف بها. وتعهَّد ألاَّ يلعب لعبة خيانية تجاه الحكومة العثمانية، لكن سيميل إلى أية حكومة متحالفة مع ابن سعود. وقد قصر سلطته على حائل وقراها وقبائل شمَّر في حين اعترف بسيادة ابن سعود على كل نجد من الكَهْفة إلى الدواسر. والكَهْفة، بدون شكٍّ، هي الكَهْفة التي في خريطة هنتر، وتقع شمال خط العرض ٢٧ درجة بقليل. ولا يمكن أبداً أن تكون تسوية الحدود دقيقة جداً في بلاد قبلية. لكن من الواضح أن ابن رشيد أسقط جميع ادِّعاءاته في القصيم، المنطقة التي كثيراً ما غيَّرت واحاتها الغنيَّة ولاءها. ومن المهم أن يُذكر أن القبائل التي يعتقد أنها من رعايا ابن سعود هي مُطَيْر، وعُتَيبة، وحرب، وبنو عبدالله[1]، والعجمان، وآل مرَّة، والمناصير، وبنو هاجر، وسُبَيْع،

---

(١) معروف أن بني عبد الله من مطير.

وقحطان، والدواسر. لكن هذا الدليل يجب ألاّ يؤخذ على أنه دقيق. ذلك أن قبيلة مُطَيْر أكثرها في الأراضي الكويتية، وعُتَيبة وحرب أكثرهما تحت الشريف.

بعد موت النقيب شكسبير أرسل ابن سعود طلباً فوريّاً كي يُرسَل إليه ضابط آخر، أو إذا لم يكن ذلك، فتستمر المفاوضات عن طريق وكيله في البصرة، عبد اللطيف المنديل. ولم يكن هناك عرض مناسب، لكن ابن سعود قد نُصح أن يوقِّع على معاهدة مبدئية وفق الخطوط العامة للمسوَّدة التي وضعها النقيب شكسبير، ويترك جميع التفصيلات لتُحلَّ فيما بعد. فوقَّعها وأعاد المسوَّدة الجديدة التي سبق أن أُرسلَت إليه، لكن مع بعض التعديلات المهمَّة التي بدا من الأفضل إرجاء نقاش آخر حولها حتى يتمكَّن من ترتيب لقاء مع كبير الضباط السياسيين. ولذلك أُجِّل إتمام المعاهدة؛ خاصة أن ابن سعود كان مشغولاً جداً بأمور داخلية. وكان وضعه الداخلي، في تلك الفترة، غير آمن. فسمعته بين القبائل عانت من العمليات غير الناجحة ضدَّ ابن رشيد، التي فقد خلالها كثيراً من المال والمعدَّات. وخلال الجزء الأكبر من سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ) كان مشغولاً بتمرُّد العجمان الخطر في الأحساء. وقد اعتقد هو أن الثورة هناك كانت بتحريض الأتراك وابن رشيد، لكن من المشكوك فيه أن يكون رأيه صحيحاً. وشيخ الكويت، مبارك، مقتنع أنه ليس هناك دليل يؤيِّد ما ذهب إليه ابن سعود، لكنه – خلال السنوات الأخيرة من عهده ـ لم يكن منتقداً رفيقاً تجاه صعوبات ابن سعود.

وفي رأي مبارك حتى الآن أن المشاكل مع العجمان، فيما يبدو، قد بدأت باستيلاء الأمير على الأحساء سنة ١٩١٣م (١٣٣١هـ). فحتى ذلك التاريخ كانت القبيلة في علاقة طيبة معه، وكانت بصفة عامَّة تعترف بسيادته، لكن امتداد سلطته المباشرة على الأحساء، التي هي مركزها، أضعف ولاءها. وقد حاول أن يفرض عليها ضريبة رؤوس؛ أي ضريبة على كل فرد بالغ، وأوقف أخذها إتاوة على القوافل المارَّة عبر مضاربها؛ وهي الضريبة التي اعتادت أخذها أيام الأتراك[1]. وقد ألهب تذمُّر العجمان أعضاء من أسرة ابن سعود، الذين كانوا في عداء معه منذ زمن، وهم أحفاد عمِّه سعود. وكان قد لجأ اثنان منهم، وهما فهد بن سعود وسلمان بن محمد، إلى شيخ البحرين. وقام الشيخ بمحاولة فاترة ليصلح بينه وبينهما سنة ١٩١٤م (١٣٣٢هـ)، لكنهما رفضا وساطته، وطلبا حماية شيخ أبو ظبي، الذي حصلا منه على نوع من التشجيع عندما تجدَّدت حربهما مع ابن سعود سنة ١٩١٥م. واتَّخذ التمرُّد الآن بُعْداً خطيراً. فأمر ابن سعود بإرسال مزيد من الجنود من الرياض، وطلب المساعدة من الكويت، لكنه هاجم العجمان ليلاً قرب الهفوف قبل وصول أي من المددين إليه، فهُزِم. وكان من أسباب هزيمته عدم شجاعة المجنَّدين من

(١) أما مسألة أخذ ضريبة رؤوس عل أفراد قبيلة العجمان فأمر مستبعد لم يذكره أي مصد ر موثوق. ولم يقم الملك عبد العزيز بمثل هذا الإجراء ضدّ أية قبيلة. وأما إيقافه إتاوة على القوافل المارَّة عبر أراضيها فصحيح. وهذا ما عمله تجاه كل القبائل التي دخلت تحت حكمه.

مدينة الهفوف. وقد قُتل أخوه سعد، وجُرح هو[١]. وكان حظُّه، فترة ما، في غاية الانحطاط. فكان في حاجة ماسَّة إلى المال والسلاح، وكان بكل المعاني محاصراً في الهفوف. وانتهز ابن رشيد الفرصة؛ غافلاً عن المعاهدة الموقَّعة حديثاً، فهاجم القصيم، لكن تقدُّمه صُدَّ بسهولة. وأدَّى وصول قوَّة من الكويت، بقيادة سالم، ابن شيخها، إلى تغيير ميزان القوَّة في الأحساء. فقُضي على العجمان في سبتمبر، وتعقَّبهم بنو خالد في تقهقرهم وهم متَّجهون شمالاً، وأُجبروا على اللجوء إلى الأراضي الكويتية، حيث بقوا حتى وفاة الشيخ مبارك في ديسمبر. وقد قُتل خلال هزيمتهم فهد بن سعود[٢]. أما سلمان بن محمد[٣] فصالح ابن سعود في نهاية السنة. وخلال الصراع سهَّلنا إرسال الذخائر إلى ابن سعود من البحرين، وعملنا ما استطعنا لكبح جماح أبو ظبي. وفي أكتوبر أهدينا إلى ابن سعود ألف بندقية وأقرضناه عشرين ألف جنيه استرليني. وكان الأتراك لم يفقدوا كل أمل بعد في كسبه إلى جانبهم. وفي يوليو، قبل غزو ابن رشيد، اتَّصل به مبعوث منهم، اسمه صالح الشريف الحسني، واقترح أن يقابله، لكن طلبه رُفض. وفي السادس والعشرين من ديسمبر قابل ابن سعود السير بيرسي كوكس في القطيف، وأُكملت المعاهدة التي طال تأخيرها، ووُقِّعت. وبسبب إجراءات معيَّنة أمدَّت ابن سعود

---

(١) تُعرف هذه المعركة بمعركة كَنْزان. وقد سبقت الإشارة إليها.

(٢) الذي قُتِل هو فهد بن سعد بن سعود بن فيصل. ابن هذلول، ص ١٠٨.

(٣) هو سلمَان بن محمد بن سعود بن فيصل.

بضمان لاستمرار حكم أسَري للمناطق التي يسيطر عليها الآن، ووعدته بمساعدة بريطانيا العظمى في حالة هجوم غير مبرَّر عليه من قوى أجنبية. وتعهَّد من جانبه بألاَّ يتصل بأية قوَّة أجنبية، وألاَّ يمنح أي امتياز لأجانب، وأن يبقي الطرق إلى الأماكن المقدسة مفتوحة، وألاَّ يرتكب عملاً عدائياً ضدَّ الشيوخ الآخرين الذين هم تحت حمايتنا.

ولم يكن ابن سعود عالماً بالمراسلات السرِّية الجارية التي كنا نقوم بها مع الشريف خلال شتاء عامي ١٩١٥م و ١٩١٦م. لكن النتائج التي أدَّت إليها لم يكن ممكناً أن تدعه غير مبال بها. فقد كانت العلاقات بين الحجاز ونجد محكومة بالعواطف المتعارضة. وكان من حقِّ الشريف أن يخاف من الأتراك أكثر من خوف ابن سعود منهم، لكنه كان غيوراً من مكانة ابن سعود بصفته زعيما عربياً، وكان هذا الشعور متبادلاً في الرياض. وتغيُّر ولاء القبائل مصدر غني للتنافر في الجزيرة العربية. وعدم وجود أي حدود موضَّحة يزيد من عدم التأكُّد من الادِّعاءات والالتزامات. وفي عام ١٩١٠م زحف الشريف عبداللَّه (بن الحسين)؛ مؤكِّداً أنه يتصرَّف نيابة عن الحكومة العثمانية، إلى حدود القصيم من أجل إعادة تأكيد سلطة يحتمل أنها كانت شيئاً من الماضي، وأنها كانت في أفضل الأحوال صورية. ولايبدو أن النتائج الحقيقية للغزو كانت أكثر من إعادة الإصرار على سيادة الشريف على الأقسام النائية من عُتَيبة، القبيلة التي كانت في وقت ما تحت حكم ابن سعود، لكن أكثرها انسحب إلى الشريف. وقد فرض عبداللَّه، قبل انسحابه،

على قرى القصيم ضريبة صغيرة من المال، لكن من المرجّح أنها لم تُدفَع أبداً[1]. ثم أظهر الشريف، منذ عام ١٩١٣م، نزعات قوية مضادَّة للترك. وقبل اندلاع الحرب تقارب مع ابن سعود. وكانا يتراسلان عندما زار النقيب شكسبير الرياض أول مرة في ربيع سنة ١٣١٤م. وفي يناير سنة ١٩١٥م كانا يعملان في انسجام. وقد أخبر ابن سعود النقيب شكسبير أن الخلافة، في رأيه، ستؤول إلى آل البيت، الذين يمثِّلهم الشريف، إذا خرجت من يد سلطان تركيا. وفي نوفمبر سنة ١٩١٥م ظهر (الشريف) عبداللَّه مرَّة ثانية في نجد لهدف غير واضح. وكان تفسيره لذلك أنه كان مرسلاً في مهمَّة إلى ابن سعود لغرض جمع الضرائب على القصيم وسُدَير. وباستثناء سيادة مشكوك فيها على فئات رُحَّل من عُتَيْبة، فإن الشريف لايبدو، من وجهة نظر بدوية، أن له حقوقاً في أي من المنطقتين، لكون حدوده شرقاً تقع تقريباً بين خطَّي الطول ٤٤ و ٤٥ درجة عند الشَّعْراء والدوادمي وجبل ذُرَيِّع وجبل النِّير. ولم يذكر أن عبداللَّه تجاوز الشَّعْراء بكثير. وقد جمع زكاة من عُتَيبة، وأخضع القسم الموالي الصغير من بُرَيه من مطير، وعاد إلى الحجاز. لكن ابن سعود، الذي ظهر، بشقِّ النفس، من امتحان صعب في الأحساء، لم يكن مجانفاً للحق عندما عدَّ الغزوة في غير محلِّها؛ بل ومثيرة للشكِّ. وهذه المشاعر صُوِّرت في محادثاته مع السير بيرسي كوكس في ديسمبر.

---

(١) من الكتابات عن هذه الحملة ما كتبه الدكتور خالد السعدون، «أضواء على حملة شريف مكة على القصيم سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م» **الدارة**، شوال ١٤٠١ هـ، ص ص ٦٩-٧٥.

فقد ذكَّر كبير الضباط السياسيين أن الوهابيين لا يعترفون بخليفة بعد الخلفاء الأربعة الأوائل، وكان حريصاً على إضافة أن الشريف إذا اتَّخذ اللقب فلن يعمل ذلك فرقاً في مكانته لدى الزعماء الحاكمين الآخرين. وفي يونيو من السنة القادمة (شعبان ١٣٣٤هـ) قام الشريف بثورة سافرة ضدَّ الأتراك، وأعلن استقلال العرب. وفي كتابة ابن سعود إلى كبير الضبَّاط السياسيين في يوليو اعترف بتسلُّمه منه أنباء رسمية بالنسبة للحجاز، وعبَّر عن رضاه بهزيمة الأتراك، لكنه أبدى مخاوفه من أن الشريف قد يمضي ليدَّعي بسلطته على أجزاء من نجد. وتأييداً لهذا الخوف قال: إن الشريف بإعلانه استقلال العرب يبدو أنه يعاملهم وكأنهم كتلة واحدة. وهذا موقف ينظر إليه بقلق.

وفي أغسطس كتب ابن سعود مرَّة ثانية قائلاً: إنه تسلَّم الآن رسالة من الشريف أعلن فيها استيلاءه على مكة، وطلب منه مساعدته. وأعطى موجزاً لردِّه على تلك الرسالة، التي تُسلِّمت صورة من أصلها منذ ذلك التاريخ. وقد أكَّد للشريف أنه سيقدِّم كل مساعدة في إمكانه، لكنه طلب تعهُّداً خطِّياً بأن الشريف سيمتنع عن اختراق أراضيه أو التدخُّل بشؤون رعاياه. ومضى ابن سعود ليسأل السير بيرسي كوكس عما إذا كانت علاقاته مع الشريف قد تُعَدُّ مسألة تخصُّ الزعيمين وحدهما، أو أنها تنال اهتماماتنا، ومن ثَمَّ سيسترشد برغباتنا. وطبقاً للتقارير العربية التي وصلت إلى الكويت فإن الشريف كتب ثلاث مرات إلى ابن سعود؛ طالباً مساعدته، وأنه أرسل إليه في مناسبتين ألفي جنيه استرليني. ولا يستبعد أن هناك شيئاً من الحقيقة في التحويل المشاع لكمِّية صغيرة من النقود.

وكان أقلّ ما يمكن أن يقال عن ردِّ الشريف، المؤرخ في الخامس من سبتمبر (٨/ ١١/ ١٣٣٤هـ)، على رسالة ابن سعود: إنه غير استرضائي ومثير لسخطه الشديد. فقد أعاد الشريف رسالة ابن سعود ومسوَّدة التعهُّد، التي كانت قد بعثت معها؛ قائلاً: إن طلب ابن سعود لا يمكن أن يصدر إلاَّ من رجل فقد عقله. وفي الوقت نفسه تقريباً تسلَّم ابن سعود رسالة من علي حيدر يخبره بتعيين الحكومة العثمانية إيَّاه شريفاً لمكة بدلاً من الحسين، ويدعوه أن يضع يده في يده للجهاد. لكن ابن سعود في إجابته عبَّر عن الاستياء الذي يحسُّه العرب تجاهه وتجاه الأتراك.

وقد تناول كبير الضبَّاط السياسيين بإسهاب قضية الحجاز في رسالة إلى ابن سعود مؤرَّخة في التاسع عشر من أكتوبر (٢٢/ ١٢/ ١٣٣٤هـ). وأشار إلى أهمِّيتها الكبيرة للقضية العربية، التي كان من سياسة الحكومة البريطانية مساندتها، بحيث يجب على كل كبار الزعماء العرب أن يعملوا جميعاً وبالتعاون معنا في المهمَّة المشتركة لطرد الأتراك من الجزيرة العربية. أما بالنسبة لوضع ابن سعود الخاص فلا داعي لتخوُّفه، لأننا قد اعترفنا به حاكماً مستقلاً، ويجب على الشريف أن يدرك المعنى الكامل للمعاهدة. وليس لدى الحكومة البريطانية سبب لتعتقد أنه يضمر أية نوايا عدائية ضدَّ قبائل نجد وأراضيها.

وفي المفاوضات التي تَّمت في ديسمبر عام ١٩١٥م ناقش السير

بيرسي كوكس مع ابن سعود احتمال مساعدته لنا ضدَّ ابن رشيد. وكان حاكم نجد يفكِّر حينذاك أن ابن رشيد إما أن يلتحق بنا أو يبقى على حياد دقيق. وعلى أية حال فإنه إن أبدى عداوة نشطة فإن ابن سعود سيهاجمه ويثير عنزة الشمالية ضدَّه. على أنه فشل في تنفيذ ذلك. فقد كان، خلال الربيع والصيف من عام ١٩١٦م، مشغولاً بتمرُّد آل مُرَّة، الذي تلا تمرُّد العجمان، وربما كان ذا صلة به، والذي عرَّض اتِّصالاته بالأحساء للخطر. ومع أن قسماً كبيرا من شمَّر قد ذهبوا شمالاً مع ابن رشيد ضدَّ العراق فإنه لم يقم بهجوم فعلي على حائل في غيابهم. وفي أواخر يونيو، أو أوائل يوليو (شعبان أو أوائل رمضان سنة ١٣٣٤هـ)، غزا ابنه تركي جبل شمَّر. ويحتمل أن أخبار هذا الغزو عجَّلت بتراجع ابن رشيد من حدودنا. وفي سبتمبر أو أكتوبر، جدَّد تركي هجماته ضدَّ مشائخ شمَّر وقسم من الموالين لهم من حرب [1]. لكن لم ينتج عن هذا إلا الاستيلاء على كمِّية قليلة من الغنائم. وقد أحضر طبيب ابن سعود، عندما مرَّ بالبحرين، رسالة منه مفادها أنه لن يتمكن من عمل شيء ضدَّ شمَّر ما دام العجمان اللاجئون إلى الأراضي الكويتية يهدِّدون جناحه. على أن السبب الحقيقي لعدم نشاطه كان، بدون شك، عدم أمنه في بلاده. لكن العداء العميق الذي يكنُّه للعجمان، الذين لا يعدُّهم متمرِّدين فقط؛ بل قتلة أخيه سعد، كان نذيراً ليصبح مشكلة ذات صعوبة.

(١) انطلق من بريدة في منتصف جمادى الثانية عام ١٣٣٤ هـ ومعه أتباع في طليعهم فئات من مُطَير، وهاجم بهم فئات من شمَّر وحرب قرب الشعيبة. القاضي، ص ٥٢.

وعندما توفِّي الشيخ مبارك في ديسمبر سنة ١٩١٥م[1] ألحّ (ابن سعود) على ابنه وخليفته في حكم الكويت، الأمير جابر، أن يطرد مشائخ العجمان. فأجاب جابر إجابة متَّزنة. فلم يكن مستعداً لطرد العجمان خوفاً من أن يرموا بأنفسهم إلى معسكر العدو، لكنه لن يستطيع أن يقف أمام إصرار ابن سعود بدون خلق نزاع سافر، فطرد القبيلة في فبراير سنة ١٩١٦م. وحدث ما اعتقده. فقد ذهبوا طلباً للحماية أولاً إلى عجيمي بن سويط، ثم إلى ابن رشيد، لكنهم سألوا شيخ الزبير، في مايو، أن يستقرُّوا بهدوء قرب صَفْوان، فوافقهم على ذلك. وبعد هذا قدَّم عدد من قادة مشائخهم الطاعة لنا. وعندما رجع ابن رشيد إلى حائل لم يكن قد بقي عند عجيمي إلاَّ اثنان من مشائخ العجمان، ولم يكن معهما إلاَّ القليل جداً من الأتباع. ولم تكن رغبة ابن سعود الشديدة لتوجيه نشاطه للقضاء على هذه القبيلة تحوز على تعاطفنا، على الأقل في الوقت الحاضر.

ولم يكن الشيخ جابر، الجديد في منصبه، يأمل أن يمارس نفوذاً على ابن سعود مثل ذلك الذي كان يمارسه والده المجرَّب الدبلوماسي. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت العلاقات بين الرياض والكويت، لعدَّة سنوات قبل وفاة مبارك، تزداد فتوراً. فقد غضب ابن سعود بشدّة من موقف مبارك خلال المفاوضات بينه وبين الحكومة العثمانية في ربيع ١٩١٤م. وطبقاً لما قاله فإن مباركاً نصحه أولاً أن يقبل العروض

---

(١) كانت وفاته في ٢١/ ١/ ١٣٣٤ هـ/ ٢٩/ ١١/ ١٩١٥ م.

التركية، لكنه عندما وصل إلى الكويت في أبريل غيَّر رأيه بدون تفسير، ونصحه ألاَّ يتَّفق مع الأتراك، رافضاً في الوفت نفسه أن يحضر مقابلته لوفدهم. وكان الأمير ناقماً جداً لدرجة أنه اشترط بوضوح على النقيب شكسبير ألاَّ يستشار مبارك في المفاوضات بيننا وبينه. وكان إيواء العجمان مصدر نقمة آخر. وفي عام ١٩١٦ م شكا ابن سعود من حادثة ضريبة المرور التي كانت تؤخذ في الكويت منذ أزمان.

وبينما أوضح قلق ابن سعود تجاه أطماع الشريف، وازدياد النفور بينه وبين الكويت، أن الزعماء المتحالفين معنا لم يصلوا إلى تفاهم كاف بينهم كان هناك دليل على أن الأتراك لا يزالون نشطين في الجزيرة العربية. فقد وصلت أخبار من ابن سعود، ومن مصادر أخرى، عن إرسال عميل اسمه: محمد توفيق بن فرعون من دمشق لشراء إبل للحكومة العثمانية. وكان إرساله اختياراً حسناً. ذلك أنه كان صديقاً شخصياً لابن سعود، وأنه قد زار نجداً للغرض نفسه العام الماضي. لكننا قد ألححنا على الأمير، في هذه المرَّة، أن يمنعه من الحصول على الإبل. ونتيجة لذلك قبض على ابن فرعون، وصادر السبع مئة بعير التي كان قد اشتراها داخل الجزيرة العربية، وأرسلها إلى الكويت. وقد أشارت تقارير مختلفة، بعضها من ابن سعود، إلى أن محاولة أخرى لإثارة ابن رشيد ضدَّنا كانت في الأفق. فقد وصل ممثِّل ابن رشيد في القسطنطينية، رُشَيد بن ليلى، إلى حائل ومعه عدد قليل

من الضبَّاط الألمان والأتراك، وكتيبة صغيرة من الجنود الأتراك، وبعض المدافع. وتختلف التقارير حول التكوين الدقيق للبعثة، لكن حضورها إلى حائل، بشكلٍ ما، بدا شبه مؤكَّد. وقد كتب ابن سعود في سبتمبر أنه سيكون مسروراً بمقابلة شخصية مع كبير الضبَّاط السياسيين لمناقشة مسألة التعاون مع الشريف، أو هجوم فعَّال ضد ابن رشيد. وفي أكتوبر كرَّر الطلب بإلحاح، وبدا من المنصوح به، على جميع الأسس، أن يستجاب له. فقابله السير بيرسي كوكس، في العقير في الحادي عشر من ديسمبر، وشرح له ابن سعود وضعه بالتفصيل. وقد خسر كثيراً؛ بشرياً ومادياً، في يناير سنة ١٩١٥م. ومنذ هذا التاريخ وهو في الميدان باستمرار تقريباً؛ أولاً ضدَّ العجمان، ثم ضدَّ آل مرَّة. وكان معظم تجَّارة نجد العادية مع سوريا؛ إذ اعتادت القبائل أن تبيع إبلها إلى تجَّار دمشق. وقد نمَّى الحصار الدقيق الذي فرضه ابن سعود ـ ومصادرة إبل ابن فرعون شاهد على هذه الحقيقة ـ سخطاً أكثر فأكثر لدى السكَّان. فقد تذمَّر النجديون، وتململت القبائل، وتساءل الجميع عن فائدتهم في موقف زعيمهم. وازدادت الصعوبة في إبقائه إياهم تحت سيطرته. أما بالنسبة للشريف فإن السير بيرسي كوكس استطاع أن يعيد الضمان الكامل لابن سعود. وكانت معاهدتنا مع الأمير قد بُلِّغت مكة. وعندما أخبرنا الشريف بعزمه على إعلان نفسه ملكاً للعرب في الخامس من نوفمبر أصررنا على أن يقبل رسمياً بأنه لن يطالب بسيادته على الحكام المستقلين. ولم تكن أخبار تتويجه في مكة قد وصلت إلى وسط الجزيرة العربية، فلم

تناقش. وخلال حديث ابن سعود في البصرة مع كبير الضبَّاط السياسيين أشار إشارة عابرة إلى تسمية الشريف نفسه «سلطاناً». لكن فكره بدا مطمئنّاً تماماً عند سماعه أن حقوقه كانت مضمونة من قبَلنا، وأن الشريف أنكر بوضوح أي تخطيط ضدَّ استقلاله هو وأمثاله.

ولما عبَّر ابن سعود لكبير الضبَّاط السياسيين في لقائهما في العُقَير عن رغبته في زيارة الشيخ جابر زيارة قصيرة في الكويت قبل عودته إلى الرياض شجَّع الفكرة بحرارة؛ إذ بدت ملائمة جداً. وأوصى السير بيرسي كوكس أنه يجب أن يمنح لقب K.C.I.E في مجلس يعقد في الكويت حيث يمنح الشيخ جابر لقب C.S.I.[1]. وعندما صرَّح السير بيرسي كوكس لابن سعود بأن هذا الوسام سيمنح له أخبره، في الوقت نفسه، أنه مفوَّض أن يبلِّغه أن حقوقه قد حفظت بعناية في جميع التعاملات التي أجرتها الحكومة البريطانية مع الشريف. ويقال: إن ابن سعود في إجابته له كان راضياً تماماً فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وعُقد ذلك المجلس في العشرين من نوفمبر (٢٥/ ١/ ١٣٣٥هـ). وقد أتَى لهذه المناسبة شيخ المحمَّرة، وحضرها كثير من البدو، بمن فيهم الأصدقاء من قادة الأسْلم الشمَّرية، والظَفير، ومشائخ مُطَير. وعند منح كبير الضبَّاط السياسيين للوسامين لمَّح إلى رضانا بأن نشعر أن الزعماء العرب الكبار قد مالوا معنا نحو هدف مشترك. وألقى

---

(١) سبق أن أشير إلى ما تعنيه الرموز .K.C.I.E ص ٣٥، هـ ١ أما الرموز .C.S.I تعني Companion of the Order of the Star of India (زميل جماعة نجمة الهند).

بعده شيخ المحمَّرة كلمة مؤيِّدة بحرارة للبريطانيين. وألقى ابن سعود الخطاب الرئيسي في اللقاء. وكان عفوياً وغير متوقَّع. وقد قال: إن الأتراك قد وضعوا أنفسهم خارج نطاق الإسلام بمظالمهم التي ارتكبوها ضدَّ المسلمين الآخرين. وقارن سياستهم بسياسة بريطانيا العظمى؛ مشيراً إلى أن الأتراك حاولوا إضعاف العرب بإثارة خلافاتهم بينما شجَّعتهم الحكومة البريطانية على الاتِّحاد في مصالحهم الخاصة. ومدح عمل الشريف، وحثَّ جميع العرب الحقيقيين على التعاون معه من أجل تقدُّم القضية العربية. وعندما بلغ نهاية كلامه البليغ أقسم الزعماء الثلاثة: شيخ الكويت، وشيخ المحمَّرة، وابن سعود، جميعاً على أنهم سيعملون معنا لتحقيق هدف مشترك.

وقد ترك المشهد انطباعاً عميقاً لدى الشخصيات المحلِّية ومشائخ البدو الحاضرين، الذين سيحملون القصة، بدون شكٍّ، للقاصي والداني. وخلال الحفلات، التي أقيمت في الكويت، أوضح ابن سعود بكل ملكاته البلاغية كيف أدرك الأساس الذي يوجِّه علاقاتنا مع الجزيرة العربية. وضرب مثلاً لسياستنا الكريمة تجاه القضية العربية أننا كنا مستعدِّين أن نشجِّع تصالحاً بينه وبين ابن رشيد إذا ترك هذا الأخير موقفه العدائي. وقد أعطى وصول إبل ابن فرعون السبع مئة، التي كانت كل واحدة منها عليها وسم ذلك التاجر المشهور، نهاية مثيرة لاجتماع الكويت.

وقد ذهب ابن سعود من الكويت إلى المحمَّرة حيث حلَّ ضيفاً على

الشيخ خزعل، الذي تعاون معنا من كل قلبه في محاولة جعل زيارة ابن سعود مفيدة له. ووصل الزعيمان إلى البصرة في السادس والعشرين من نوفمبر. وفي وقت مبكِّر من صباح اليوم التالي صعد كبير الضباط السياسيين، ومعه اثنان من كبار الممثِّلين العسكريين لقائد الجيش الموجودين في البصرة، إلى مركب الشيخ (خزعل)، وأهدى ابن سعود سيف شرف وكلمة ترحيب من قائد الجيش. وقضى اليوم في اطِّلاعه على معسكرات القاعدة وتنظميها وآخر معدَّات الحرب بما فيها الطائرات، التي أبدى اهتماماً كبيراً بها. وكان ضاري بن طُوَالة شيخ الأسلم من شمَّر، وحمود بن سُوَيط شيخ الظفير، حاضرين تلك المناسبة، كما قابل شيخ الزبير إبراهيم وعدد من كبار السُّنَّة في البصرة واللاجئين من بغداد ابن سعود على ظهر المركب.

وقد وضعنا احتفال الكويت وزيارة ابن سعود للبصرة في وضع قوي جدا. فثلاثة من الزعماء الأقوياء أكَّدوا علناً على الصداقة التي تربط بينهم، كما أكَّدوا ثقتهم بالحكومة البريطانية. وقدوصلت إليهم برقية من الشريف يهنِّئهم على حماستهم للقضية العربية، ويبدي أسفه لأنه لم يكن لديه وقت لإرسال ممثِّل له إلى الكويت، ويؤكِّد انطباق أهدافه مع أهدافهم. وفي رسالة لاحقة اعتذر عن أي قصور في رسائله السابقة على أساس أنه ربما كان لانشغاله في الحرب أثر في تقصيره في مراسلاته بدون قصد، وأصبح حلم الوحدة العربية، الذي شغل ذهن أحرار دمشق خلال السنة السابقة للحرب، أقرب إلى التحقيق مما تتحقَّق به الأحلام عادة. لكن دور الجهة الموجّهة له أعادت

صياغته. فبدلاً من دوران الذكي عديم الضمير، السيد طالب، في تيار طموحاته الخاصة، توحَّد زعماء شرقي الجزيرة العربية وغربيها باقتراح من الحكومة البريطانية.

وبالإضافة إلى توحيد القادة العرب هذا فإن اجتماع الكويت قد أدَّى إلى نتائج فورية معيَّنة. ففي المقام الأول اتُّفق على مقدار مشاركة ابن سعود وطبيعتها في الحرب المستقبلية مع ابن رشيد إذا حدثت. وقد تعهّد أن يبقي أربعة آلاف رجل تحت السلاح. فإن تحرَّك ابن رشيد بقوات إلى العراق فإنه سيتَّجه محاذياً له نحو الزبير، وينضمُّ إلى القبائل الصديقة والقوَّة القادمة من الكويت. وأخبر المشائخ الأصدقاء أنه سيساعدهم إن هدَّدهم ابن رشيد بالهجوم عليهم بقواته. لكن إن بقي ابن رشيد في حائل فإن ابن سعود سيشنُّ عليه غارات ويهاجمه كلما سنحت الفرصة؛ متَّخذاً من القصيم قاعدة له. ونظراً للشح في موارده، خلال السنتين الأخيرتين، أعطي ثلاثة آلاف بندقية بذخائرها، وأربعة مدافع ميكانيكية، كما منح مساعدة شهرية قدرها خمسة آلاف جنيه استرليني لتغطية نفقاته. وسيتعهَّد بإبقاء رجاله في الميدان. ولم يعد تعاونه النشط مع الشريف ممكناً . لكنه كان مستعداً أن يرسل أحد أبنائه مع أربعين رجلاً إلى مكة علامة على حسن نواياه إذا عمل الشريف طلباً خاصاً بذلك. وفي المقام الثاني: كتب ابن سعود رسالة، باسم الزعماء الثلاثة، إلى عجيمي بن سعدون توضِّح له الضرر الذي يلحقه موقفه الحالي بالقضية العربية، وتدعوه إلى الدخول في اتِّصالات معهم، وتعده بنظرة وُدِّية وفرصة للإذعان بصورة مشرِّفة.

وأخيراً، بتعاون شيخ الكويت، جابر، والمهارة الدبلوماسية لشيخ المحمَّرة، الذي كان دائماً أكبر مخلص لخدمة كبير الضبَّاط السياسيين، وصلت مشكلة العجمان الحسَّاسة، النابعة من وجودهم بين القبائل الصديقة، إلى حلٍّ مرضٍ. واتفق على هدنة بين ابن سعود والعجمان خلال فترة الحرب، ووضعت مسوَّدة التعليمات التي تحدِّد موقف المشائخ اللاجئين بالنسبة لكل القبائل التي تحت حمايتنا. وعند عودة السير بيرسي كوكس إلى البصرة دعا قادة العجمان، وكانوا منزعجين جداً بقدوم ابن سعود ظانِّين أنه كان نذير شرٍّ لهم. لكن الزعماء الكبار الأكثر شجاعة قبلوا الشروط المقترحة مقابل وعدهم بمكافآت شهرية مشابهة لتلك التي يتسلَّمها المشائخ الأصدقاء الآخرون في الشامية. وقد أبدوا ثقتهم بأن كبار العجمان الباقين، بمن فيهم الاثنان اللذان ما زالا مع عجيمي، سينضمُّون إليهم فور سماعهم بالنتيجة السعيدة لمغادرتهم.

وقد كُتبَت رسائل إلى فهد بك بن هذَّال أُخبر فيها باجتماع الكويت ودُعي إلى الانضمام إلى رابطة الزعماء العرب لطرد الأتراك. وأُرسلَت إليه تلك الرسائل عن طريق رجل من فريق فهد بك كان في البصرة عند زيارة ابن سعود لها، وذهب لرؤيته في المحمَّرة حيث أخذ نصيحة الشيخ خزعل وتعليماته بكل أبعادها. وأعطي، أيضاً، رسائل من الشريف كانت تنتظر فرصة لبعثها إلى فهد بك وهاشم المهيد، وعلي السليمان كبير الدليم وآخرين، وهديَّة نقود لمساعدته في

اتِّخاذ قرار مناسب، وتشجيع النزعة الوديِّة لشيخ الدهامشة، جزاع بن مجْلاد. وهناك اتِّصالات من هذه الصفة في طريقها إلى عطية القلال فَي النجف ومحمد علي كمُّونة في كربلاء.

الملحق الثاني

معاهدة مع ابن سعود

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

مقدِّمة:

إن الحكومة البريطانية العليَّة من جانبها ، وعبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، حاكم نجد ، والحسا ، والقطيف ، والجبيل ، والمدن والموانئ التابعة لها ، من جانبه ، ونيابة عن ورثته وخلفائه ورجال قبائله ؛ رغبة منهما في تأكيد وتقوية العلاقات الودِّية الموجودة بينهما منذ طويل ، وأملاً في تعزيز مصالحهما ، فإن الحكومة البريطانية سمَّت وعيَّنت المقدَّم السير بيرسي كوكس ، كي . سي . إس . آي . كي . سي . آي . إي ، المقيم البريطاني في الخليج ، مفوَّضاً عنها لعقد معاهدة لهذا الغرض مع عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود .

وإن المذكورا المقدَّم السير بيرسي كوكس وعبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود ـ الذي سيقال عنه فيما بعد ابن سعود ـ قد اتَّفقا وتوصَّلا إلى البنود الآتية :

١ ـ إن الحكومة البريطانية تعترف وتقرُّ بأن نجداً ، والحسا ، والقطيف والجبيل ، وتوابعها وأراضيها ، التي ستُنَاقش وتحدَّد فيما بعد ، وموانئها على سواحل الخليج ، ممالك لابن سعود وآبائه من

قبله، وتعترف بأنه حاكمها المستقل ورئيس قبائلها، ومن بعده أبناؤه وذرِّيته بالوراثة. لكن اختيار الفرد للحكم سيكون طبقاً لتعيين سلفه (الحاكم الموجود) له؛ بشرط ألاَّ يكون معادياً للحكومة البريطانية بأي شكل؛ مثل أن يكون ضدَّ الشروط الواردة في هذه المعاهدة.

٢ - في حالة اعتداء أية قوَّة أجنبية على أراضي ممالك ابن سعود وذرِّيته بدون الرجوع إلى الحكومة البريطانية وبدون إعطائها فرصة للاتِّصال بابن سعود وتسوية الأمر، ستساعد الحكومة البريطانية ابن سعود إلى الدرجة التي تراها، وبالطريقة التي تعتقدها، كافية لحماية مصالحه وأراضيه.

٣ - يوافق ابن سعود ويعد أن يمتنع من الدخول في أية مراسلات، أو اتِّفاقيات، أو معاهدات، مع أية أمَّة أو قوَّة أجنبية، وأن يعطي ملحوظة فورية للسلطات السياسية التابعة للحكومة البريطانية عن أية محاولة من جانب أية قوَّة أخرى للتدخُّل في الأراضي المذكورة أعلاه.

٤ - يتعهَّد ابن سعود بأنه لن يتنازل مطلقاً عن الأراضي المذكورة أعلاه، أو يبيعها، أو يرهنها، أو يؤجرها، أو يتخلَّص منها أو من جزء منها، أو يمنح امتيازاً فيها لأية قوَّة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية، وأنه سيتَّبع نصيحتها بدون تحفُّظ بشرط ألاَّ تكون مضرَّة بمصالحه الخاصة.

٥ - يتعهَّد ابن سعود أن يبقي الطرق المارَّة بأراضيه إلى الأماكن المقدَّسة مفتوحة، وأن يحمي الحجاج في مسيرهم إلى تلك

الأماكن وعودتهم منها.

٦ ـ يتعهَّد ابن سعود، كما فعل آباؤه من قبله، أن يمتنع من أي اعتداء على، أو تدخُّل في، أراضي الكويت، والبحرين، ومشائخ قطر والساحل العماني، الذين هم تحت حماية الحكومة البريطانية والذين تربطهم معاهدات مع هذه الحكومة. وستقرِّر حدود أراضيهم فيما بعد.

٧ ـ تتَّفق الحكومة البريطانية، وابن سعود على عقد اتِّفاقية أكثر تفصيلاً بالنسبة للمسائل التي تخصُّ كلا الطرفين.

في ١٨ صفر، ١٣٣٤هـ، الموافق ٢٦ ديسمبر، ١٩١٥ م

(توقيع وختم) عبدالعزيز آل سعود

(توقيع) يي. زد، كوكس، المقدَّم

المقيم البريطاني في الخليج

(توقيع) تشلمز فورد Chelmsford

نائب الوالي والحاكم العام للهند

وقد صُدِّق على هذه المعاهدة رسمياً من قِبَل الحاكم العام للهند في سملا في ١٨ يوليو، ١٩١٦م.

(توقيع) أي. إتش. جرانت Grant

سكرتير حكومة الهند

القسم السياسي والخارجي

الملحق الثالث

بيان بالسلاح والذخائر المعطاة لابن سعود

١ ـ السلاح

ديسمبر ١٩١٥م	٣٠٠	بندقية تركية .
ديسمبر ١٩١٦ م	٤	مدافع آلية .
	١,٠٠٠	بندقية سبطانة طويلة ٣٠٣ .
	٢,٠٠٠	بندقية قصيرة من نوع كاربنز ٣٠٣ .
أبريل ١٩١٧ م	٢	مدفعان تركيان (٧ـ طلقات) .
يوليو ١٩١٨ م	١,٠٠٠	بندقية ونشستر
أكتوبر ١٩١٨ م	١,٠٠٠	بندقية عيار ٣٠٣[١] (نموذج ١٩١٤م) .

٢ ـ الذخائر

ديسمبر ١٩١٦ م	٢٥٠,٠٠٠	طلقة إس . أي . أي .
يوليو ١٩١٨ م	١٠٠,٠٠٠	طلقة إس . أي . أي . (ونشستر)
أغسطس ١٩١٨م	٢٥٠,٠٠٠	طلقة إس . أي . أي[٢] .
أكتوبر ١٩١٨ م	١٠٠,٠٠٠	طلقة إس . أي . أي .

(١) بدلاً من الألف بندقية (ونشستر) المصدَّرة في يوليو، والتي وجدت غير مقبولة.

(٢) لتحلَّ محلَّ الذخائر المصدَّرة في ديسمبر، ١٩١٦م، التي وجدت فاسدة (ربما نتيجة للتخزين الطويل غير المعتنى به).

ملحوظة:

بالإضافة إلى الذخائر المذكورة أعلاه أرسل إلى ابن سعود كمِّية معينة من الذخائر التركية من عيار ٧.

الملحق الرابع

بيان عن جميع النقود المعطاة لابن سعود منذ اندلاع الحرب

التاريخ	بالدولار	بالجنيه الاسترليني
ديسمبر ١٩١٧ م	٣٠,٠٠٠ (أ)	٥,٠٠٠ (أ)
أبريل ١٩١٨ م	١٥٤,٠٠٠ (ب)	-
يوليو ١٩١٨ م	١٠,٠٠٠	-
أكتوبر ١٩١٨ م	٧٠,٠٠٠	-
	٢٦٤,٠٠٠	٥,٠٠٠

أ ـ هدية.

ب ـ قرض (ثم أعفي من دفعه).

ملحوظة:

ما دفع أعلاه (ويصل تقريباً إلى ٤٢,٥٠٠ جنيه استرليني) لا يتضمَّن المعونة الشهرية، وقدرها خمسة آلاف، التي كان ابن سعود يتسلَّمها منذ يناير سنة ١٩١٧م. وبالإضافة إلى النقود المدفوعة إلى ابن سعود فقد تسلَّم في أكتوبر ٣,٠٠٠ كيس رز و ٢٠٠ كيس من السكر، ومثلها من القهوة.

وقررَّت حكومة صاحب الجلالة أن ترسل إليه عند وصوله ٦٠ خيمة هدية.



الفهارس



١- الأعلام المفردة:[1]

(١) لأنه قلَّ أن تخلو صفحة من ذكر اسم الملك عبدالعزيز، رحمه اللّه، فليس هناك داعٍ لإعطاء أرقام الصفحات التي ورد فيها. وكذلك الحال بالنسبة لفيلبي. وقد رؤي أن توضع شرطة بين رقمي صفحتين إذا كان الاسم قد ورد في كلمات الصفحات التي بينهما؛ اختصاراً لرصدها.

اللام:

الميم:

النون:

الهاء:

الواو:

الياء:

٢- الأسر والقبائل:

٣- الأمكنة[1]:

[1] - لم تذكر أسماء الأقطار والأقاليم والعواصم لأنه لا داعي لذلك.

الشين:

الصاد:

الطاء:

العين:

الغين:

القاف:

الكاف:

اللام:

الميم:

النون:

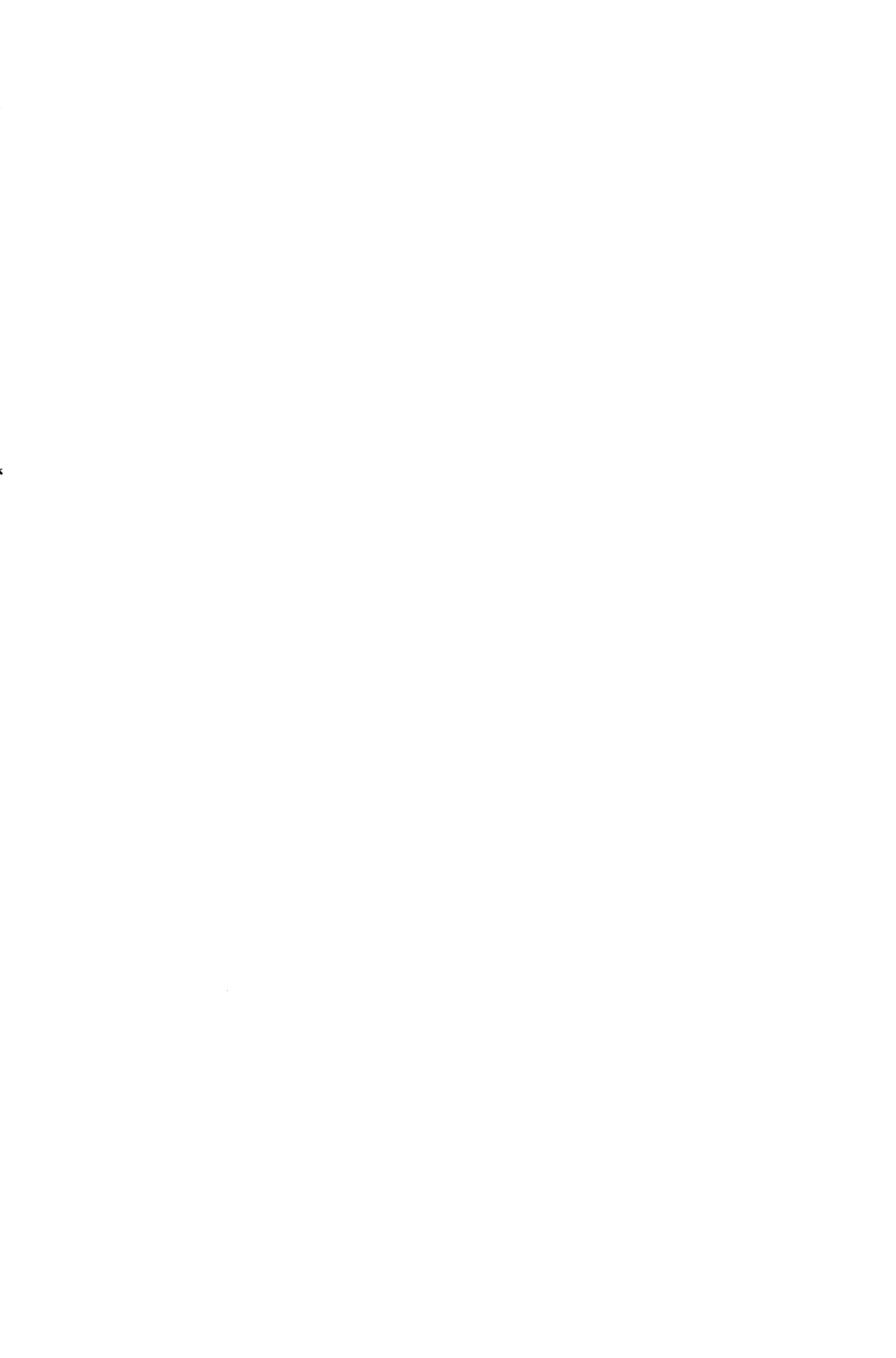
الهاء:

الواو:

الياء:



المصادر والمراجع



أولاً: أعمال باللُّغة العربية:

١ ـ أعمال غير منشورة:

ابن بسام، عبداللَّه بن محمد

تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق، صورة من نسخة نقلها عن الأصل نور الدين شريبة سنة ١٣٧٥ هـ.

القاضي، إبراهيم بن محمد

تاريخ القاضي، صورة لمخطوطة بقلم المؤلف نفسه.

العوهلي، هناء

الأحوال السياسية في الفترة الأولى من حكم الإمام فيصل بن تركي ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ هـ، رسالة ماجستير غير منشورة من قسم التاريخ في جامعة الملك سعود عام ١٤٠٢ هـ.

٢ ـ أعمال منشورة:

ابن بسام، عبداللَّه بن عبدالرحمن

علماء نجد خلال ستة قرون، مكة، ١٣٩٨ هـ.

ابن بشر ، عثمان بن عبداللّه

عنوان المجد في تاريخ نجد، طبعة وزارة المعارف الثانية ، الرياض ، ١٣٩١ هـ.

الجاسر ، حمد

- «الحاج عبداللّه فيلبي ومؤلفاته» ، ثلاث حلقات نشرت في صحيفة الحياة بتاريخ ٢٤ و ٢٥ ، و٢٧ ديسمبر ١٩٩٦ م .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: شمال المملكة، دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٧ هـ .

- المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: المنطقة الشرقية، دار اليمامة بالرياض، ١٣٩٩ هـ.

- معجم قبائل المملكة العربية السعودية ، دار اليمامة بالرياض ، ١٤٠١ هـ.

حمّاد، خيري

عبداللّه فيلبي: قطعة من تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، ١٩٦١ م .

خزعل، حسين

تاريخ الكويت السياسي، بيروت ، ١٩٦٢م .

ابن خميس، عبدالله

معجم اليمامة، الرياض، ١٣٩٨ هـ.

الريحاني ، أمين

تاريخ نجد وملحقاته ، ط ٥ ، الرياض ، ١٩٨١ م.

الزركلي، خير الدين

- **الأعلام** ، ط ٦ ، بيروت، ١٩٨٤ م.
- **شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز**، ط ٣، بيروت، ١٩٨٥م.

دحلان، أحمد بن زيني

خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام، استانبول ، ١٤٠٠هـ.

السعدون ، خالد

- «أضواء على حملة شريف مكة على القصيم سنة ١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠م» **الدارة**، شوّال ١٤٠١ هـ.
- «سر رحلة السيِّد طالب النقيب إلى نجد في محرَّم ١٣٣٣هـ / ١٩١٤ م»، **مجلة المؤرِّخ العربي**، جامعة البصرة، مجلد ١٩ ، عدد ١ ، ١٩٨٧ م، ص ٩٧ ـ ١١٢ .
- العلاقات بين نجد والكويت : ١٣١٩ ـ ١٣٤١ هـ، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٣ هـ.

- «المفاوضات التي أدَّت لعقد معاهدة سنة ١٩١٥ م بين الإمام عبدالعزيز آل سعود وبريطانيا »، **الدارة** ، رمضان ١٤١٠ هـ ، ص ص ١٥٠ـ١٧٥ .

ابن سعود، تركي بن محمد

«علاقة بريطانيا بالملك عبدالعزيز آل سعود: ١٩٠٢ـ ١٩٢٥م» ، **الدارة** ، رجب ١٤٠٦هـ، ص ص ٣٨ - ٥٢ ،

الصالح عبدالرزَّاق والعلي ، عبدالعزيز .

إمارة الزبير بن هجرتين، الكويت، ١٣٠٦ هـ.

عبدالرحيم ،عبدالرحمن عبدالرحيم

الدولة السعودية الأولى، ط ٢ ، القاهرة، ١٩٧٦ م.

العبودي، محمد

المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: معجم القصيم، ط٢ ، الرياض، ١٤١٠ هـ.

العثيمين، عبد اللَّه الصالح

- **تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط٦ ، الرياض ، ١٤١٧ هـ.

- **الشيخ محمد بن عبدالوهاب: حياته وفكره**، ط ٢ ، دار العلوم بالرياض١٤١٢ هـ .

- **محاضرات وتعليقات في تاريخ المملكة العربية السعودية**، ط٢ ، الرياض، ١٤١٣ هـ

ـ معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد، ط ٢ ، الرياض، ١٤١٦ هـ.

ـ **نشأة إمارة آل رشيد،** ط ٢ ، الرياض، ١٤١١ هـ.

ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح .

ـ تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد... ، دار اليمامة بالرياض، ١٣٨٦ هـ.

ـ **عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر،** طبع ملحقاً لتاريخ ابن بشر المعتمد عليه في هذا العمل .

ابن غنّام ، حسين

روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، طبعة أبابطين، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.

المانع ، محمد

توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله الصالح العثيمين، الدمام ، ١٤٠٢ هـ.

المنيف، عبد الكريم

بنو خالد وعلاقتهم بنجد ١٠٨٠ ـ ١٢٠٨ هـ، الرياض، ١٤١٠هـ.

نورتون،

«فيلبي : رجل الجزيرة العربية» مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية،

جامعة الكويت، جمادى الثانية ١٣٩٥ هـ، ص١٥١-١٥٩ .

ابن هذلول، سعود

تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٣٨٠ هـ.

ثانيا: أعمال باللغة الإنجليزية

١ ـ أعمال غير منشورة:

Williamson, J.

The Political Hostroy of the Shammar Al- Jarba Tribe of Al - Jazirah : 1800 - 1850, Ph. D. Dissertation, Indiana University, 1975.

Goldberg, Jacob

The Foreign Policy of the Third Saudi State:1902 -1918 .

Unpublished Ph. D. Dissertation, Harfard University, 1978

Rentz, George

Muhammad Ibn ' Abd al Wahhab (1703 - 1792) and the Beginning of the Unitarian Empire in Arabia, Unpublished Ph. D. Dissertation, University of California, Berkely , 1948.

٢ ـ أعمال منشورة:

- Allen, Mea

Palgrave of Arabia, London, 1972

- Bidwell, Robin

Travelers in Arabia, london, 1976

- Goldberg, Jacob

"Phliby as a Source for Early Twintieth Century Saudi History", **Middle Eastern Studies,** Vol. 21. No. 2. 1985, pp. 223 - 243 .

- Hopwood, Derek

"Papers Relating to Arabia in the Archives of the Meddle East Centre, St. Antony's College, Oxford" , **Sources For the History of Arabia,** King Saud University, 1979, Vol. 2, pp. 145 -151

Philby, St. John

- **Arbia,** London, 1930
- **Arabia of the Wahhabis**, 2 vols. London, 1922
- **Arabian Days,** London, 1948
- **Arabian Highlands,** Ithaca, Cornell, 1952
- **Arabian Jubilee**, London, 1952
- **Arabian Oil Ventures,** Washington, 1964
- **The Background of Islam?**
- **Forty Years in the Wilderness,** London, 1957
- **The Heart of Arabia,** London 1922
- **A Pilgram in Arabia,** London, 1943
- **Saudi Arabia,** London, 1955

Monroe, Elizabeth

Philby of Arabia, London, 1973

Musil, A.

Northern Negd, New York, 1928

Rentz, George

"Philby as a Historian of Saudi Arabia" , **Soruces for the History of Arabia,** King Saud University, 1979, Vol. 2, pp. 25 - 35.

- Troeller, Gary

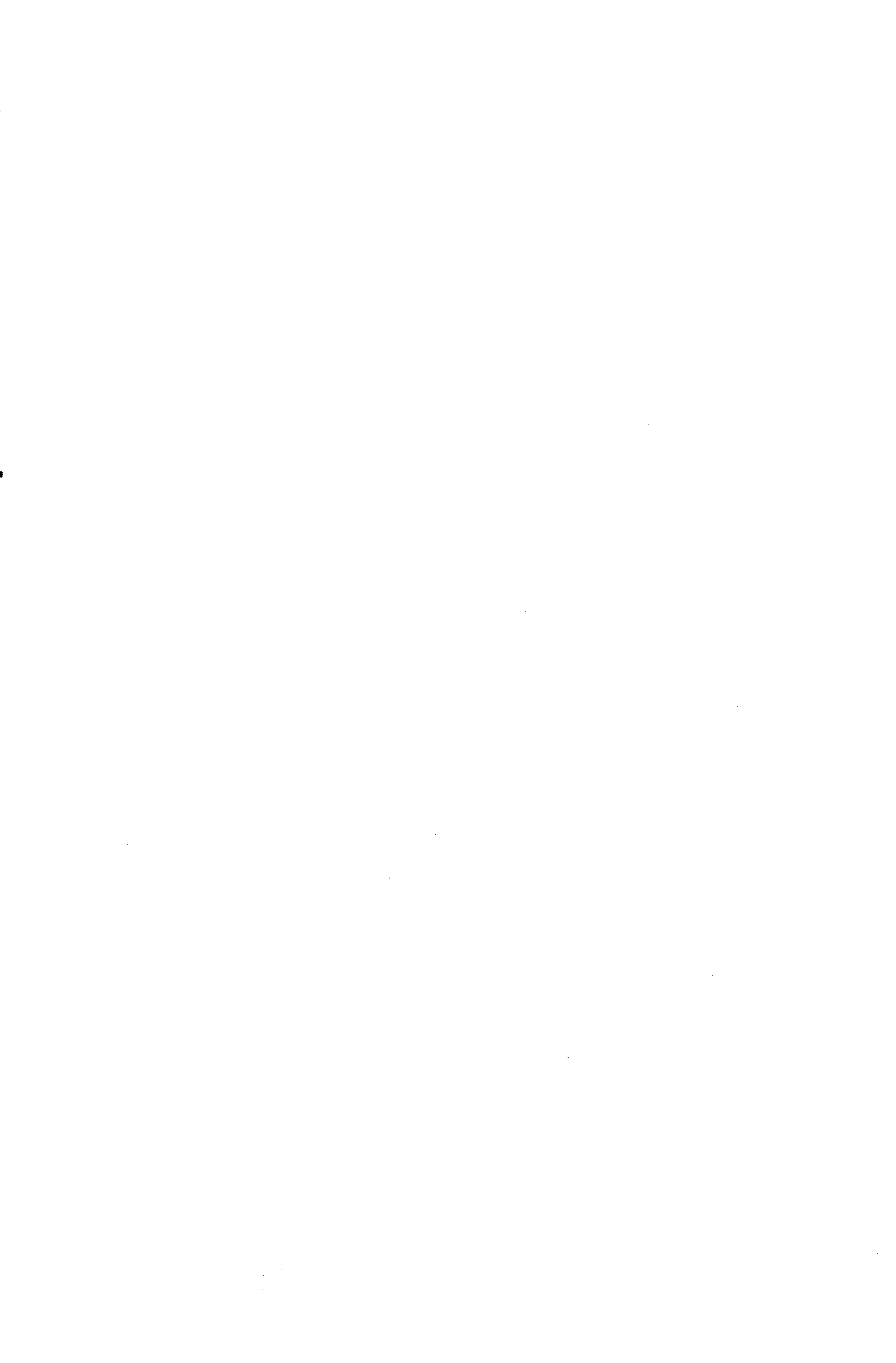
The Birth of saudi Arabia, London, 1976

- Winstone,

Captian Shakespesar, London, 1978.



المحتويـــات



الصفحة	الموضـــوع

العبيكان
Obeikan
Printing & Publishing